على سور الأزبكية..

كانت لنا أيام

كتب في كتاب

أشرف مصطفى توفيق

الكتاب: على سور الأزبكية.. كانت لنا أيام

الكاتب: أشرف مصطفى توفيق

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

توفيق ، أشرف مصطفى

على سور الأزبكية.. كانت لنا أيام / أشرف مصطفى توفيق

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٦٤ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٥٠٤٥ / ٢٠٢٠

على سور الأزبكية..
كانت لنا أيام





مقدمة

هناك أنواع من الكتب:

- كتب مثل الخرائط تهديك لغيرها
- وكتب تحتاج لخرائط؛ فالذي يقلبها يضيع فيها
- وكتب مثل الأوراق المالية مضمونة الفائدة
- وكتب أكثر الناس سمعوا بها، ولكن لم يقربوها، ولكن لا يمكن تجاهلها

ويقول: عباس العقاد (أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفي ولا شيء يقدم له أكثر من حياة واحدة سوى القراءة)

ولا تغني الكتب عن تجارب الحياة، ولا تغني التجارب عن الكتب، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكي نفهم حق الفهم.. أما أن التجارب لا تغني عن الكتب، فذلك لأن الكتب هي تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين، ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لا يستطيع أن يجمع الحيوات في مكانين، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات وهو جالس لكتاب، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرآتين

وقبل أن يكون عندي مكتبة وكتب وغرفة مكتب،كنت أصطاد الكتب من بحر الكتب، أقصد سور الأزبكية بالعتبة.كنت كل خميس يكون هذا مشواري وتلك

فسحتي، أنهي دروسي بمدرسة التوفيقية الثانوية وأذهب لجريدة "الطلاب" بشارع الجمهورية، وقد تبنى مجموعة من طلاب ثانوي الاستاذ (مُحَمَّد سليمة) رئيس التحرير والتشكيلى الأشهر– وهى جريدة للطلاب كان عبد الناصر قد أمر بإصدارها وتخرج بمعرفة هيكل من الأهرام– وهناك أجد من يصاحبنى دوما لسور الأزبكية، وفي معظم الوقت نكون: (أنا، والآنسة نادية حسني، ومُحَمَّد عبد الغني ابن خالتها، ورأفت السويركي، ومصطفي يس) وكلهم عملوا في الصحافة فيما بعد وبرعوا، في حين أن بقت الكتابة طول الوقت هوايةً، والقراءة دواءً وشفاءً

وكنا نشتري الكتب برخص التراب ونفاصل أيضا. وكان الحاج (صلاح الناجي) بائع الكتب الشهير، يعمل معنا "ديل" أو اتفاق نشتري منه الكتاب ونحافظ عليه وبعد القراءة يشتريه بنصف الثمن. وقد جرينا وراء الكتب، وتناقشنا، وتعبنا ووقفنا عند أقدم سؤال في الفلسفة السياسية: ما هو أفضل نظام سياسي لحكم البلاد، أي بلاد؟

ففي عام ١٩٩٢ نشر المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما كتابه الشهير "نهاية التاريخ"، وهو الكتاب الذي قال بأنَّ اللعبة انتهت، وأن الرأسمالية قد فازت على الاشتراكية فوزًا ساحقًا ونهائيًا. لقد انتهى "كأس العالم للسياسة" إذن لم يعد هناك المزيد من المباريات وسيطرت النظرية الديمقراطية وانتهى كل شئ. انهزم الجميع وانتصر الغرب.

ولكن وفي عام ١٩٩٣ نشر المفكر الفرنسي جان ماري جيهينو كتابه الشهير "نهاية الديمقراطية" وهو الكتاب الذي قال بأنَّ النظم الديمقراطية الكلاسيكية إلى زوال وأنَّ القرارات الأساسية للدولة لم تعد تتخذها الشعوب التي تنتخب في العلن، وإنّما جماعات المصالح التي تعمل في الظل وضربنا أخماسًا في أسداس.. ثم جاء الفيلسوف الفرنسي"جاك دريدا" بكتابه الشهير "أشباح ماركس" ليقول بأن "كأس العالم الفلسفي" لم ينته بعد، وأن الماركسية لم تصل إلى الكلمة الأخيرة،كما أن المباراة داخل النظرية الرأسمالية نفسها لم تصل إلى نهايتها، فالتناقضات الداخلية عميقة

وخطيرة، وذهبنا بالكتب للحاج (صلاح الناجي)

نقول: "كتب أونطه، هاتوا فلوسنا"

وقال: أنتم لسه صغار على الفلسفة السياسية. لكل وقت أذان ولكل سن كتب وضحك، ورجعنا كتب السياسة، ورد نصف الثمن كالمتفق عليه..

وعلى سور الأزبكية تعرفنا على الأستاذ "يحيى حقي"، ورشح لنا قراءة "الف ليلة وليلة"، ووجدت هذا المعنى في الصفحة الأولى من "ألف ليلة وليلة" أنه بسبب الخيانة الزوجية.. خيانة زوجة الملك "شهريار" أو زوجة "أخيه الملك شاه زمان" ألف ولا يدري أحد من أَلف.. رواية أو قصة أو ملحمة (ألف ليلة وليلة) فالملك شهريار اشتاق لأخيه الأصغر شاه زمان، واستعد للرحيل وفي آخر لحظة تذكر شيئاً، وكان لا بد أن يتذكر هذا الشيء. وعاد إلى القصر ليجد زوجته بين ذراعي خادم زنجي!! فقتل الاثنين.. لم يتوقف ليسأل لماذا؟! وإنما مضى في سفره لبلد أخيه، ليجد عند أخيه نفس ما عنده: العار والخيانة..

وأستمر مع الصفحات الأولى من"الألف ليلة وليلة" سافر الأخ حزيناً إلى أخيه فوجد الثاني يستعد لرحلة صيد، ولكن شهريار لتعبه من السفر اعتذر عنها، وتصادف أن نظر "شهريار" من نافذة أخيه الأصغر بعد خروجه للصيد، وكانت صدمة، وجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم الزنوج يتبادلون عناقها جميعاً.. بوغت أن مصيبته هو أهون! فزوجته كانت في حضن عبد واحد؟ ومن هذا الهوان والخيبة سافر الأخوان بلاد الله لخلق الله ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال أو أن هذا هو حالهما فقط؟ ففي بداية "الألف ليلة وليلة" كان الحب والخيانة في قنينة واحدة، بل قبل بداية الف ليلة، وقبل أن تفتح شهرزاد فمها،كانت خيانة الزوجات وعبر عن ذلك في الليالى:

"وإذا بباب القصر قد فتح وخرجت منه عشرون جارية وعشرون عبدًا وامرأة أخيه تمشي بينهم وهي غاية في الحسن والجمال حتى وصلوا إلى فسقية وخلعوا ثيابهم

وجلسوا مع بعضهم وإذا بامرأة الملك قالت: يا مسعود فجاءها عبد أسود فعانقها وعانقته وواقعها وكذلك باقي العبيد فعلوا بالجواري ولم يزالوا في بوس وعناق ونحو ذلك حتى ولى النهار"؟!

أما رجاء النقاش فحين قابلناه على سور الأزبكية، كان يبحث عن كتاب الأغاني للأصفهاني. ولكن ما هذا الكتاب الذي لا ينتهي.. وصلنا للجزء الخامس، وقيل لنا أنه ٢٤ جزء – غير منشور منها وقتها غير ١٩فقط – وهو كتاب في الفسق والعشق ولكنه في جو عربي عباسي شرقي صرف؟!..

ويبدأ الكتاب بمسابقة يجريها هارون الرشيد، لاختيار أفضل مائة أغنية في زمانه – هل لاحظت العدد؟ – ويسجل الكتاب أن المرأة في ذلك الوقت كانت حرة تماما، فهي تطارد الشعراء، وهي تبعث بمن يأتي بهم، وكثيرا ما وجدنا زوجات الخلفاء يبعثن للشعراء المشاهير ويقدمن لهم الشراب، ويرقص لهم الجواري؛ فالشعر في الكتاب قضاء وقدر.. ويكتب عن (عمر بن أبي ربيعة) شاعر فحل ولكنه فاجر، فهو يذهب للكعبة ويطوف ويعاكس النساء فأبو الفرج الأصفهاني رجل ابن حظ لم يكتب غير هذا الكتاب ولم ير في الدنيا إلا مجالس الأنس والطرب.

وكنا إذا اشترينا كتبا عدنا بها فرحين وكل منا قد اتفق مع من من الشلة بعد القراءة يبدل ويغير كتابه بالاستعارة المتبادلة. أما إذا لم نشتر نتسكع في شانزليزيه مصر"وسط البلد"، وننتهي عند البن البرازيلي، ونحتسي البن، وتقابلنا يوما هناك مع أنيس منصور، وكان وقتها رئيس تحرير آخر ساعة.

وقلنا: نحن صحفيون بجريدة الطلاب ممكن نتصور معك؟

وقال: صحفييون.. أرجوكم.

وضحكنا.. وقد سعد وقتها الرجل بعادتنا في شراء الكتب من سور الأزبكية. وقال لقد مدح شوقى أمير الشعراء الكتاب وجعله أصدق من الصديق

أنا مـــن بـــدل بالكتـــب الصـــحابا   لم أجـــــد لي وفيــــا إلا الكتــــابا

ولم يرتح رأفت السويركي شاعرنا للبيت الشعري وشكك فيه وطعن على أمير الشعراء وتمسك بالبيت الأستاذ أنيس، ولكن السويركي قدم درسا عظيما في النحو، قال الأصح أن يقول: أنا من بدل بالصحب الكتابة فحرف الباء يدخل على الشيىء المتروك، فهو ترك الأصدقاء من أجل الكتاب.. فهل يرتكب شوقي تلك الغلطة؟!

وفي اليوم التالي كتب الأستاذ أنيس عن: أشهر غلطة لشوقي!! وشنع به وعليه.. غلطة: أنا من بدل بالكتب الصحابا.

وحين دخلنا الجامعات، والمعاهد، ووجدنا الجماعات الإسلامية أمامنا وفي ظهورنا، ولم يقبلوا منا (إيمان أبو ذر الغفاري): أن نصلي الصلاة المكتوبة، ونصوم رمضان، ونحلل الحلال، ونحرم الحرام.. ولا نزيد عن ذلك شيئا، ولم نكن نعرف كيف نزيد؟

وقالوا والزكاة؟.. قلنا لا يوجد زكاة لمن يتلقى مصروفه من والديه قالوا والحج؟. قلنا لا نستطيع إليه سبيلا..

وضحكوا: أأنتم من يحل الحلال ويحرم الحرام؟! وجرينا على سور الأزبكية نبحث عن الكتاب الديني والتراث الديني، لقد عقدوا الدنيا والدين علينا ووجدنا كتبا دينية كثيرة واستغربنا كيف تحول سور الأزبكية معنا للكتاب الديني؟!

ووقعت في يدي مجموعة السحار"محمد ﷺ والذين معه" وقال الحاج (صلاح الناجي): "نعم الاختيار.. إنها سيرة الرسول والصحابة من المهد للحد"، ثم أزاد من الشعر بيتاً: "لقد كتبها السحار بمعاونة من سيد قطب ولولا ما حدث لكان اسم قطب عليها مع السحار"، ودخلت للكتاب الدينى ولم أخرج منه.

وصار حالي مع الكتب يشبه حال خليل صويلح "الكاتب والروائي السوري".. الذي قال: (إنها لعنة أبدية تجعلني في تجوال طليق يطيح كل صباح بهندسة رفوف

المكتبة، رأسا على عقب أسحب كتابا وأطوي آخر، أنظر إلى مئات الكتب أمامي وخلفي وفوقي وعلى الأرض وأتحسر حزنا، مرة لأنها جاءت متأخرة، ففي صغرنا وشبابنا كانت الكتب نادرة في حياتنا، ومرة لأن الكتب صارت كثيرة الآن ولكن الوقت قليل)، وأستمر في جمع الكتب، وأستسلم لأحلام ذهبية بأنه سوف يجيء وقت أقرأ فيه كل ذلك، والوقت لا يجيء، والكتب تتكدس بعضها فوق بعض وفوق عذابي أيضا.

ودخلت مسابقة يوسف السباعي بالكتابة عن يوسف إدريس؟![1]

يبدو أن يوسف إدريس – على عكس النبي زكريا – دعا ربه أن يكون فرداً، فجاء مختلفاً عن كل الأدباء والكتاب، صنع لنفسه تركيبة إدريسية خاصة ومذاقاً خاصاً، هذه التركيبة تقترب أو تبتعد عن الواقع لا يهمه، أو لا يهم؛ فلقد قرر أن يكون المشاغب الثوري العاشق الذي ينزل بحار الممنوع ويغوص في المحظور..كان يرى أن من حق الفنان أن يقول كل شيء، ويفعل أي شيء دون ضابط ما دام مخلصاً فيما يقوله ويفعله، دعا إلى الغوص في الفن، الحرية المطلقة دون أية عوائق، وحتى لو كانت تلك العوائق هي قوانين الإبداع الفني نفسه. وله قولة غريبة في ذلك: "الفن هو الرؤية، هو النظرة الجديدة لأي شيء وليس القالب الحديدي المتكرر الممل، ما دامت هناك رؤية مبتكرة فهذا فن، ولا ينقسم الفن إلى قصيدة، ومسرح، ورواية، وشعر. من الذي فعل هذا، وقسمنا نحن المبدعين".. إنه المؤلف الذي اعترض على "نظرية موت المؤلف" وقرر ألا يصمت بعد عمله بل يرد على من نقده، ويتدخل في كل شيء إذا جاء من يريد تحويله للمسرح أو السينما. ويستغرب الجميع أقواله الحادة عن بعض الظواهر ومطالبته بنفسه بحقوق لا يتمتع بها أحد كحقوق الفنان في ممارسة التجارب الكثيفة في الجنس، والتحليق الفكري، والتجارب الوجدانية، التي تخرج على الشائع والمألوف والسباحة مع التماسيح وأسماك القرش، والتحليق في أعلى القمم، التي لم يعرفها بشر، لكي يحول هذه التجارب القصوى ذات اللهب إلى كتابة فنية جديدة

---

[1] هذه المقالة دخلت بها في منتصف التسعينات مسابقة يوسف السباعي للمقال النقدي، وفزت. وقد شجعتني على دخول المسابقة، الصديقة والأديبة الكبيرة "سلوى بكر" كانت ترى أني ناقد واعد، وألحت أن أدخل معهد النقد، ولم اطاوعها، ولكني دخلت المسابقة "مسابقة يوسف السباعي للمقال النقدي" ثلاث مرات متتالية وفزت فيها كلها: مرة بهذه المقالة، ومرة عن رواية نجيب محفوظ "أولاد حارتنا"، ومرة عن تجربة الحكيم في مناجاة الله!!.

طازجة، فلم يعد هناك فرق لديه بين ممارسة الحياة اليومية العادية، وبين خوض التجربة الفنية الكثيفة.

إن الكثير من غرابة سلوكه الظاهري لا يرجع إلى خلل في الأخلاق بل إلى شقاوة الطفل الفنان وهو يحرق أصابعه في نار التجربة الجديدة، لأنه يريد أن يغوص في جوهر التجربة، إلى آخر آفاق الإحساس الإنساني، إلى آخر آماد العقل والتفكير إلى إفناء العقل في هاوية الغيبوبة وتتبع الصور والرؤى المنطلقة. ولهذا كان يمر بأزمات شديدة أهمها في رأيه أنه يملك اعتقاداً بأنه لم يحقق ما كان يصبو إليه في الكتابة الفنية؛ فيوسف إدريس فردي يرى العالم بعينه هو، وللعالم مذاق خاص عنده!!

وإذا تحدثنا عن علاقته بالمرأة، سنجد أنه لديه آراء ومعتقدات لا تنتهي عنها (فمثلاً مما قاله في كتابه "ذكريات يوسف إدريس" لرشاد كامل: "يا عزيزي.. أرجو ألا يغضب أحد من كلامي.. أنا من أنصار أن يحدث طلاق واثنان وثلاثة إلى أن يقع الإنسان على اختيار صحيح بدلاً من أن يضيع العمر في اختبار شيء!!)

ويقول "أنا لست من أنصار أن لا يهدي الكاتب شيئاً مما يكتب لزوجته". وحتى وقت قريب لم أكن أستطيع أن أكتب و"رجاء" – يقصد زوجته – بالمنزل، كنت أبعث بها إلى أمها؛ فالكتابة عورة كنت لا أطلع عليها أحداً إلا بعد أن تصبح متدثرة في المطبعة!!

ولم يكن من الكتاب الذين يحملون فلسفة "أنا مسئول عن العمل المكتوب وحده" وإنما كان يقول: أنا مسئول عن أي عمل وضع تحته اسمي من الجلدة للجلدة!! ولذا لم يعترف للمسرح والسينما بأنهما عالمان منفصلان عنه؟! وإنما قرر أن يكون النص هو السيد في كل الفنون ولذا تجده يختار بطلات أعماله في السينما ويجلس معهن ولقد فعل ذلك مع "نادية لطفي" في قاع المدينة، و"فاتن حمامة" في الحرام!! إنه لا يؤمن بنظرية "موت المؤلف" فهو يتدخل بعد الكتابة ويحب أن يكتب هو السيناريو لأعماله، ويختار بطلات أعماله، ويعاند المخرجين ليكون النص هو

البطل في المسرح والسينما، كما هو في الكتاب؟!

ولم يعرف كاتبة أو فنانة أو واحدة إلا وأطلق عليها في اللقاء الأول عبارة "صديقتي"، وقد انبهرت "نادية صالح" وهي تسأله في برنامجها "من مكتبة فلان" عن أصدقائه؛ فقال "نادية صالح" وكانت أول مرة تقابله!!

ولذا قدم لأعمال كل من عرفهم من نوال السعداوى لصنع الله ابراهيم حتى منى حلمي، وحينما قدم مجموعة "منى حلمي" قال في التقديم: مازلت أذكر تلك الليلة كنت في زيارة للصديقة نوال السعداوي؛ فنوال كاتبة مفكرة ثائرة قصاصة ككتلة ملتهبة من الشمس، انفصلت واستقرت على الأرض ولا تزال شمسية ملتهبة، لم تبرد بعد ولا أعتقد أنها ستبرد وبعد عشرة أسطر عن د/ نوال السعداوي تحدث عن ابنتها "منى" صاحبة مجموعة قصص"أجمل يوم اختلفنا فيه!!" ثم أنه اختار من عبارات المجموعة أقربها لنفسه: علاقتي بقلمي كعلاقتي بملامحي وأعضاء جسمي، علاقة نفسية وعضوية، أحملها داخلي، أتنفس بها أتحرك خلالها، أحلم معها، أغضب من أجلها وأهدأ فيها.. ليقدم المجموعة!! ولهذا لم يكن صدفة أن يسير في جنازته ست كاتبات: فريدة النقاش، اعتدال عثمان، ود.نهاد صليحة، وسلوى بكر، ونهى رضوان، وفوزية مهران، وحضرت سناء البيسى الدفن مع زوجته، وأصدرت عنه في مجلة "نص الدنيا" فيما بعد عدداً خاصاً!!

وكان زواجه حدثاً غريباً جعل "نعم الباز" تضع زوجته مع من وضعت في كتابها "زوجاتهم وأنا" سنة ١٩٧٤ فقد وصفت يوسف إدريس بالغرابة "كان غريباً تختلط فيه الرقة المفرطة بالعنف الشديد.. كان صريحاً بشكل عجيب.."حدثته وكأني أعرفه من زمن بعيد". وقالت إنها منذ شعرت بأنه وضوح وغموض، عنف ورقة، وكأنه باستمرار هدف يسبق عاصفة.. ولكنك لا تعرف هل بدأت أم سوف تبدأ.. ظلت تشفق على زوجته حتى قبل أن تراها "لأنها سمعت منه أنها صغيرة وأنه رآها فعبر لها عن ذلك بقوله "فقررت أن تكون لي" وتزوجها بعد فترة قصيرة!! وكان هذا الحوار بين الزوجة ونعم الباز بعد ٩ سنوات زواج!!

– كم عمر زواجك؟

–٩ سنوات.. هي عمري تقريباً.. فقبلها لم أكن شيئاً يذكر.. كنت فتاة صغيرة مثل مئات الفتيات في بلدي.. أخذت قسطاً من التعليم بالمدارس الفرنسية، وألتقط من الجرائد ما أريده "أخبار الموضة، أخبار البنات.. أقرأ قصة.. ثم جاء إلينا يوسف صديقاً لأحد أقاربي.. وجدت نفسي مشدودة إليه.. لقد كان بالنسبة لي فارس الأحلام وكنت في قمة حلمي حينما تقدم لخطبتي فعلاً.. وتم زواجنا بسرعة وتعجب الكثيرون لهذا الزواج.. فكيف يتزوج الكاتب الذي مازال في أول الطريق يمشي على الحصى من فتاة صغيرة تمشي بحذر إلى دنيا أخرى جديدة وتتلمس من يأخذ بيدها في هذا الطريق الجديد.. كل منا يتحسس طريقه ولم يتبين بعد.. أما أنا فكنت أعتقد أن طريقي مفروش بالورد ومعي الفارس ذو العيون الخضر.. ولكني فوجئت بالأشواك وفوجئت بالظلام يلفني في كثير من فترات حياتي الأولى معه كان بالنسبة لي كالجبل أريد أن أتسلقه لأستريح فوق القمة.. عند الجنة التي كان مفتاحها صعب العثور عليه وكثيراً ما أطل الفشل بإصرار، ولكن كنت أحاول أن أصل إليه..كان متناقضاً وعجيباً مرة حنون رقيق ناعم، ومرات عزوف بعيد عني.. كنت لا أعرف متى أقترب منه ومتى أبتعد عنه؛ فقد كان بالنسبة لي شخصيتين: الأولى الطبيب مفتش الصحة الذي يخرج صباحاً لعمله ويعود ظهراً، والثانية فنان أديب فيه كل ما في الفنانين من حساسية والتقاط لما حوله وكأنه مغناطيس أو كاميرا حساسة جداً.. وكنت أنا ضحلة في معلوماتي قراءاتي كلها خفيفة جداً.. وربما كان توفيق الحكيم هو الكاتب الذي يشدني للقراءة ولكن لم آخذ من القراءة ركناً مهماً في حياتي.. وكان لا بد أن أحاول الوصول إلى منابعه، وكان لا بد أن نتقابل أو حتى نمسك بخيوطنا التي تتعقد...

– متى اهتز بكما عش الزوجية بعنف؟

– قالت وكأنها تغلق صندوقاً لن يفتح إلى الأبد.. اهتز كثيراً وبقسوة حينما كنت صغيرة.. عندما كنت على أبواب تفكيره.. وأعتقد أن هذه الهزات هي التي جعلت العش المصنوع من القش ينقلب إلى عش متين البنيان ولكن فيه رقة العش

وحنانه ودفئه، وفي رأيي أن الحياة الزوجية التي تمر بفترات قاسية وهزات عنيفة عمرها أطول وبنيانها أقوى من الحياة الزوجية العادية التي تكون كالماء الفاتر الذي لا يمر بمرحلة الغليان أبداً.. ومن رأيي أيضاً أن التعارض والاحتكاكات هي التي تخلق التفاهم وتقارب من وجهات النظر. فهل كانت نعم الباز تعرف حكايته وغرامه مع تلك المغنية؟!

– سألتها: ما هي القصة التي هزتك من قصصه؟

– قالت بسرعة: هزتني قصة اسمها "اللعبة"، وهي قصة لا تحكى، ولكنها عند قراءتها تعطيك إحساساً معيناً وتفكيراً معينا، وربما لا تكون أحسن قصصه ولكنها جعلتني بعد قراءتها أنشغل بالتفكير فيها وقتاً طويلاً.. أما القصة التي جعلتني أبكي فعلاً فهي "لن تقوم القيامة".

أما إذا تحدثنا عن علاقة أدبه بالجنس منذ نشر أول قصة له بعنوان "أنشودة الغرباء" سنة ١٩٥٠ ومجموعة "أرخص ليالي" سنة ١٩٥٣ فيكفي أن نشير إلى وجود ثلاث دراسات عن أدبه استخدمت فيها عبارة "الجنس":

– دراسة الجنس والمجتمع في مجتمع قاع المدينة عند يوسف إدريس "كاترين كويام"

– دراسة فلسفة الحرام عند د/ يوسف إدريس "د/ غالي شكري"

– دراسة قانون الصمت في أدبه بين الدين والجنس "كاترين كويام"

ويكفي أن نقرأ مجموعة "بيت من لحم"، وقصة "بيت من لحم" بالذات، أو رواية "الحرام" التي صدرت عن الكتاب الذهبي سنه ١٩٥٩ لتعرف فلسفته الخاصة في الجنس والتي تشبه لحد كبير ما يقوله العالم النفسي "فرويد": "الجنس هكذا بلا سبب، إنه عذابنا الذي أصابتنا به لعنة الآلهة منذ آدم، أو نحن نعذب به، كما كانت آلهة الأولمب تعذب تنتالوس بأكثر من عذاب وأكثر من صورة، ولكن الإله العبقري الحقيقي عذبنا بشيء واحد: الجنس + وانفخ يا إبليس".

في "بيت من لحم" يرضخ الجميع للقانون، وتدور لعبة الخاتم في صمت لا يخرقه أحد، تزوجت الأرملة من المقرئ "الضرير" والبنات الثلاث جائعات محرومات جنسياً، والخاتم هو الوسيلة الوحيدة المتاحة للشيخ الضرير، لمعرفة "حلاله" وبالخاتم "الشرعي" الذي يحلل الحرام تبدأ القصة: الخاتم بجوار المصباح، الصمت يحل فتعمى الآذان، في الصمت يتسلل الإصبع، يضع الخاتم في صمت أيضاً المصباح، والظلام يعم، في الظلام، أيضاً تعمى العيون. الأرملة وبناتها الثلاث/ والبيت حجرة/ والبداية صمت. الأم وبناتها، وكلهن مبصرات، صامتات. أما الشيخ الضرير، ولأنه ضرير، فإنه يضحك، وينكت، ويغني حتى يستبدل الإحساس بالبصر الضائع، كان أول الأمر يقول لنفسه إنها طبيعة المرأة التي تأبى البقاء على حال واحد؛ فهي طازجة صابحة كقطر الندى مرة ومنهكة مستهلكة كماء البرك مرة أخرى، ناعمة كملمس ورق الورد مرة، خشنة كنبات الصبار مرة أخرى، ولكن الخاتم دائم وموجود صحيح، ولكن وكأنما الإصبع الذي يطبق عليه كل مرة إصبع مختلف، إنه يكاد يعرف، وهن بالتأكيد كلهن يعرفن، فلماذا لا يتكلم الصمت، لماذا لا ينطق؟ ولكن السؤال يباغته ذات عشاء، ماذا لو نطق الصمت؟ ماذا لو تكلم؟ مجرد التساؤل أوقف اللقمة في حلقه، ومن لحظتها لاذ بالصمت تماماً، وأبى أن يغادره. بل هو الذي أصبح خائفاً أن يحدث المكروه!!

ويرى "كاترين كويام" أن هذه القصة هي المعالجة العصرية لما جاء في التوراة في سفر التكوين عن لوط، وقالت البكر للصغيرة: "أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض هلمي نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً" فسقتا أباهما خمراً.

أما في الحرام "فلاحظ لحظة القرار بالجنس عند يوسف إدريس، كيف يربطه بظروف السقوط الاجتماعي" ولا يعطيه أبعاد العاطفة والحب ويعمد إلى إبراز قطبي العلاقة فيه، وكأنها ممثلة للخير والشر

"وفي إحدى لحظات الدلع عند المريض، طلب الزوج من عزيزة: نفسي في

البطاطا يا عزيزة.. وذهبت عزيزة، أخذت تضرب بالفأس دون جدوى. لمحها ابن صاحب الحقل، فأقبل يساعدها في البحث عن البطاطا ونجح فعلاً في أن يعثر لها على حبة منها، ولكنها في لهفتها لم تفطن إلى الحفرة التي كانت وراءها، وعلى هذا سقطت فيها وما كادت تحاول أن تقوم حتى كان مُحَمَّد إلى جوارها في الحفرة يساعدها. مرة واحدة وجدت نفسها في حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها"

أما القصة التي أثارت زوجته فهي قصة "لأن القيامة لا تقوم" والتي وردت في مجموعة "لغة الآي آي " ص ١١٥ فهي قصة طفل يرقب خيانة أمه مع عشيقها يصف لقاءها بأنه شيطاني متوحش!! الصغير في كتاب الدين يقرأ أن السماء أهون على الله أن تنطبق على الأرض على أن تأتي امرأة بفاحشة بين فخذيها..ويسأل لماذا لا تقوم القيامة؟!

ونفس المعنى في قصة "الأوتوبيس ٩٩٩" أو سنويزم أو الأوباش عن اللعبة الجنسية البشعة في الأتوبيس والتي انتهت أخيراً في ١٩٩٢ بحادث فتاة "العتبة" التحرش الرخيص المهين. يقول عنها د/ يوسف إدريس: "اللعبة تتم في صمت، ولا أحد يخرج على قواعدها، والقاعدة أنك ما تشوفش، وإذا شفت كأنك ما شفتش، وإذا حصل لغيرك مالكش دعوة، وحتى إذا حصل لك، حل عبقري. مش كده؟" إن القهر الجنسي غير الإنساني، الذي تتعرض له المرأة في الأتوبيس لا يعني أحداً وعندما يثور الأستاذ الجامعي الدكتور عويس في قصة "سنويزم" ثورة محدودة، تطلب منه المجنى عليها أن يصمت ولا يفضحها؟!

أما عالم السياسة عنده فمعروف بانتقاله من القصة القصيرة إلى كتابة اليوميات ثم المذكرات ثم محاولة أن يكون له وجهة نظر مع وزير الثقافة ورفعه دعوى عليه وكيف أنه كسبها؟! ثم في حواره مع رئاسة الدولة حتى حاول أن يقوم بدور في العلاقة المصرية الليبية في وقت كانت فيه متعثرة باجتهاد منه.. أما جذور ذلك فترجع إلى أنه كان من البارزين في تنظيم "حديتو" اليساري وكان من أعضاء مكتب الأدباء والفنانين، وله سمة شيوعية. ثم أنه كان الكاتب الوحيد الذي شارك في "مسيرة

الأدباء" عندما فجر اليهود الكاتب غسان كنفاني فسار في مظاهرة ومعه: نجيب سرور، يحيى الطاهر عبد الله، عبد الحكيم قاسم، أمل دنقل، عبد المحسن طه بدر.وكلهم ماتوا بما فيهم المشاغب يوسف إدريس. أليست هذه ملاحظة؟!

وجاء اهتمامه بالدين واضحاً في أدبه في قصة "داود" وقصة "أم الدنيا" وقصة "اقتلها"، ولكنه كان اهتماماً من خلال قضية اجتماعية ومن خلال أعماق مسكونة بالمرأة؛ فالأسطى شرف الطباخ في "أم الدنيا": رغم سفره وغيابه الطويل لا يقع في الخطيئة منتظراً زوجته، ركب الباخرة، بعد أن قضى في بلاد الناس شهوراً طويلة عانى في أثنائها ما عانى من الحنين إلى امرأته فردوس كان يقاوم ويضعف أحياناً ولكنه لا يطيق أبداً أن يرتكب الفحشاء ولو بالنظر اشتهائه للمرأة الرومية ذات الأرداف مستعيذاً بالله ومتسائلاً: هل سلطها الشيطان عليه، وأحد الإخوان المسلمين يتحدث لزعيمه عن عشق الشاب الإخواني للسجينة الشيوعية في إطار شيطاني: ألم أقل لك يا مولانا؟ لقد سحرته الشيطانة، ركبته.. ثم يتوجه بحديثه إلى الشاب العاشق: ما دامت الشيطانة قد ركبتك، فقد حل دمك أنت، قبل أن يحل دمها، هي أنه ليس قانوناً خاصاً بمجموعة من الأفراد، ولكنه قانون ديني عام ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.

ورغم أن مؤسسة الزواج، بقواعدها وقيودها، تتسع للرجل والمرأة معاً، فإن للرجل خصوصية دينية واجتماعية. من الناحية الدينية فإن للرجل حق الزواج بأكثر من واحدة، وعندما يستسلم أبو سيد لعجزه الجنسي يائساً من الشفاء، فإنه يمني نفسه بتعويض هزيمته من خلال ابنه، ويقول في القصة: وحتبقى راجل.. وأجوزك يا سيد.. سيد.. حجوزك واحدة حلوة.. لا..أربعة.. أربعة حلوين عشان خاطرك.. وتبقى راجلهم (من "قصة أبو سيد").

ومن الناحية الاجتماعية، فإن "خطيئة" المرأة تختلف عن"خطأ" الرجل حتى لو كان الفعل واحداً، وهو في العملية الجنسية لا بد أن يكون واحداً، عند العثور على الطفل اللقيط الميت، يفكر أفندي مأمور التفتيش في "فاعلة" الخطيئة، وكأنه يجعل

الفاعل يفر من وعيه ومن الواقع المعاش فيسأل الجمع ترى كيف تكون فاعلة ذلك الحرام؟ أو على وجه الدقة، كيف تكون الزانية؟ ما من مرة ذكرت أمامه الكلمة إلا واقشعر بدنه، مع أنه كان له مثلما لمعظم الناس علاقات قبل أن يتزوج وحتى بعد أن تزوج. ولكن كأنما كان يستعيذ أن يوجد نساء في العالم يخطئن مثلما تخطئ النساء معه، وكأنما من أخطأن معه لسن زانيات. الزانيات هن من يخطئن مع غيره "رواية الحرام".

ويواصل الرجل تفكيره الذي يميز بين الرجل والمرأة، إلى درجة الفصل التام بينهما من الناحية الجنسية، ولكنه لا يبحث عمن قد يصلح ليكون الأب،هو يبحث عن الأم، فهو مستعد أن يصدق الحرام في النساء، الرجل دوره في الحرام طياري: أما المرأة فدورها أساسي.. هو يبحث عن الأم.. وفي بحثه هذا لم يترك أحداً. وهذا التمييز بين الرجل والمرأة لا ينفي عمومية المشكلة الجنسية، وصدامها مع الدين الذي ينظم العلاقة ولا يسمح بالخروج عن هذا التنظيم.

ما الذي يفعله المحرومون والمحرومات جنسياً، ما الذي تفعله الزوجة التي تعاني الحرمان رغم زواجها؟

هل يملك الدين ورجاله إجابة نهائية حاسمة؟.. سؤال زلزل كياني مرة من شابة..كانت بالقطع شابة.. المشكلة تبوح بها في تردد ثم بلا خجل تنطق الزوج كف من شهور عن معاشرتها!! ولافائدة، وإدمانه ميئوس، ومحاولاتها فشلت.. وتخاف الفتنة.. ماذا تفعل؟"

من قصة: "أكان لا بد يا لي لي أن تضييء النور"

بل إنه يستخدم أسماءً دينية لبعض قصصه مثل قصة "أكبر الكبائر" من مجموعة "بيت من لحم"، بل إنه يجعل البطل هو "الشيخ عبد العال" إمام مسجد الشبوكشي في حي الباطنية بطلاً لقصة "أكان لا بد يا لي لي أن تضييء النور" ولي لي هي الشابة الجميلة أعجوبة الحي بجمالها المصري الإنجليزي، وفي القصة هزيمة الخير أمام الشر إذا كان سلاحه الجنس.

يا رب.. مستغيثاً صرخت.. ليست استغاثة أرحني لملأ أعلى، ولا ناطقة بلسان ضعف البشر.. هي استغاثتي أنا.. كنت قد بدأت أغرق.. أواصل النظر لا عن رغبة في المجابهة وتصعيب الامتحان.. وإنما عن عجز أن أكف عن النظر. وليس في انتصار "لي لي" على شيخ الجامع ما يوحي بهزيمة الدين وإنما هي الفلسفة النهائية للدكتور يوسف إدريس؛ فالدكتور يوسف إدريس الرجل كان يفهم الدين ويفسره بطريقة شديدة الخصوصية، أثارت عليه ثائرة الكثيرين وحواره مع الشيخ شعراوي مشهور قال له في الدين: العقل كالمطية يوصلك للسلطان ولكن لا يدخل بك عليه؟!

فقال له: "يا شيخ عقلي يفتح الديوان!!"

فقال عنه الشيخ شعراوي: "هو رجل في المنطقة الأولى من الإيمان: بين الكفر والتحدي!!"

وقال له يوسف إدريس: "هل عادت صكوك الغفران؟".

لقد كان الرجل عظيماً يعترف بضعفه وضعف الإنسان يا سادة.. نحن نتحدث عن يوسف إدريس الذي قابل عمر الشريف فقاله له: "أين أنت يا رجل.. لم نعد نسمع شيئاً عن المرأة معك ماذا حدث.. لا تنس أني طبيب.. ها ها؟! أأصف لك شيئا ينفع؟!"

والذي قال في اجتماع للأدباء مع الأديب الكبير أرثر ميللر: لماذا تزوجت مارلين مونرو؟! وهل هناك تأثير لأدبك في هذا الارتباط؟ أو ما تأثيرها على ما تكتب؟!

وانزعج أرثر ميلر وتدخل أنيس منصور لتخفيف الأجواء

القبض على بطلة رواية (سارة) للعقاد؟!

وقال العقاد: لن أموت قبل أن أعرف ألف امرأة!!".. ومات العقاد، ولم يعرف هذا العدد، ولكن القليل من النساء اللاتي عرفهن العقاد قد هدينه إلى أعماق المرأة. وما كتبه العقاد عن المرأة يدل على أنه فهمها. ولكن هل فهمها بوضوح؟! وأنه عرفها ولكن بطريقه خاصة جداً!! لم تكن علاقة العقاد بالمرأة مجرد معرفة، مجرد دراسة، ولكنه كان محباً وكان عاشقاً وهو أول أديب عربي يجلس ليوضح الفرق ويضع العلامات بين الحب والعشق. وعرف في حبه البكاء، وعرف جروحاً عميقة في كبريائه، وتعذب من الشك، وجرى في الشوارع وراء الرجل الذي مزق كرامته واستحل محبوبته.

وللعقاد دراسة رائعة عن المرأة "هذه الشجرة" ورواية أو قصة أروع منها "سارة" وله منها مواقف كثيرة، وفي ذمته ثلاث نساء أحبهن، وكلهن تجربة تستحق.. إنهن كما يقولون "يحلوا من حبل المشنقة!!" ومن آراء العقاد في المرأة مثلاً:

المرأة تفضل الرجل الذي يجاملها، على الرجل الذي يضع إصبعه في عينها عندما يكون على حق!!

وأن المرأة إما أن تكون أما أو تستعد لأن تكون، فهي تفضل أن تكون زوجة على أي وظيفة أخرى!!

وناقشته في ذلك يوماً "غادة السمان" بصالونه؛ فقال لها: يا سيدتي إنني أستطيع أن أخفي كذبك في ثانية..كوب واحد من الماء يكفي لغسل وجهك وتذوب هذه الألوان كلها!!

ومن مواقف العقاد الكثيرة معها أمثال أخرى، وأنا أنقل الآن من كتاب أنيس منصور تلميذه ومن كتاب عنه "كانت لنا أيام في صالون العقاد"، فعلى لسان أنيس

منصور: "وفي أحد الأيام جاءت السيدة سنية قراعة..لا نعرفها. إنها سيدة بيضاء ممتلئة.. قيل أنها صحفية ويبدو أنها تعرف الأستاذ، ومن الغريب جداً أننا وجدنا الأستاذ قد أجلسها إلى جواره وليس على مقعد من المقاعد؟! وأغرب من ذلك أن السيدة قراعة كانت تتحدث أكثر من العقاد وأنها كانت تضع يدها على كتفه وأحياناً على يده وهمس واحد في أذني: "هل أقوم وأضربها وأطردها من صالون الأستاذ؟!"

أما السيدة سنية قراعة هذه فهي التي قدمتها اعتماد خورشيد فى كتابها باعتبارها قوادة تقدم (لصلاح نصر) ما يريد من الراقصات والممثلات والكاتبات أيضاً، وعندما التقى الأستاذ العقاد مع مذيعة التليفزيون أماني ناشد لأول مرة في التليفزيون – رحمها الله – قال عنها كلاماً غريباً. أنها لا تنطق حرف الثاء صميماً ولكن بتكلف وقيل له أنها تتهيبه فقال كيف تتهيبي وتأتي بفستان قصير كهذا!!

وقيل له أنها فتاة أولاً وأخيراً فقال بسرعة: إنها نصف فتاة لقد صبغت بالأحمر شفة واحدة وتركت الأخرى! ولم يقولوا له شيئاً آخر وهمس الجميع كل ده في برنامج ٢٥ دقيقة يا عقاد.. يا راجل عينك وقلبك وعقلك!

وأحب العقاد الأديبة مي زيادة، ولكن هذا الحب لم يأت من القلب وإنما جاء من الإرادة والتحدي؛ فقد كانت مي امرأة ازدحم حولها الصفوة وأحبوها جميعاً: العقاد وجبران وطه حسين ولطفي السيد و.. وأحس العقاد أنه أعظم من هؤلاء جميعاً، وأنه قبل المنافسة وهو أمر يثيره كثيراً ودخل المنافسة في الحب ولم يبق أحد إلا جوكي واحد لم يستسلم هو جبران، ولكن العقاد أمسك الثور من قرنيه؛ صارحها بالحب، وما هو أكثر من الحب.. روت له في رسائلها ما تعانيه من قيود وعذاب، وطالت رسائل العقاد وكثرت وتكدست وانتقلت الرسائل من سيدتي إلى سيدتي الآنسة.. إلى سيدتي الآنسة العزيزة، وأخيراً صديقتي العزيزة. ولكن العقاد ما أن انتصر على الجميع بما في ذلك جبران الشاعر الكبير والشيخ مصطفى عبد الرازق الذي قال في وصف صالون مي الأدبي صفات الجنة "إنه صالون لا يسمع فيه لغو ولا تأثيم" حتى زهد فيها. وهناك عدة كتب تتهم العقاد بأنه سبب في جنونها الذي

أصابها في نهاية أيامها وكانت ترى عارية ذابلة قذرة في الشوارع!!

وأحب العقاد سارة واسمها الحقيقي "إليزة داغر" ولها علاقة بالصحافة فهي من أسرة لبنانية شهيرة في مجال الصحافة والأدب وكانت إليزة في الخامسة والعشرين عندما كان العقاد في الخامسة والثلاثين، ولإليزة داغر اهتمامات بالموضة والتفصيل وصفحات الملابس في الجرائد، ولكنها تختلف عن "مي" فإذا كانت مي اجتمع حولها الصفوة فقد اجتمع حول هذه السفلة!! وكتب عنها العقاد رواية أو قصة "سارة" ووصفها بأنها حزمة من الأعصاب تأبى إلا أن تكون امرأة، ولكنه قرر أنه دخل هذا الحب بشهوته لا بقلبه!! ولأنه كان وقتها مع مي.

أيضاً دافع العقاد عن الجمع بين امرأتين في وقت واحد، وقال ذلك في نصه أو روايته "سارة" كيف أن قلبه من الممكن أن ينتهي من حب مي ليبدأ في حب سارة. فهذا ممكن لاختلاف الشعور فهو يحب مي، ويشتهي سارة أو أن حب مي في دائرة الظل والزوال من المنطقة العاطفية، وفي هذه الحالة فالعقاد _ أو أي رجل _ يمكن أن يتجه إلى حب آخر بنفس القوة والضعف، وهو صاحب عبارة "الحب الجديد يبتلع الحب القديم"، ولكن "سارة" جننته إذا كان أحبها بشهوته فقد أحبته لأنها تهوى الرجال.. إنها تضع الرجال في قلبها كما تضع المفاتيح في سلسلة المفاتيح بلا قيود ولا شروط.. ولاحظ الرجل شيئاً أيقظ عقله تصرف ابنها معها (أن الصغير يقبلها ويصف شفتيها بأنها كريز!!) ودب الشك وأكثر حينما قال له طاهر الجبلاوي: نعم إنها تعرف شاباً!! وصدقت إحساسات العقاد وذهب للمقابر ليدفن شهوته وخيانته، وسارة هي المسئولة عن فلسفة العقاد الشديدة جداً مع المرأة وضد المرأة فقد خرج من هذه التجربة مكسور القلب، مرفوع الكرامة. أما تفاصيل هذا الحب أو رواية سارة ففي عام ١٩٢٤ قابل (العقاد) تلك المرأة التي اقتحمت حياته الهادئة الراكدة فقلبتها رأساً على عقب، كانت امرأة جهنمية مثيرة لمشاعر (العقاد) الذي تعمد إخفاء اسمها الحقيقي وأطلق عليها اسم (سارة) في روايته التي تحمل نفس الاسم، وقد ظل اسمها الحقيقي خفياً مخفياً من قبل الباحثين لفترة طويلة خشية إغضاب (العقاد)

أو التسبب في إحداث مشكلة لأي طرف من الأطراف، وبعدها بسنوات قام الباحث (أحمد حسين الطماوي) بإزاحة الستار عن هذا السر المخفي وكشف لنا في كتابه المثير (سارة العقاد) أن (سارة) اسمها الحقيقي هو (أليس داغر) وبعد زواجها من الصحفي السوري (عبده هاشم) حملت اسمه ليصبح اسمها (أليس عبده هاشم)، و(أليس) هي ابنة الكاتبة الطليعية المعروفة (لبيبة هاشم) مؤسسة مجلة (فتاة الشرق)

وفي عام ١٩٧٢ كشف الكاتب (عبد الرحمن صدقي) في مجلة الهلال عام ١٩٧٢ أن (سارة) كانت كاتبة متمرسة، تجيد عدة لغات من بينها الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية وكانت تترجم عنها وتوقع مقالاتها باسم (أليس داغر). ذهب (العقاد) ذات يوم لزيارة صديقه الأستاذ الدكتور (صبري السربوني) الذي كان يسكن في أحد البنسيونات بحي مصر الجديدة وهناك قابلها.. قابل (أليس) بطلة قصته الشهيرة (سارة)كانت (أليس) تجلس بجوار صاحبة البنسيون وهي تمسك بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه، وقد وصفها (العقاد) بأنها أجمل من رأى في أيام فتنته وشغفه، بل ووصفها بأنها حزمة من أعصاب تسمي امرأة.. امرأة استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا الأنوثة فقط، وقال عنها منبهراً : لعلها أنثى ونصف أنثى.. ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرس الجموح يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء، لها فراسة نفاذة في كل ما بين الجنسين من علاقة، تفطن لما في نفس المرأة لأنها امرأة، وتفطن لما في نفس الرجل لأنها امرأة!!..

ويسأل (العقاد) عن صديقه الدكتور (صبري السربوني) فتبلغه صاحبة البنسيون أنه خرج منذ هنيهة وأنه عائد بعد قليل، فيجدها (العقاد) فرصة سانحة لمد جسر الحوار بينه وبين أنثاه الجميلة (أليس)، وتشجعه (أليس) علي المحاولة ويعرف منها أنها كانت متزوجة من رجل كان يكبرها كثيرا، ولم يكن مناسبا لها فقد تزوجته لأن أسرتها ضغطت عليها خوفا من أن تصاب بداء العنوسة، وفي ذلك اليوم تخلل حوارهما بعض الإيماءات الغزليّة التي أخذ يدسها (العقاد) بحنكة الخبير المحنك بين كلماته وضحكاته

ونظراته، فتعاجله (أليس) في غضب غير جاد قائلة: ما هذه التحيات وما هذا الغزل؟!! إنني أخشى عن قريب أن تقول لي عيناكِ ووجنتاكِ وأهواكِ ولا أنساكِ.. إلي آخر هذا الموال المحفوظ!!..

ويسرع العقاد بالرد عليها قائلاً:

ـ ولماذا عما قريب؟!!.. الآن..

وترد عليه ضاحكة في إغراء وتشجيع: أنت عجول وجريء في آنٍ واحد..

ويقترب منها (العقاد) هامساً وكأنه قد قرر خوض المشوار للنهاية:

– إن وعدتني أن أجني للصبر ثمرة فأنا أصبّر من أيوب!!.

وبحركة سريعة جدًا، وفي غفلة من صاحبة البنسيون قبلها (العقاد) ثم جلس مأخوذًا بما حدث لأنه كان يتوقع أن تشتمه تلك المرأة أو تتركه وتترك المكان غاضبة، ولكنها قالت له في صوت خافت: لقد آذاني شاربك الطويل!! وتواعدا على اللقاء، وتقابلا في مطعم منعزل بحديقة (الأهرام) وهناك عرف منها أنها تزوجت في العشرين من عمرها من رجل ثري في الخمسين ثم انفصلت عنه، وصارحته بأنها تعاني من البرودة والفراغ ولا تجد من يدفيء مشاعرها ويملأ حياتها... وكان اللقاء الثاني في شقة العقاد!!..

كان الفارق بين (مي) و(أليس) من وجهة نظر العقاد، أن (مي) حولها نهر يمنع من الوصول إليها، أما (أليس) فحولها نهر يساعد على الوصول إليها والتواصل معها والاتصال بها، وقد لخص الكاتب الصحفي (مصطفى أمين) هذا الفارق بين المرأتين في كتابه (أسماء لا تموت) فقال: إذا كان العقاد قد ذاق طعم السعادة مع مي، فإنه قد ذاق مرارة الشقاء مع سارة (أليس)، فقد كانت امرأة تهوى أن تلعب بقلوب الرجال. كانت تعشق لتخون. وكانت تخرج من بيت (العقاد) لتذهب إلى لقاء شاب آخر.. ويقرر (العقاد) أن يضع نهاية لهذه المهزلة فيطردها من بيته فإذا بها تعود إليه، ويكتشف أن الحب الذي مات قد بعث من جديد، أو يكتشف أنه وارى هذا الحب

التراب وهو لا يزال ينبض، ولم يطفيء التراب النار بل زادها اشتعالاً، وكان يطلق هذا الحب بالثلاثة ثم يكتشف أنه لا يزال يسري في دمه!!.. ولم يستطع (العقاد) احتمال تكرار الخيانة وتكرار الاعتراف وتكرار الصفح.. لم يعد يحتمل إلا وضع كلمة (النهاية) لقصته مع (أليس)، تلك القصة التي كتبها (العقاد) واستبدل فيها اسم محبوبته الخائنة باسم (سارة) ليكون عنواناً لكتابه المثير عنها..خرج العقاد من قصته مع (أليس) بقلب جريح، ولم تمض إلا بضعة شهور حتي فوجيء العقاد بقلبه يخفق من جديد بحب فتاة سمراء، دعجاء العينين، لم تتجاوز العشرين من عمرها، بينما (العقاد) قد تجاوز الخمسين بقليل. هي هنومة خليل حبيب علي..من مواليد ١٩٢١/١٢/٣.. تلميذة بمدرسة التطريز بشبرا مؤهلها الدراسي شهادة الابتدائية.. تهوى التمثيل!! وأحب العقاد بقلبه ونام عقله وجاءت هنومة (هانم السينما والفن الآن) مديحة يسري!! إنه شيء يشبه ما حدث بين أرثر ميلر ومارلين مونرو .. العقل والجمال.. أو الصحافة والفن في قبلة طويلة!! وفعل به هذا الحب الكثير.. إنه ينطبق عليه ما قاله الفيلسوف الوجودي "مارتن هيدجر" بأن الحب هو علاقة كونية مفيدة ونركع له ونحني رأسنا له وننتظر ماذا يجود به".. وانتظر ما تجود به الصغيرة السمراء الممشوقة القوام. وحينما أهدته "بلوفر" قلب العقاد الدنيا وغير في القصيدة العربية وقال إن في كل شكة إبرة: فكرة!! وله شعرة في البلوفر؟! وكانت تزوره في منزله، وقبل الموعد بساعة تحدث له هذه الطقوس يخفق قلبه بعنف، وحتى تصل يكون العقاد قد أطل من النافذة عشرين مرة، وفتح باب منزله متوهماً أن من يصعد السلالم هي عشر مرات؛ فإذا جاءت ينزل السلالم ويأخذ بيدها، ولا يهمه شيء ولا حتى عيون جيرانه، مع أنه كان مع "سارة" يحجز مقعدين في السينما ويدخل قبلها ويجلس ويرسل التذكرة لها مع صاحبه فتأتي بعد عرض الفيلم بخمس دقائق وتجلس بجانبه وينصرف قبلها، مثلما جاءت بعده!!

إن حب هنومة حوله إلى روميو جريء وكان يناديها "هاني" أي عسل على فؤاده!! ونظم العقاد فيها أرقى وأجمل قصائده، وعرف شعره الجمال. وكان العقاد

دقيقاً في مواعيده ويرى أن الحضور في الميعاد دليل الاهتمام وكانت مديحة يسري تعرف ذلك وتأتي في ميعادها أو قبله ولا تطرق الباب إلا في الميعاد، ولذا كان العقاد يفتح الباب قبل الميعاد، وحينما تأخرت عن مواعيدها، وبدأ التأخير يصل إلى عشر وعشرين وثلاثين دقيقة كان يغلق الباب.

ويقول أنيس منصور في كتابه "يسقط الحائط الرابع" إنه وجد في بيت العقاد رسائل بخطها أي "هنومة" وصوراً لها معه، وصورة عليها إهداء من نار!! ورسائل تحكي فيها: كيف أنها دقت بابه وأنه لم يفتح، وكيف أنها اضطرت إلى أن تذهب إلى الباب الخلفي، وكيف أن يديها تمزقت على بابه ولم يسمعها، وهناك رسالة لها بقلم أخضر تشكو منه له هذا الهوان!! والذي لم تعرفه مديحة أو هنومة أو هانى أنها حينما جاءت متأخرة دب الشك في قلب العقاد، وحينما رآها تهبط لمنزله في سيارة ملاكي لا في تاكسي كما تعود أصابته أعراض مرض سارة "القديم" ولم يفعل مثلما فعل مع سارة مراقبة وتأكيداً للشك، لقد قرر أن ينتصر عقله على قلبه، فقد وقعت عقد تمثيل مع يوسف وهبي جذبها الفن، وبسرعة تزوجت، واندفعت الصحافة تمجد السمراء، تلك التلميذة التي كانت تجلس في مدرسة العقاد تربع يدها، وبعد بعاد طويل، جاءت إلى صالون العقاد يوم الجمعة النجمة السينمائية مديحة يسري "هنومة سابقا" في قمتها، حلوة، مغسولة بالعسل والنور. الوجه لامع والأسنان والعينان والسلاسل. ووقف العقاد وكان في الصالون السيدة روحية القليني وأنيس منصور وكامل الشناوي، وحينما قالت النجمة السينمائية لروحية القليني: أهلاً يا قمورة!! ردت عليها مديحة يسري: إذن فأنت سيدة الأقمار السبعة.

ويقول أنيس منصور في كتابه "في صالون العقاد": إن كامل الشناوي قد بادلها نظرات أشعرتها بحرج شديد ثم استدعى كل ذكائه الاحتياطي، وأسلحته السامة وقال بسرعة مذهلة: أنا والله يا أستاذ – ويقصد العقاد – خطر لي الآن أن أجيب على سؤال يا ترى ما هي الأبيات التي تجمع كل فلسفة العقاد في الحياة والحب واليأس والكبرياء واحتقار أجمل ما في الحياة: المرأة والحب!! لأنها أضعف إنسان. إني وجدت

هذه الأبيات التي تحكي عن تعبدك لامرأة ثم ترفعك عنها بعد ذلك.. كنت تراها مسجداً فأصبحت كباريه، ولما عرضت عليك نفسها رفضت أن تعربد في مكان كنت تقدسه ما أروع ما قلت يا أستاذ

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى

وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد

وألقاك جسماً مستباحاً وطالما

لقيتك جم الخوف جم التردد

وخرجت السمراء، وجرى خلفها الأستاذ وصلاح طاهر، وقالت روحية القليني لكامل الشناوي:

– ماذا جرى يا كامل بك. ألا تعرف من هذه؟ إنها موضوع هذه الأبيات..

ويقول أنيس منصور وشعرت بأن كامل الشناوي لا ينتقم للعقاد ولكنه ينتقم لنفسه انتقاماً شخصياً قاتلاً وشعرت روحيه القليني بذلك فسألت أنيس منصور: لا أفهم ما بين هذه السمراء وكامل بك ولماذا بهذا العنف!! ولم تعد السمراء بعد ذلك طعنها كامل الشناوي بسكين ساخنة وبأعصاب باردة وقرر العقاد نهائياً، أو اضطر أن يقرر ألا يرى هذه السمراء بعد اليوم ورغم محاولاتها إقناعه بأن عملها يقتضي ذلك وبأن لكل وسط متطلباته، وأنها ليست مسئولة عن الذين يحبونها، وإنما عمن تحب وأنها تحبه!! ولكن العقاد لم يقبل المشاركة.. الحب مسألة شخصية.. وقالت له لا يوجد في حياتي رجال آخرون. قال لها ولكنك تحتمين بظل رجال وأنا أرفض الرجال وظلال الرجال!!

وطلب العقاد في الجلسة التالية الجمعة التي تلت ما فعله كامل الشناوي الفنان صلاح طاهر وطلب منه أن يرسم لوحة غريبة تحمل معاني الشعر الذي كتبه العقاد وقتل به كامل الشناوي السمراء. قاله له: ارسم فطيرة حلوة شهية يشتهيها الجائع

والشبعان والتخوم، ولكن حام حولها الذباب واقترب منها صرصار؛ فأصبحت هذه الفطيرة على هذه الصورة لا يقترب منها أحد، بل تعف النفس منها وتعزف العين أن تراها!! والحقيقة أن العقاد لم يعد قادراً على التطلع إلى "هنومة" فقد عزف عنها وعرف عنها أشياء كثيرة ووضع العقاد هذه اللوحة في حجرة نومه وصور العقاد نهاية آخر حب في حياته.. التقى فيه الأدب في الفن وتحولت القبلة الطويلة إلى مأساة كاملة. ولكن روحية القليني تقول ظلمنا "هنومة" أو" مديحة يسري" فصاحبة لوحة الفطيرة المسمومة والتي رسمها صلاح طاهر، هى سارة في رواية العقاد، هي (أليس داغر) وبعد زواجها من الصحفي السوري (عبده هاشم) حملت اسمه ليصبح اسمها (أليس عبده هاشم)

أما صلاح طاهر فسألوه عن صاحبة لوحة الفطيرة التي رسمها للعقاد؟! ضحك وقال: طلب لوحة بوصف معين ففعلت ولم أسأل العقاد.

وقال نابليون: ما الدين إلا سياسة في الأصل

أصدر المركز القومي للترجمة كتاباً بعنوان «مذكرات نابليون – الحملة على مصر» ترجمه عن الفرنسية الدكتور عباس أبو غزالة. ويقدم الكتاب لأول مرة شهادة نابليون بونابرت عن تاريخ وقائع حملته الحربية على مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١م)، ويوضح الكتاب أن نابليون أراد أن يترك حصاد تجربته للتاريخ، فبدأ كتابة مذكراته في منفاه، بعد هزيمته في معركة واترلو،في ١٨ يونيو (حزيران) ١٨١٥حتى وفاته في ٥ مايو (أيار) ١٨٢١.وتشمل المذكرات١٤فصلاً، وتتضمن وصف مصر والشؤون الدينية وثورة القاهرة وغزوات مصر، بداية من الدلتا ومعارك أبوقير البحرية والبرية والحملة على الشام (سوريا وفلسطين وحصار عكا)

يقول د. عباس أبو غزالة، مترجم الكتاب:«جاءت مذكرات نابليون كسيرة ذاتية مغلفة بطابع تأريخي، فقد رواها بضمير الغائب (بونابرت ونابليون، والإمبراطور، والسلطان الكبير)، وتجنب الحديث عن نفسه ليحاكي صوت المؤرخ الخارج عن الأحداث، وليس صوت المتكلم صانع الأحداث أو شريكها. ولم يكن يريد أن يترك للغير أن يحكي أو يفسر الأحداث قبل أن يُقدم هو روايته عنها.كما يضيف أبو غزالة: "مكانة فريدة لمصر عند نابليون بونابرت، رغم أن الوقت الذي قضاه في مصر ١٦ شهراً فقط!! فقد ذكر في مذكراته أن أجمل أيام حياته قضاها في مصر، حيث بدأ التدريب على مهنة رئيس الدولة، وكان له مطلق الحرية من قبل حكومة الإدارة بفرنسا. وادعى في مذكراته أنه احترم الإسلام دين البلد، وشكّل ديواناً من أهالي البلاد. كما درس نابليون التاريخ الإسلامي والإسلام."

يقول نابليون في مذكراته عن تدين أهل مصر: «كانت الأفكار الدينية – دائماً ومنذ الأزل – مهيمنة عند أهل مصر، ولم يستطع الفرس الإقامة فيها لأن المجوس أرادوا عبادة آلهتهم وطرد إله النيل، فقامت المنافسة على الأصنام والشعائر والكهنة

بين الشعبين، مما جعلهما أعداء متشددين لا شيء يقدر على التوفيق بينهما. ثار المصريون دائماً على هزيمتهم أمام أسلحة الفرس، ولكن عندما اقترب الإسكندر الأكبر من حدودهم أسرعوا لاستقبال القائد العظيم الذي سيحررهم..كان من السهل التأثير على المصريين في كل العصور باسم الأرباب، سواء أكان الحديث الموجه إليهم عن العجل أبيس، أم عن أوزيريس، أم عن محمد .«وأشاد نابليون بعبقرية محمد في إدخال الدين الإسلامي للجزيرة العربية في مذكراته، قائلاً : «كان محمد أميراً جمّع حوله عشيرته. وخلال سنوات قليلة، احتل المسلمون نصف دول العالم، وانتزعوا أرواحاً كثيرة من عُباد الآلهة المزيفة، ونكسوا كثيراً من الأصنام، وهدّموا من المعابد الوثنية في خمسة عشر عاماً أكثر مما حققه أتباع موسى وعيسى في خمسة عشر قرناً. كان محمد رجلاً عظيماً« وكان بونابرت يؤكد دائماً في مصر أنه في حماية النبي: «فلا ينتصر الفرنسيون على المسلمين (المماليك) إن لم يكن رئيسهم – بخاصة – في حماية الرسول.!?« وفيما بعد، مسّ نابليون وتر القومية العربية، قائلاً: «لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟ كيف تخضع مصر الخصبة والجزيرة العربية المقدسة لشعوب جاءت من القوقاز؟ إذا نزل محمد اليوم من السماء إلى الأرض، أين كان سيذهب؟ أليس إلى مكة؟ ألن يكون في وسط الإمبراطورية المسلمة؟ أم سيكون في القسطنطينية؟.« ووعد نابليون الشيوخ والأئمة بأن يعيد أمجاد الفاطميين: أريد أن أشيد الجزيرة العربية من جديد.. من يمنعني؟ لقد قضيت على المماليك، ميليشيا الشرق الأكثر جسارة. وعندما نتفاهم، وعندما تدرك شعوب مصر كل ما أريد لها من خير، فسوف يتمسكون بي بإخلاص، وسوف أعيد مجد أزمنة الفاطميين.«

يقول بكتابه:"إن الطريق إلى قلوب المصريين يبدأ بالمسجد وينتهي بالضريح، فأعلن أنه من أولياء الله وأصفياء الله والناطق باسم الله .لكن.. بينه وبين نفسه كان يؤمن بأنه (دجال) وفي منفاه في (سانت هيلانة) اعترف في مذكرات بأن ما فعله في مصر هو (دجل من أعلى طراز) ثم استطرد (إن على الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد للنجاح) !

كانت الاحلام تملأ رأسه.. أحلام الإمبراطورية، مثل الإسكندر الأكبر.. وقد نقل عن نابليون أنه في مصر شعر بأنه (يؤسس ديانة جديدة ويزحف على آسيا وهو يمتطي فيلاً وعلى رأسه عمامة وفي يده كتابه المقدس الجديدة) هكذا فهم أن لا سيطرة على مصر دون أن يرتدي عباءة الدين وهذا أخطر ما في الحملة الفرنسية على مصر.. إنها لعبة استخدموا فيها الدين قبل الديناميت والموالد قبل البوارج. لقد أنفق نابليون ـ خلال الرحلة إلى مصر ـ معظم وقته في دراسة الكتب المقدسة التي كان يعتبرها كتباً سياسية!؟ وقد سجل في مذكراته فقرة تكشف طبيعة المؤامرة في رأسه هي: (أن الأفكار الدينية كانت على الدوام مسيطرة على الشعب المصري في شتى العصور.. وقد أثار انتباهي أنه عندما جاء الإسكندر الأكبر كان يفهم هذه العقلية فزحف عبر الصحراء من الإسكندرية إلى معبد آمون في مدة لا تزيد عن أسبوعين دون مقاومة لأنه أعلن إيمانه بالآلهة المصرية، وقد حقق بهذا الادعاء أكثر مما كان يحققه لو بنى عشرين حصنا وعزز جيشه بمائة ألف مقاتل مقدوني)

فنابليون رغم ذلك جاء إلى مصر بحوالي ٣٥ ألف جندي وبحار وألف مدفع و٥٦٧ عربة و٧٠٠ حصان و١٠٠ ألف رصاصة و٤٤٠ سفينة وفرقاطة, في أسطول كان يشغل مساحة في البحر تقترب من أربعة أميال مربعة. وفي ٢٨ يوليو ١٧٩٨ عندما بدت الإسكندرية على مرمى البصر فاجأ نابليون جنوده بالمنشور الشهير الذي صاغه بنفسه قبل ستة أيام وأثبت فيه قدرته الفائقة على مزج الدين بالسياسة والإيمان بالرصاص، والفكرة بالقنبلة. لقد طالب جنوده بتوقير المشايخ، والتسامح نحو الشعائر والامتناع عن السلب والنهب، وتجنب العار في هتك أعراض النساء. وبينما كانت سفنه الحربية ترسو بالقرب من شاطىء (العجمي) طبع نابليون أول منشور سياسي وديني للمصريين لم يتردد في أن يشهر إسلامه وأن يقرأ الشهادة ويسجل على نفسه عدم الشرك بالله. لكن المنشور لم يخل من الاحتيال، فهو يطالب المشايخ والأئمة والقضاة بأن يقولوا للناس (إن الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون) وحاول نابليون أن يكسب المشايخ في البداية، فعين ديوانا من كبار المشايخ

عند دخوله القاهرة، وفي أول لقاء معهم حاول نابليون أن يضع وشاح فرنسا بألوانه الثلاثة: الأبيض والأحمر والكحلي على كتف رئيس الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوي لكنه فوجيء بوجه الشيخ يحمر غيظاً ويرمي بالوشاح على الأرض. وبغضب قال له بونابرت "ابق في بيتك" وعين بدلا منه الشيخ البكري، وتوصل البكري إلى حل وسط مع المشايخ هو أن المشايخ يضعوا على صدورهم شارة (الجوكار) المثلثة الألوان؛ فتعودوا أن يشبكوا الشارة قبل أن يدخلوا حجرة نابليون ويخلعوها عند مغادرتها..

على أن أشد الأزمات بين نابليون والمشايخ كان سببها الشيخ مُحَمَّد كريم الذي اختاره نابليون حاكماً للإسكندرية لكنه لم يتعاون معه فاستبدل به الشيخ المسيري، وأرسله مخفورا إلى حامية نابليون الذي حكم بإعدامه..ثم خيره بافتداء نفسه بمبلغ ١٢٠ ألف فرنك ذهبي، لكن مُحَمَّد كريم رفض؛ فقتل في القلعة وحمل رأسه ليعرض على الملأ في الشوارع، ولم يستطع الدين أن يكون مع السياسة في زجاجة واحدة.. أما الدليل الساطع الحارق كالشمس على التنافر بين الدين والسياسة فهو دخول نابليون الأزهر هو وجنوده بالخيول التي ربطوها بقبلته. وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا متاعهم، ودمروا الكتب والمصاحف. إن نابليون المسلم الورع التقي حوّل الأزهر إلى إسطبل وكباريه وحمام شعبي لقضاء الحاجة. ونسي رسالته الحضارية التي جاء يبشر المصريين بها وتحول هو ورجاله من سادة مهذبين إلى قطاع طرق.. لقد كان مثل الحرباء.. يقدر أن ينقلب من شيخ إلى مقاتل، ومن قائد إلى سفاح في لحظة واحدة. وقد كان في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي يترنح كالدراويش على إيقاعات الدفوف في إحدى حلقات الذكر.. وفي صباح اليوم التالي أصدر تعليماته في هدوء بتحويل مسجد الصالحية إلى ثكنة عسكرية. ومع أن المشايخ هم الذين قاوموه وأعلنوا حربا دينية عليه فإن بعضهم ايضاً هو الذي ساعده في تهدئة المصريين وتخفيف العداء للفرنسيين..

وقال نابليون في مذكراته عن حملته على مصر عن الشيوخ

(إنهم أدوا خدمات إيجابية للجيوش الغازية وكان المقابل بسيطاً.. بغال وعطايا ولقاء يومي يشربون فيه القهوة والشربات معي. وقد كنت أناقشهم كثيراً في القرآن وأطلب منهم تفسيراً لبعض آياته، وقد كنت أردد دائماً أن أفعالي تنبأ بها القرآن. ومن جانبهم أعربوا عن محبتهم؛ فقد كانت في رأيهم مقدرة من عند الله. لكن هذه المحبة لم تكن بالإجماع فكثير من الأئمة في المساجد كانوا يهاجمونني في خطبة الجمعة، وأصدروا فتوى بمقاطعة الفرنسيين وقتالهم ولم ينج من هذا المصير إلا الفرنسيون الذين أسلموا وتزوجوا من مصريات وطلبوا الاستقرار)

ولا جدال أن المواجهة التي جرت بين الشيخ الشرقاوي كبير علماء الأزهر ونابليون تستحق التسجيل، لأنها كشفت الغطاء عن لعبة استعمال الدين (البونابرتية) في السياسة الاستعمارية. فقد أشاع نابليون أن النبي (ﷺ) ظهر له في المنام وقال له: اجهر بإيمانك بأركان ديني لأنه دين الله. إن العرب في انتظار هذه العلامة.. وسأخضع آسيا كلها لسلطانك).

ويقترح نابليون أن يكتب شيوخ الأزهر للناس منشورا بطاعة نابليون وعدم الخروج عليه ويكتب نابليون بمذكراته:"وبعد السيطرة على الإسكندرية والقاهرة، وفي ظل الأوضاع غير المستقرة، أعد بونابرت منشوراً دعا فيه المشايخ والأئمة لتجنب المواعظ العدائية ضده في المساجد، وقال لعشرة من الشيوخ المهمين المقربين إليه: «يجب وضع حد لتلك الاضطرابات، لا بد من أن هذا الاقتراح «أثار الخوف بين الشيوخ، وظهر على وجوههم الفزع، وغلب عليهم الذهول والحزن. وأخذ الشيخ الشرقاوي – رئيس علماء الجامع الأزهر آنذاك الكلمة، وقال بعد أن استجمع أفكاره: إذا أردت حماية الرسول الذي يحبك، وإذا أردت أن يسرع العرب المسلمون إلى الخدمة الفعلية، فاعتنق الإسلام، وسوف يأتي مائة ألف مصري ومائة ألف عربي من الجزيرة العربية، ومن المدينة ومن مكة، ليصطفوا حولك، مرافقين ومنتظمين على نهجك، وسوف تستطيع غزو الشرق، وتعيد كل أمجاد أمة النبي« ورأى نابليون أن الحديث في هذه الموضوعات سيكون له أثر طيب، فأجابهم: ولكن هناك عقبتين

أساسيتين تحولان دون اعتناقي وجيشي للإسلام: الأولى هي الختان، والثانية شرب الخمر فقد اعتاد جنودي منذ الطفولة على شرب الخمر، ولن أستطيع أبداً أن أقنعهم بالامتناع عنه».

ويسجّل نابليون في مذكراته تفاصيل الاجتماع الذي حضره مع رجال الإفتاء لحل المسائل التي تحول دون اقتناع رجال الجيش باعتناق الدين، وهنا اقترح الشيخ المهدي عرض الأمر على ستين شيخاً من الجامع الأزهر لطرح السؤال عليهم والتشاور في الأمر..

ويعلق نابليون على هذا اللقاء بقوله: «انتشر الخبر بعد قليل في كل المساجد، بأن كبار المشايخ ينشغلون ليل نهار في تعليم مبادئ الشريعة للسلطان الكبير والجنرالات، وأنهم أيضاً يناقشون فتوى للتيسير على الفرنسيين المنتصرين الذين جاءوا ليضعوا أمجادهم رهن الدين الإسلامي.. ويذكر الكتاب أن أربعة من رجال الإفتاء حملوا الفتوى المكتوبة، الموقع عليها من قبلهم، التي قيل فيها إن الختان عبارة عن إتمام الكمال بالطهارة، ولم يفرضه النبي، ولكن أوصى به فقط. وبناء عليه، يمكن أن يكون الإنسان مسلماً بغير الختان. وفي تلك الفترة اعتنق الجنرال مينو الإسلام، وذهب إلى مسجد رشيد من دون أي قيد أو شرط. فرح المسلمون بهذا الخبر، ولم يترك مينو أدنى شك في صدق اعتناقه، وأعلن الشيوخ في كل مكان أن نابليون مسلم ويحب القرآن، وأنه مكلف من الرسول بمهمة خدمة الكعبة المشرفة..

أما الفتوى الثانية، وتخص شرب الخمر، موضوع مناقشات طويلة ساخنة بالإضافة إلى المراسلات مع مكة. لقد أرادوا سد الذرائع وكشف اللعبة حتى آخرها فأفتوا بان الختان (نافلة) وليس ضرورة.. أما الخمر فقد يشربها الإنسان وهو مسلم.. (وإن يكن في حالة الإثم لا تجعله أهلاً للاستمتاع بمباهج الجنة) وقال نابليون ولكنهم الآن يدخلون الجنة بخمورهم أنهم يشربونها مع المسيح.

وتعرض نابليون لموضوع تعدد الزوجات في الإسلام، فأعجبه وأعجب جنوده

وقدم شرحاً لأسبابه، وناشد المشرع في الغرب تقليد هذا الأسلوب للقضاء على العنصرية في أوروبا، موضحاً أن «الظروف الجغرافية هي التي دفعت المسلمين لتتعدد الزوجات في آسيا وإفريقيا، حيث ألوان كثيرة من الرجال؛ وكان تعدد الزوجات هو الوسيلة الوحيدة الفعالة للاختلاط بينهم «ويخلص الكتاب إلى أن بونابرت لم ينجح في تخدير الشعب المصري الذي أدرك بسليقته أن هذه الأفعال ليست صادرة عن عقيدة حقيقية وإيمان صحيح، بل إن إسراف بونابرت في التظاهر باحترام الإسلام هو ضرب من الخداع والنفاق، حتى تتوطد دعائم الحكم الفرنسي في مصر..

وبالمذكرات: أن نابليون التمس مهلة سنة من الرسول الكريم يعد فيها جيشه فمنحها له الرسول وأنه تعهد بأن يبني مسجداً عظيماً وأنه سيقنع جيوشه باعتناق الإسلام، ولكن رجاله الذين ألفوا شرب الخمر طوال حياتهم لن يرتضوا الزهد فيها، وهم كذلك لا يرون ضرورة للختان. ووجد نابليون في فتواهم ثغرة, نفذ منها قائلاً :(إنني مقتنع بالأمر الأول، لكنكم لا بد تقصدون المزاح في الأمر الثاني.. فلماذا يعتنق إنسان دينا يحكم عليه بالهلاك في الجحيم لأنه يواصل ممارسة عادة لا ينوي الإقلاع عنها؟)

وحسب ما نشره "كريستوفر هيرولد" فإن الفقهاء طلبوا منه مهلة ليختلوا إلى أنفسهم وكتبهم ليعيدوا النظر في المشكلة، طالبين المعونة من الله لينير بصائرهم. وأخيرا أصدروا فتوى ثانية: مؤداها أن في وسع الفرنسيين أن يشربوا الخمر ويدخلوا رغم هذا الجنة بشرط التكفير عن هذا الإثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلاً من العشر المألوف، ولا يذكر نابليون بالتحديد متى صدرت الفتوى الثانية، وهي فتوى غير معروفة ولا مقبولة، ولكن من سياق الاحداث التي يذكرها "رستم رضا مملوك نابليون الشهير" في مذكراته المثيرة.. أنها صدرت خلال غيابه في الشام في ربيع ١٧٩٩ وقيل قياسا على الصيام من باب سد الذرائع؟!

وبعدها أصدر علماء الأزهر بيانا يزعم أن نابليون.. السلطان الكبير يحب المسلمين ويعز الرسول ويهذب نفسه بقراءة القرآن الكريم كل يوم ويريد بناء مسجد

لا نظير له في بهائه وفخامته ويود اعتناق الاسلام)

ويصر نابليون على أن هذا البيان صدر بناءً على أوامره، لكنه يضيف (أن المشايخ لم يستبعدوا أن تتحقق المعجزة وأعتنق الإسلام). وقد اعتنق الإسلام الجنرال مينو وأصبح اسمه عبد الله، ولكن مينو لم يفعل ذلك حباً في الإسلام، وإنما حبا في النساء، ويعتقد بعض المؤرخين أن سياسة نابليون لم تقم على المصلحة فقط وإنما قامت على قناعة مستقرة في أعماقه بوجوب استخدام الدين في السياسة والحرب (لقد كان مخلصاً في احترامه للإسلام لأنه ينبع من موقفه العملي من الدين) فقد قال أمام مجلس الدولة في فرنسا في عام ١٨٠٦ (إنني أرى في الدين سر النظام الاجتماعي الأرضي والسماوي) ..وقد سبق أن قال للشيخ المسيري أنه ينوي (إقامة حكومة موحدة تقوم على مبادىء القرآن القادرة على إسعاد الناس)

لكن ما لا تقوله المذكرات أن نابليون فهم أن الدين في الشرق أهم من المدفع وأن الشريعة تسبق الاستراتيجية وأن الفقيه أخطر من الجنرال.. ولكن لم يفهم أن (الشعب المصري بتكوينه الطبيعي وميراثه الوطني والخلقي والنفسي يتسم بالوداعة والقناعة والارتباط بالجذور وهو مثل النيل لا يقبل الانعطافات المفاجئة ولا الانحرافات الحادة، ولا المغامرات غير المتوقعة؛ ولذلك فإن كل الذين حاولوا القفز فوق الخطوط الحمراء التي رسمها التاريخ سقطوا وانكسرت أعناقهم)

المثير للدهشة أن نابليون لعب نفس اللعبة في فلسطين.. حملة الشام، لكن لم يلعبها مع المسلمين هذه المرة وإنما مع اليهود.. وفي كتابه الوثائقي (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) ينشر مُحَمَّد حسنين هيكل نداء نابليون إلى يهود العالم بعد أن استعصت عليه أسوار القدس. وفيه يصف اليهود بأنهم (ورثة فلسطين الشرعيين) ويصف الإسرائيليين (بالشعب الفريد الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط) وأبدى إيمانه بأنهم (سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف، وطالبهم بأن ينهضوا ليستردوا أرض الأجداد التي اغتصبها الأعداء

غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم)

وطالبهم بالتعاون مع جيوشه (لاستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم, تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم) لكن نابليون نفسه بصفحات كثيرة مما كتب يعترف بأنه (دجال) ويستخدم الصفة بوضوح، ثم إنه يعترف أيضاً بأنه عندما انكشف أمره وجد نفسه هو والمشايخ يلعبون لعبة (الاستغماية)

فقد لعبوا معه نفس اللعبة، بنفس الطريقة: المراوغة وادعاء الصداقة وبذل الوعود الكبيرة دون الوفاء بها وصياغة الأهداف الدنيوية صياغة دينية. ومن يومها واللعبة تتكرر، لكن اللعبة التي فشلت في مصر نجحت بالتوراة في فلسطين.

وقال قيصر: حتى أنت يا بروتس؟!

وقال الناصريون: حتى أنت يا بدران!!

يقول شمس بدران: كنت أحاول تدوين مذكراتي، وكان الهدف من ذلك رواية الوقائع للأجيال الحالية والقادمة وفق الحقيقة بعيدا عن أي غرض ولكن المؤرخ الناصري «أحمد الجمال» يقول بأن «شمس بدران» ظل صامتا حتى انتقل كل من كانوا أحياء ومشاركين في الأحداث إلى رحمة الله، ويقول أحمد الجمال: إن شمس بدران استباح لنفسه أن يروج لمذكراته بأنها تتضمن حكايات عن الحياة الجنسية لجمال عبد الناصر، ويرد شمس بدران: إنه عندما سألني الصحفي والناشر محمد الصباغ في الحديث التليفزيوني عن محاكمة صلاح نصر بتهمة الفساد، أجبته بأن عبد الناصر الذي كان يطلب من صلاح نصر أفلاما جنسية، أخذ يحاكمه بعد ذلك على الفساد، وعندما تذكرت أن ذلك سوف يكون واردا في التسجيل طلبت حذفه

ويستفتح شمس بدران مذكراته بهذه العبارة: "وإني الآن وقد مضت السنون أقول لو أعاد التاريخ نفسه فسوف أفعل ما فعلت، فقد أديت الواجب دون التطلع إلى أي مكافأة، وكان عبد الناصر قبل ذلك في أثناء أزمته مع عبد الحكيم عامر عام ٦٢ كان يحاول إقناعي بأن أكون وزيرًا للحربية بدلا من عبد الحكيم عامر ثم يتم ترقيتي بعد ذلك للرتبة المناسبة لأكون قائدًا عامًا للقوات المسلحة، وكنت لا أوافق على هذا التفكير.

سأله الرئيس السادات: "ماذا ستفعل يا شمس؟؟".

فرد شمس: سوف أسافر

واصل السادات: وإلى أين ستسافر؟

فأجاب: "إلى باريس".

ودون تردد قال السادات: سوف أمنحك جواز سفر دبلوماسي ليسهل عليك عملية السفر

كان شمس وزير الحربية أثناء نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧في قصر الرئاسة ومعه آخرون لتقديم شكرهم إلى الرئيس السادات على قراره بالإفراج عنهم في مثل هذا اليوم ٢٣ مايو ١٩٧٤بعد سنوات قضوها في السجن بدأت في أغسطس ١٩٦٨وفي هذه المقابلة انشغل الحاضرون بسؤال ماذا سيفعلون في المستقبل؟ وكان "بدران يقضى عقوبة الاشغال الشاقة المؤبدة باعتباره المتهم الأول في قضية "قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة بالقوة"، وكان معه فيها عباس رضوان وزير الداخلية وصلاح نصر رئيس جهاز المخابرات وحمزة البسيوني مدير السجن الحربي، وجلال هريدي مؤسس سلاح الصاعقة (وهؤلاء هم المعروفون برجال المشير عبد الحكيم عامر) وكانوا رأس حربة في قصة الصراع الشهير الذي تفجر بين ناصر وعامر بعد نكسة يونيو ١٩٦٧وانتهى بانتحار أو نحر المشير عامر والقبض على هؤلاء الـ٥٠ وتقديمهم إلى المحاكمة؛ ففي قصة ناصر وعامر يتصدر شمس بدران المشهد؛ فهو الذي تم اختياره وزيرا للحربية عام ١٩٦٦م. وكان وقتها مديرا لمكتب "عامر" يقول وزير الحربية الأسبق شمس بدران في مذكراته: "لم أكن من رجال عامر فقط، فقد كنت دوما خزانة أسرار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر"

إنه بعد مرور كل تلك العقود يفتح شمس بدران خزانة أسراره، ويروي للمرة الأولى بعد صمت طويل ما جرى خلف جدران القصور الرئاسية وفي مقرات مفاصل الدولة المصرية، شمس بدران لا يتحدث فقط في الشأن السياسى، إنما يطل على الجوانب الاجتماعية والنفسية في حياة كل شخص من الذين يروي عنهم، كما يكشف عن نزوات بعضهم، نقرأ أيضاً قصة تعيينه لساعات عدة رئيسا للجمهورية.. كما يكشف عن الأسباب الحقيقية لهزيمة يونيو ١٩٦٧ وتآمر الروس والأميركيين على بلاده، ودور أنور السادات في توريط مصر بحرب اليمن وعلاقة عبد الناصر

بحمزة بسيوني، بالإضافة إلى العديد من الأسرار عن أهل الفن وعلاقتهم بصناع القرار في مصر في تلك المرحلة.

واللافت أن الرجل احتفظ بأسراره لنفسه إذ لا يعرف حتى أفراد أسرته الكثير عن شخصيته العسكرية ودوره في مصر، ولذلك في إحدى المرات كان قد حذر كاتب المذكرات "حمدى الحسيني" من الاستفاضة بالحديث مع زوجته الثانية الإنجليزية عن شخصيته العسكرية، فهي لا تعرف عنه إلا أنه تاجر جبنة؟! ولهذا فإن ما يرويه شمس بدران هو في جانب منه سبر أغوار هذه الشخصية التي حاولت لسنوات طويلة الاحتفاظ بأسرارها إلى الأبد، ولذا يقول: (لكن هناك من المنفى حيث يقيم حتى اليوم في بريطانيا استطاع فتح هذه الخزانة ربما لأن بدران أيقن بعدما وصل إلى هذه السن أن من حق المصريين عليه معرفة ما خفي عنهم في تلك المرحلة ويستفيدون منه في المرحلة الحالية)

كان بدران قائدا عاما للقوات المسلحة بالرغم أنه لم يكن يملك التأهيل العسكرى اللازم لمثل هذا المنصب إلا أنه شغله بوصفه من رجال عامر كانت الحصيلة نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ وبعد النكسة كان ممن قادوا عملية تنفيذ الانقلاب على عبد الناصر بتنفيذ الخطة "نصر"، وتقضي كما يذكر هو في مذكراته بنقل عامر من طائرة هليوكبتر إلى وحدات الجيش لحشد الرأي العام فيها ضد عبد الناصر ثم نقله إلى القيادة العامة في حراسة قوات الصاعقة ليعلن فيها مطالبه في مواجهة عبد الناصر التي تتضمن إعادة جميع الضباط المفصولين بعد النكسة إلى الخدمة وعودة المحالين للتقاعد والمعزولين ..

ويذكر بدران صراحة أن هذه الخطة تم نقلها إلى أمريكا عبر أحد الرجال العاملين المصريين الذين كانوا يعملون جواسيس لصالح السفارة الأمريكية بالقاهرة، وكان صلاح نصر هو صاحب هذا الاقتراح لمعرفته بهذا الجاسوس من خلال رئاسته لجهاز المخابرات ولم يذكر بدران من هو هذا الشخص ولكنه يؤكد أنه يعمل في مجال السياحة ومازال على قيد الحياة.. فشلت الخطة بعد ان تم حصار فيلا المشير عامر

بالجيزة في عملية قادها الفريق أول مُحَمَّد فوزي وزير الحربية بعد نكسة ١٩٦٧ واستسلم الضباط جميعا الذين يقيمون حول المشير، وجرت محاكمتهم جميعا في محاكمة عسكرية وكان بدران أول المتهمين وحصل على حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة،حتى قرر السادات الإفراج عنه يوم ٢٣ مايو ١٩٧٤

ويكشف في مذكراته أنه بعد تولي السادات السلطة بعد وفاة عبد الناصر في ٢٨سبتمبر١٩٧٠ توسط له عدد من الضباط والأصدقاء المشتركين بينهما للإفراج عنه وعن الخمسين ضابط الآخرين الذين تم محاكمتهم عسكريا، ولكن السادات طلب تأجيل هذه الخطوة وانهمك في التخطيط لحرب أكتوبر، ونسي الأمر، ثم تذكره بعد النصر "شمل قرار الإفراج: صلاح نصر وعباس رضوان ويتذكر "بدران" بعدها بأيام ذهبنا للقاء السادات في قصر الرئاسة لتقديم الشكر.. ولم يطلب منا السادات سوى شيء واحد هو الابتعاد عن العمل السياسي، وأنه مستعد لتشجيعهم لعمل أي نشاط تجاري بعيدا عن السياسة

ويرفض بدران في مذكراته أي كلام قيل عن صفقة وقعها مع السادات للإفراج عنه، كما ينفي سماح السادات له بتهريب مبالغ طائلة تصل إلى ٦مليون جنيه، أي أنه لم يتنازل عن ثروته التي تصل لـ ٦ مليون للدولة، ولم يسمح له بتهريب مبالغ طائلة تصل إلى ٦مليون جنيه

ويقول:"بعد أن أكد لنا السادات خلال اللقاء على حرصه أن نبتعد عن الجيش وعن الحياة السياسية بشكل عام، راودتني فكرة السفر للخارج فقد شعرت بعدم جدوى وجودي في مصر بعد كل تلك التحولات؛ فعصر السادات ومعركته تختلف عن عصر عبد الناصر ومعركته".

وسافر بدران إلى بريطانيا ليعيش هناك ويتزوج من بريطانية ويرزق منها بأبناء، والمثير أن أسرته الإنجليزية بما في ذلك زوجته لا يعرفون أي شيء عن ماضيه السياسي في مصر كما أكد هو في مذكراته؟!

كما لا تذكر المذكرات لماذا سافر بمفرده؟! وأين زوجته المصرية وأولاده منها فقد تزوج في ١٩٦٤من كريمة المهندس "مصطفي رشدي"

يقول بدران "في أحد الأيام وجدت مأمور السجن أمامي، وقال لي إنه يرغب بالحديث معي في مكتبه، وهناك رن جرس الهاتف وسلمني السماعة وغادر.كان المتحدث عبد الناصر، وبصوت مليء بالحزن لم أعهده فيه من قبل عاتبني عتابًا قاسيًا على موافقتي ومشاركتي في الانقلاب – مع جماعة المشير عامر – وأمور من هذا القبيل، ثم أبلغني أنه في أمس الحاجة لوقوفي إلى جانبه، وأنه يثق أنني من داخلي غير راض عما حدث منذ اللحظة الأولى للخلاف، بعدها فاجأني أنه مستعد للإفراج عني شرط أن أقدم اعتذارًا مكتوبًا عن مشاركتي في الانقلاب، حتى يتسنى له تبرير قرار الإفراج عني أمام الرأي العام.. لم أعلق على طلبه وأبلغته أنني سوف أدرس الموقف وأرد عليه، وأنا في داخلي كنت رافضا لهذا التصرف مهما كانت النتائج، لأنني عندما قررت الوقوف إلى جانب المشير لم يجبرني أحد على ذلك، وكنت أعلم أن الأمر ربما ينتهي إلى هذا الوضع"..

ويستطرد: "بناءً على رفضي الاستجابة أو الرد على طلب عبد الناصر قدمت للمحاكمة على رأس قائمة تضم ٥٠ متهمًا منهم: عباس رضوان (عباس عبد الوهاب أمين رضوان والذي كان واحدًا من ستة ضباط اقتحموا مقر قيادة الجيش واقتادوا كبار قادة الجيش إلى سجن الكلية الحربية، كان له دور بارز في حل أزمة الفرسان ١٩٥٤م والتي جعلت عبد الناصر يعينه وزيرا للداخلية)، وصلاح نصر، وحمزة البسيوني (اللواء حمزة البسيونى تخرج في الكلية الحربية، وانضم إلى تنظيم الضباط الأحرار ليشارك في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهو برتبة رائد، وكلف بإدارة السجن الحربى في عهد جمال عبد الناصر قبل أن يطلق الرئيس مُحَمَّد أنور السادات سراح المعتقلين)، وجلال هريدى (الفريق فخرى (اللواء) جلال محمود هريدي، أسس أول فرقة صاعقة مصرية عام ١٩٥٥، وقد نجا من حكمين بالإعدام، أحدهما في سورية عندما كان قائدا للقوات في محافظة اللاذقية خلال فترة الانفصال عن مصر

عام ١٩٦١، كما حاكمه عبد الناصر بتهمة محاولة قلب نظام الحكم مع ٧٠ ضابط ليحكم عليه بالإعدام، وخفف بعدها الحكم إلى السجن المؤبد"

ويقول: لم يتوقع ناصر رفضي لكل عروضه مقابل الإفراج عني، فكانت النتيجة أنني أصبحت المتهم رقم واحد في قضية قلب نظام الحكم، والاستيلاء على السلطة بالقوة، تحملت الاتهامات بكل ما تضمنته من تلفيق، وظل يسيطر علي هاجس أن الشخص الذي ينبغي وقوفه في قفص الاتهام هو عبد الناصر، لأن سياساته المتهورة وأفكاره الأحادية هي التي أدت بنا إلى هذه الحال المتردية، ومع ذلك فإن الواقع في مصر غالبًا ما يأتي على غير المتوقع،كأن هذا الشعب مكتوب عليه أن يزداد الظالم ظلمًا، والفقير فقرًا، والمريض مرضًا والجاهل جهلاً، فلا أمل حتى في الثورة التي تعلقت آمال وطموحات الناس فيها لتخلصهم من الفساد والظلم والتسلط، فإذا بعبد الناصر ينفرد بالحكم ويحدد بمفرده مصير الأمة،كأننا ندور في حلقة مفرغة، والضحية عادة يكون الشعب المغلوب على أمره!

ويكتب: واجهت بشجاعة المحاكمة، وفندت التهم التي وجهتها لي هيئة المحكمة التي رأسها حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية في الفترة من (١٩٦٣–١٩٧٤) وأحد أبرز الضباط الأحرار وشارك بدور كبير في نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) وبعضوية رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة الفريق عبد المنعم رياض، وقائد المنطقة المركزية اللواء سليمان مظهر إلى جانب أعضاء مكتب التحقيق والادعاء برئاسة كل من المستشارين على نور الدين، وعوض الأحول، في جلسات طويلة وممتدة في مقر مجلس قيادة الثورة على كورنيش النيل جرت وقائع المحاكمة كان حضور الصحافة والإعلام فيها لافتًا كما تكررت المشادات الساخنة بيني وبين المنصة حول أكثر من نقطة أو تفصيل، لأن مَن يحاكمونني كانوا بعيدين عن السلطة، ولم يكن لدى غالبيتهم ما توافر لدي من معلومات وحقائق،كانوا غير مطلعين عليها، مما أوقعهم في حرج شديد أمام ممثلي وسائل الإعلام..

ويكتب: طبعًا لم أكن مقتنعًا بالمحكمة ولا بالمحاكمة، هذا ما يبدو من خلال

الصور والتسجيلات، فكان لسان حالي يقول للجميع: نحن أبرياء، وإذا أراد عبد الناصر أن يحكم علينا بالإعدام فعليه أن يعدمنا بعيدًا عن مهزلة المحكمة التي كنتُ أراها صورية، وليس لديه أدلة كافية لإدانتنا. لم يكن هذا هو انطباعي وحدي، بل يشاركني فيه جميع المتهمين في القضية، لكن كنتُ أنا وصلاح نصر الأكثر شراسة في التعامل مع هيئة المحكمة، لأننا كنا جزءًا مهما من نظام عبد الناصر، ونعرف الكثير عن أسلوبه في إدارة شئون الدولة أكثر مما يعرفه رئيس المحكمة ومساعدوه.

وفي أغسطس عام ١٩٦٨ وبعد معاناة و"حرق أعصاب" طوال جلسات المحاكمة، صدر الحكم علي أنا والمتهمين الرئيسيين بالأشغال الشاقة المؤبدة. لم تصدمنى الأحكام، بل على العكس توقعت أن يصدر الحكم بالإعدام، لكنني كنتُ واثقًا من أن عبد الناصر لن يوافق على إعدامنا، ولا أعرف الأسباب بدقة، بل كان مجرد شعور تملكني بعد صدور الحكم.

تكررت محاولات عبد الناصر بالعفو عني، وربما عن صلاح نصر وعباس رضوان، لكن المؤكد أنه كان يأمل في إخراجي من السجن لمساعدته في السيطرة على ملف القوات المسلحة، لأنه لا يأمن لغيري تنفيذ هذه المهمة، وهو واثق ومطمئن. وكما تكرر عرضه بالإفراج عني تكرر أيضاً رفضي تقديم الاعتذار، واستمر الأمل يراود عبد الناصر أن أعتذر وأندم على انضمامي إلى جانب المشير حتى وافته المنية، وبقي كل منا على موقفه، هو أصر على أن يقدمني للمحاكمة، وأنا أنفذ الحكم القاسي، ومن جانبى قررت تحمل تبعات قراري مهما كانت المعاناة.

يقول: لا أعرف على وجه الدقة لماذا اتخذتُ هذا الموقف من جمال عبد الناصر؟ رغم قربي منه، وثقته في، واهتمامه الدائم بي منذ أن تقابلنا للمرة الأولى على أرض فلسطين حتى يوم ٧ يونيو ١٩٦٧ في أعقاب الهزيمة، وتراجعه في آخر لحظة عن ترشيحي رئيسًا للجمهورية بعد مشاوراته مع المشير التي انتهت باستقالتهما وتكليفي إدارة شئون البلاد كرئيس للجمهورية في مرحلة ما بعد الهزيمة.

الانهيار المفاجئ للثقة بيننا كان بسبب إحساسي أنه يسعى إلى توريط المشير أو أنا أو أي طرف آخر لتحمل مسئولية أكبر هزيمة تتعرض لها مصر في التاريخ المعاصر، رغم أنه صانع القرار الأول في الدولة، وكان الجيش والشعب يسيران خلفه كالعميان، بسبب الثقة المفرطة فيه،كل هذا جعلني أرفض قبول أى مبادرة للإفراج عني، وخصوصا تلك المشروطة بالاعتذار المزعوم، كما أن ذلك الإفراج كان أيضاً يعني العودة إلى التعاون معه وتحمل المسئولية إلى جانبه، وهذا ما كنتُ قد قررت الإقلاع عنه تمامًا، بل وتعمق لدي الابتعاد عن أي عمل عام أو رسمي.

لقد اعتاد عبد الناصر مساومتي بهذه الطريقة، حيث أذكر أنه في أثناء أزمته الأولى مع عبد الحكيم عامر عندما لوح المشير بالاستقالة في وجه عبد الناصر، وتحالف مع مجموعة من الضباط الأحرار فيما عرف بـ "الانقلاب السلمي" للحد من انفراده بالسلطة المطلقة وحده عام ١٩٦٢ حاول عبد الناصر وقتها إقناعي ومساومتي أن أكون وزيرًا للحربية بدلا من عبد الحكيم عامر، على أن تتم ترقيتي بعد ذلك للرتبة المناسبة، لأكون قائدًا عاما للقوات المسلحة، وكنت لا أوافق على هذا التفكير لسببين، الأول أنني لم أكن مؤهلا لهذه القيادة، فقد كنت برتبة ملازم أول عندما تركت الشئون العسكرية وانتهت مؤهلاتي عند التأهيل الأساسي، وهو فرقة قادة الفصائل، وفرقة الأسلحة الصغيرة وفرقة الشئون الإدارية اللازمة للترقية إلى الرتبة التالية، لكن عبد الحكيم عامر قبل أن يصبح قائدًا عاما كان في رتبة الصاغ (رائد) وكان من خريجي كلية أركان حرب، وهي أعلى المؤهلات العسكرية في ذلك الوقت، والسبب الثاني هو أنني كنت قد قررت الخروج من الجيش مع عبد الحكيم عامر، حتى أنني عندما أقدمت على الزواج عام ١٩٦٣ كنت قد أخبرت المهندس مصطفى رشدي والد زوجتي المقبلة، وقبل أن تتم الخِطْبة والزواج أنني لن أبقى في منصبي إلا لفترة قصيرة، وقد أحدث ذلك هلعًا في عائلة الزوجة، مما أدى بالمشير عبد الحكيم عامر إلى أن يدعو المهندس مصطفى رشدي إلى منزله ليطمئنه أنني عندما أترك الحكم فلن أكون معاديا للنظام، وبذلك حدثت الطمأنينة وتم الزواج.

ويقول: في أحد أيام سبتمبر عام ١٩٧٠ كنتُ أجلس في فناء سجن طرة إلى جانب سيف الإسلام حسن البنا ابن مؤسس جماعة "الإخوان" حسن البنا، وسمعنا نبأ وفاة عبد الناصر. فجأة شعرت بانقباض شديد، وانتابني شيء من الألم والحزن العميق، ومر أمامي شريط من الذكريات التي جمعتني بكل من عبد الناصر والمشير من أيام حرب عام ١٩٤٨ ومعارك الفالوجا، ثم التخطيط للثورة، وما تلاها من أحداث كانت عاصفة.. انفصلتُ عن المحيطين بي بعد أن تمنيت أن أطوي كل ما حدث وأشارك في جنازته.

يقول شمس الدين على بدران: الآن وقبل أن نبدأ في سرد المزيد من قصتي مع الإخوان المسلمين وقبل التطرق إلى وقائع التحقيق في قضية تنظيم الإخوان عام ١٩٦٥ أحب أن أعرض هنا أمورًا، أرى من الواجب التنويه عنها،

أولا: أحب أن أقول إن جمال عبد الناصر هو الذي صنع «ثورة مصر» التي عجلت بهدم إمبراطوريات راسخة وامتد تأثيرها ليس فقط إلى آسيا وإفريقيا، بل حتى إلى» كوبا« في أمريكا اللاتينية، ومن ينكر ذلك الآن من المتحذلقين والمتفلسفين يكون كمن ينكر شروق الشمس في الصباح؟! ويقول: ومن يريد القول الآن بأني كنت أخنق الضحايا بيدي وأقوم بقتلهم، فإني أقول له إنني لست ساديًّا، لكنني أمرت المحققين معي بأن يقوموا بالتحقيق بلا هوادة، فقد حملت مسؤولية لم أسع لها، فتحملتها وأمرت باستخلاص الحقائق، ولم أكن أدافع عن النظام بقدر ما كنت أدافع عن أبرياء سوف يتعرضون للقتل بلا ذنب على يد تنظيم «الإخوان المسلمين» ولقد حققت النتائج التي أدت إلى إنقاذ البلد من دمار وإنقاذ أرواح بريئة لا ذنب لها إلا أنهم كانوا «كفارًا» على حد قول المناوئين من الإخوان، ومن ينكر ذلك الآن يكون كالنعام يضع رأسه في التراب حتى لا يرى حقيقة الخطر، فلم تكن هناك في ذلك الوقت من الستينيات في القرن الماضى «سياحة» حتى نقول إن هدف «الإخوان» هو المرافق السياحية كما يحدث الآن، بل كان الهدف هو مؤسسات الدولة بمن فيها ومن عليها من الكباري ومحطات الكهرباء والإذاعة والقناطر الخيرية، وقد تم ضبطهم

وهم على أتم الاستعداد للخروج بالسلاح والمتفجرات، التي ضبطت معهم لتنفيذ هذا الغرض، فإذا كان هناك من يقول إن هذه القضايا مفبركة، فإني أقول له هل فبركنا الأسلحة والرشاشات وأصابع الجلجنايت والقنابل اليدوية التي وجدت بكميات كبيرة في بيوتهم، وفي ثلاثة أماكن مختلفة، فهل قمنا بوضع ذلك؟ وهل قمنا كذلك بوضع قنابل المولوتوف التي كانت تملأ إحدى الغرف للسقف في إحدى شققهم؟ وهل فبركنا الرسوم الكروكية التي عملها المهندسون «الإخوان» للكباري ومحطات القوى وسد القناطر الخيرية، موضحًا بها أماكن النسف ووضع الجلجنايت، وقد اعترف السيد قطب بكل ذلك في مذكراته دون أي ضغط، فقد كان يتعاطى أدوية كثيرة لعلاج القلب وأمراض أخرى، وإذا كان كل ذلك فبركة في فبركة، فهل فبركنا الكشوف المكتوبة بخط أيديهم بأسماء من يجب اغتيالهم؟ وهل فبركنا أيضا الوصايا التي تركها الشباب بخط أيديهم في منازلهم لتوزيع كتبهم ومتعلقاتهم في حالة استشهادهم؟ وهل كان المطلوب السكوت على كل ذلك حتى تتم الكارثة لإثباتها كما حدث في السبعينيات عندما قام تنظيم إخواني بقيادة «صالح سرية» بالهجوم على الكلية الفنية العسكرية للحصول على السلاح لقتل أنور السادات في اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي والاستيلاء بعد ذلك على الحكم، وقد قتل سبعة من الطلبة في أثناء هجوم تنظيم «صالح سرية» على الكلية الفنية العسكرية والذي كان هو مبنى الكلية الحربية القديم الذي تخرج فيه أجيال الضباط الأحرار، وكذلك من جرائم تنظيم الإخوان المسلمين عندما اختطفوا وعذبوا الدكتور الذهبي حتى الموت. وهنا أود أن أذكر أن في أمريكا بلد الحريات قانونًا يعطي الحق لرجال التحقيق الابتدائي باستخدام الوسائل غير القانونية لإجبار المتهمين على الاعتراف بشركائهم إذا كان هناك تدبير يعرض أمن المجتمع للخطر الداهم ويشكل كارثة قومية حتى تتمكن السلطات من وضع يدها عليهم قبل وقوع الخطر، ثم يعطى القانون بعد ذلك الضمان للمتهم بسحب أقواله أمام المحكمة، ويتم ذلك في ما يطلق عليه «غرفة الدرجة الثالثة» وقد شاهدها بعض ضباطنا المبعوثين من البوليس الحربي في أثناء

بعثتهم في أمريكا إلى الـ«FBI»، ورغم ذلك فإني أعتقد أيضا أن طرق التحقيق المتبعة قد تكون سلاحًا ذا حدين، فيكون ضرره أكثر من نفعه إذا استخدم بواسطة من يريد الوصول إلى أي نتيجة بطريقة عشوائية وبسرعة للحصول على الاعترافات التي يريدها المحقق ويقوم بتلقينها للمتهم دون أن يشعر.

وكل ما حدث في تحقيقات سنة ٥٤ التي كانت تجري تحت إشراف زكريا محيي الدين في السجن الحربي، كان يحدث أيضا في تحقيقات سنة ٦٥ وكان جمال عبد الناصر في كلتا الحالتين يعلم تمامًا بما يجري في أثناء التحقيق، وكنت قد طلبت من المباحث الجنائية العسكرية في أثناء التحقيق بأن تقوم بالتفتيش المنظم والتفتيش المفاجئ على الزنازين وغرف السجن، للتأكد من سلامة معاملة المساجين بعد انتهاء التحقيق معهم، وفي أثناء اتصالاتي بعبد الناصر لإطلاعه على نتائج التحقيق حدث أن قال لي في إحدى المرات: «لقد سمعت أنك ستفوض المباحث العسكرية للتفتيش على السجن والمعتقلين، وأنا أحب أن أوجه لك نصيحة، وهي أن السجن الحربي هو مملكة حمزة البسيوني، فإذا حاولتم التدخل في شؤونه فيمكنه إعاقة التحقيق بعمل اتصالات بين المتهمين بعضهم ببعض وخلافه، والأحسن أن تتركوه حرًا في مملكته»،

وفي المذكرات قَلب لكل من نعرف من إشاعات، وتحويل الإشاعات لحقائق فهو يقول: (ورغم ذلك فإن كل ما قيل عن إعجاب السادات بالمذيعة همت مصطفي، فإن الحقيقة هي أن المعجب الأول بها كان عبد الناصر، فقد طلبها بالاسم لتغطية زيارة مهمة للجزائر، وأذكر أنها كانت لا تزال صغيرة السن، وفي المستوى العادي إعلاميا، مما دفع الصحافي موسى صبري إلى كتابة مقالة نشرت في صحيفة "الأخبار" انتقد فيها من اختارها لتغطية حدث بهذا المستوى، فصدر قرار فوري بوقفه عن العمل، وكان الوقف (لمدة شهرين) فشمس بدران يقول فيها مثلا

"كان عبد الناصر يبدي عكس ما يضمر، وكان يحرص على أن يُظهر رغبته في تحقيق الديمقراطية، وتسليم السلطة لنظام مدني منتخب إلا أن تلك الرؤية بدأت تتغير، وبدأ يظهر احتقاره للسياسيين يومًا بعد يوم،كما نجح في إقناع زملائه في مجلس

قيادة الثورة بضرورة الإطاحة بمحمد نجيب من منصب الرئاسة، ثم تحديد إقامته.كما نجح أيضًا في إقناع جماعة "الإخوان" أنه لن يلعب منفردًا، وأنهم سيكونون شركاء له في الحكم، إلى أن وقع حادث المنشية في الإسكندرية العام ١٩٥٤الذي تحول محطة مهمة ضرب خلالها عبد الناصر عصفورين بحجر واحد، فهو تخلص من صداع "الإخوان" وشبح مُحَمَّد نجيب، بعدها لم يبق أمامه سوى رفاق الثورة من الضباط الأحرار، وبدأ التفكير في طريقة للخلاص منهم بهدوء، واحدًا تلو الآخر، بطريقة لاينقصها الذكاء، وكان هيكل الحاضر الغائب في كل هذه المحطات".

وإذا كانت المذكرات مست ناصر بسوء، فإنها كانت جحيما على هيكل إن شمس بدران يكرهه من الوريد للوريد يقول في ما يساوى ٢٠ صفحة عنه (بحكم الخلفية والتكوين، والثقافة كنت أشعر دائمًا أن هناك فجوة تفصل بيني وبين الصحفي المعروف مُحَمَّد حسنين هيكل، لكن لم تصل أبدًا علاقتي به إلى الشك أو القطيعة، كما لم يحدث بيننا الاندماج والتفاهم نفسهما اللذان كانا يربطان بينه وبين عبد الناصر)

ويقول: (من وجهة نظري هيكل يتمتع ببعد النظر إلى جانب صفات عدة أخرى أهلته ليسيطر على عقل عبد الناصر، منذ لقائهما الأول على أرض فلسطين، خلال تغطيته أحداث المعارك هناك العام ١٩٤٨) لكن تبقى أهم صفات هيكل هي "الانتهازية" لأنه ارتبط بعلاقات مع القصر، وكتب مقالات "نفاق"، وتقرب من الملك فاروق،كما ارتبط أيضًا بعلاقات واسعة مع الكثير من قادة الجيش المصري أثناء المعارك، أبرزهم اللواء مُحَمَّد نجيب الذي كان من أعلى الرتب العسكرية التي شاركت في المعارك، بل أصيب في تلك الحرب أيضًا، لكن لم تتوثق علاقاته بهؤلاء القادة بالقدر نفسه الذي حرص فيه على التواصل مع الضباط الأصغر رتبة، مثلما حدث مع جمال عبد الناصر)..ويقول

(كان عبد الناصر يدرك أيضًا أهمية التواصل مع الصحافة التي كانت تمارس دورًا أساسيا في تشكيل وعي الفئات المتوسطة والمتعلمة في مصر في ذلك الوقت، لذا

كانت الرغبة في إقامة علاقة نفعية بينهما متوافرة منذ اللحظة الأولى. رغم صغر سن هيكل آنذاك، إلا أنه كان حريصًا على أن يترك انطباعًا إيجابيا لدى كل من يلتقي به، وكان يضحي كثيرًا من أجل تثبيت هذه الصورة عن نفسه، ولم يمنعه انحداره من أسرة متواضعة ومروره بظروف إنسانية واجتماعية شديدة التعقيد في بداية حياته، من أن يوحي للآخرين بعكس ذلك، ولم يترك لهذه الظروف أن تعرقل مسيرته نحو التطلع إلى بناء مستقبل يختلف تمامًا عن تلك البيئة التي خرج منها!

ويقول "تدريجيا بدأت الثقة تتكون بينه وبين عبد الناصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو.كان هيكل شديد الذكاء في التعامل مع نجم الثورة الصاعد جمال عبد الناصر، بعد أن درس حالته النفسية وتكوينه وعرف مفاتيح شخصيته الأساسية، وبدأ يتعامل معه وفقًا لخطة بطيئة، نجح خلالها في كسب ثقته واحترامه، وبدأ كل منهما يقرأ طموح الآخر نحو المستقبل. بالنسبة إلى هيكل كان طموحه أن يصبح الصحفي الأول في مصر، ويحظى برضا وقبول قادة الثورة الجدد، ولا سيما البارزون والمؤثرون منهم في صنع القرار والأحداث. أما عبد الناصر فقد كان يطمح إلى أن يسيطر على مجلس قيادة الثورة، ويسعى إلى الانفراد بالسلطة بعيدًا عن باقي رفاق الثورة، رغم أنه لم يظهر ذلك في الأشهر ولا حتى في السنوات الأولى للثورة والتخلص من الملك"

ويقول: (اللافت أن كلا من هيكل وناصر كانا يسيران بخطى ثابتة ومتوازية نحو الوصول إلى أهدافهما التي لم تتقاطع أبدًا، بل ربما تكاملت في أكثر الأحيان؛ ففي الوقت الذي تخلص فيه عبد الناصر من نجيب و"الإخوان" كان هيكل قد تخلص من هيمنة علي ومصطفى أمين،كما تجاوز سطوة أسرة أبو الفتح بعد الصدام بينها وبين الثورة، بسبب إلحاحها الدائم على ضرورة عودة الحياة الديمقراطية والسياسية التي كانت تتمتع بها مصر قبل قيام الثورة.

ثم بدأ طموح هيكل يتجه إلى "الأهرام" التي وجد أصحابها أن مصالحهم سوف تتحقق إذا تحالفوا مع هيكل الذي كان نجمه في تصاعد مستمر. وكان عبد الناصر على موعد مع العدوان الثلاثي على مصر العام ١٩٥٦ الذي نجح بمهارته وذكائه في

أن يحوله من هزيمة إلى نصر سياسي كاسح، بعدها بدأ نجمه يسطع في سماء السياسة والمحافل الدولية. وهنا جاء دور هيكل الذي اتخذ من هذه المحطة فرصة للعمل على استثمارها أفضل استثمار في بلورة "الأسطورة"، هذا هو لقب عبد الناصر الجديد الذي نحته هيكل من العدم، وبدأ في الترويج له في وسائل الإعلام المصرية والأجنبية، ثم بعد أن ترسخ في الأذهان أن عبد الناصر أصبح أسطورة العرب السياسية .

دخل هيكل مرحلة اللقب الجديد "الزعيم"، وبدأ الترويج له في كل مناسبة بطريقة لا تخلو من الذكاء والحنكة. منذ تلك المحطة تعمقت علاقة هيكل بعبد الناصر، وتحول بعد ذلك من مجرد صحفي ناقل للأخبار إلى جزء من منظومة الحكم، بل شريك رئيسي في صنع القرار السياسي المصري طوال فترة حكم عبد الناصر. وعند صدور قرار تأميم الصحافة، أبدى هيكل تحفظه عليه ظاهريا، لكنه كان محرضًا ومتحمسًا له كعادته في مثل هذه الأمور الشائكة، فهو كصحفي يخشى من حساب التاريخ إذا ثبت تورطه في دعم وتأييد مثل تلك الإجراءات، لكنه في الوقت نفسه لم يبذل الجهد اللازم لإحباطها أو التصدي لها، لسببين، الأول: خشية إغضاب عبد الناصر، والثاني: لإفساح الطريق لنفسه ليصبح الصحفي الأول في مصر، ويحول "الأهرام" الصحيفة الأولى التي تسبح بحمده، سواء كان على رأسها أو تركها)..

ويذكر شمس في مذكراته "في تلك الأثناء كان هيكل المصري الوحيد الذي يزيد راتبه عن خمسة آلاف جنيه، وجرى استثناؤه بقرار من عبد الناصر، لذلك حقق لنفسه استقرارًا ماديًا ومعنويًا غير مسبوق لا في الصحافة ولا في مصر كلها. قرار تأميم الصحافة نزل كالصاعقة على رءوس أصحاب المؤسسات الصحفية التقليدية التي كانت قائمة منذ عقود، وتحول زلزالا هز وشتت غالبية العاملين في الصحافة. غير أن هيكل كان الصحفي الوحيد في مصر الذي استفاد من هذه الخطوة، لذلك نجده قاتل كثيرًا من أجل تسويق مصطلح "تنظيم" لتخفيف وقع كارثة التأميم على الصحافة والصحفيين.

كان من أهم نتائج تأميم الصحافة المصرية نزع أنيابها وتجريدها من أي قدرة

على النقد أو الإصلاح، فنجد الجميع يتنافسون على التزلف لـ"الزعيم" حتى الصحفيان الشهيران مصطفى وعلي أمين بدءا في نشر مقالات تمدح عبد الناصر بطريقة تثير الشفقة، لأنهما لو لم يكتبا بهذه الطريقة سيكونان عرضة للوشاية والهمز واللمز، ثم الانتقام، هكذا أصبح الطريق ممهدا أمام هيكل ليكون الوحيد في مصر الذي يحصل على نسخة من أخطر تقارير أجهزة الدولة وقرارات رئيس الجمهورية، إلى أن تورط مصطفى أمين في قضية التجسس الشهيرة لحساب الولايات المتحدة. تلك كانت قضية حقيقة ومتكاملة الأركان، بل استعان فيها صلاح نصر بأساليب مبتكرة للإيقاع به متلبسًا، من بينها تجنيد فنانة شهيرة كانت ترتبط بعلاقة عاطفية مع مصطفى أمين، ونجحت المخابرات في الضغط عليها لتوفير أدلة وقرائن تثبت تورطه في القضية، كما تم تجنيد طباخه الخاص، ليزرع أجهزة التنصت والتصوير في شقته في الزمالك، لكن للحقيقة كان مصطفى أمين يؤدي دورًا مهما لتوصيل رسائل عبد الناصر إلى الأمريكيين، وكان يمارس هذا الدور تطوعًا لكسب ود عبد الناصر، واتقاء شره أو تجنب السقوط في مكائده. لكن كل هذا لم يخفف من محاكمته، وتوقيع العقوبة عليه، رغم كل الضغوط والوساطات التي مارسها صحفيون وزعماء عرب كانوا يتعاطفون مع مصطفى أمين"..

ويزعم شمس بدران أن هيكل أدى دورًا خفيا فيما أطلقوا عليه "مذبحة القضاة"، وكان يقدم التبرير اللازم لتوجيه الرأي العام نحو تأييد مثل هذا النوع من التوجهات، التي كانت تفسح في المجال أمام تتويج عبد الناصر حاكمًا بأمره لمصر دون منازع أو حتى رقابة تراجع قراراته أو تناقشها وتبدي الرأي حولها.

ونصل إلى هزيمة ١٩٦٧ التي سعى هيكل بكل الوسائل إلى تسميتها "نكسة" بدلًا من هزيمة، اعتقادًا منه أنها أقل وطأة من الهزيمة، وأن هذا المصطلح كان يرضي صديقه عبد الناصر ويوحي بأنه غير مسئول عنها، بل ربما كان ضحية لها أيضًا، ففي تقديري أن هيكل يعتبر الشريك الرابع الذي يتحمل مسئولية هزيمة مصر في يونيو ١٩٦٧، فإذا وزعنا المسئولية بالترتيب يأتي عبد الناصر في المقدمة، ثم عبد الحكيم

عامر، فمحمد فوزي، فهيكل. ويقول

"أثناء التحقيق في قضية "الإخوان" العام ١٩٦٥ طلب عبد الناصر مني السماح لهيكل بزيارة السجن الحربي للتعرف على مجرى التحقيقات، وعندما حضر ورأى ما يفعله ضباط السجن الحربي تحت قيادة حمزة البسيوني وأطقمهم، سألني عن أي أخبار للنشر، فأعطيته خبرًا، وطلبت منه أن لا ينشره إلا بعد يومين، وبعد أن يكون التحقيق قد تم مع بعض المتهمين، ثم فوجئت بنشر الخبر في اليوم التالي في "الأهرام"، كما نشر بعض التعليق على ما كان يفعله حمزة البسيوني وفرقته، وعندما علم عبد الناصر بذلك أمره أن يذهب ليقابلني في منزل المشير عبد الحكيم عامر ليعتذر عما نشره، وحضر فعلا واعتذر، ثم قال لي إن كلا منا له الهدف نفسه! بعد ذلك سألني سامي شرف عما جرى في زيارة هيكل للسجن، فأخبرته أنه رأى حمزة البسيوني وأطقمه، وكذلك رأى طريقة الاستجوابات العنيفة، وعلق سامي شرف على ذلك قائلا: "هذا مفيد جدا لأن ذلك سوف يجعله منضبطًا طول عمره! لكنني غضبتُ جدا لنشره ذلك الخبر مع علمه أن ذلك يؤثر على مجرى التحقيق. والحقيقة لم يكن لي أي علاقة مباشرة معه في العمل، فلم أكلمه أو أتصل به هاتفيا إلا نادرًا وأنا في الخدمة، بل كنت أحرص على تجنب الاحتكاك به في أي علاقة اجتماعية خاصة، وأذكر عندما التقيته مرة في منزل عبد الحكيم عامر، تعاملت معه بطريقة أشعرته بالخطأ الذي ارتكبه في واقعة النشر بعد زيارته للسجن الحربي. .

ويقول عن هيكل: "المدهش أن الوحيد الذي حاكم الجميع عن هذه الهزيمة ولم يُحاكم أو حتى يستدعى هو هيكل، فهو يملك من البراعة والذكاء ما يجعله يُخرج نفسه من أي مأزق مهما كان تعقيده أو تشابكه، فهو عند الجد يزعم أنه مجرد "جورنالجي" لا دخل له بالقرارات السياسية أو القضايا الحربية لكن حقيقة الأمر هو المحرك الحقيقي لغالبية الأحداث التي شهدتها مصر بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٧."يقتل القتيل ويمشي في جنازته"

ويقول: هذا هو هيكل، وهذا هو سلوكه طوال حقبة عبد الناصر، وأتصور أنه

كان بوسعه أن يؤدي دورًا أكثر إيجابية في الكثير من المواقف الحاسمة، كما كان بمقدوره أن يغير رأي عبد الناصر تجاه الكثير من القضايا، بما كان له من تأثير السحر على الرئيس. ولماذا لم يفعل ذلك؟.. ربما لأنه لم يرغب في إغضاب عبد الناصر أو مضايقته أو ترسيخ فكرة أنه معارض لتوجهاته أو صاحب مصلحة، كما أنه ربما رأى أن تمرير بعض هذه القرارات سوف يصب في مصلحته في نهاية المطاف، فكان يفضل أن يمسك العصا من المنتصف للنأي بنفسه عن التورط في أي قضية أو تحمل مسؤوليتها، حتى يظل دائمًا هو القاضي والحكم أمام التاريخ والأجيال الجديدة التي لم تعاصر تلك الأحداث لقد كنت قريبًا من عبد الناصر، وكنت أتابع تلك العلاقة التي تربطه بهيكل، فقد كان أقرب إليه في أحيان كثيرة من المشير عامر ومني، ومن جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة، وأذكر أن أربعة أشخاص كان لديهم الحق في لقاء عبد الناصر في أي وقت والاعتراض على قراراته أو إبداء الرأي فيها، هؤلاء: المشير عامر، وأنا، وشقيق زوجته، وأخيرًا هيكل.. وتصوري أن هيكل كان الأخطر من حيث التأثير، ونظرًا إلى طبيعة علاقاته كصحفي يتمتع بشبكة علاقات دولية واسعة، ويحتك بالمجتمع أكثر منا جميعًا، لذلك كان تأثيره في القرارات السياسية أكبر من أي شخص آخر لهذا أحمله مسئولية كبيرة في هزيمة يونيو١٩٦٧، وكان يجب تقديمه للمحاكمة بناءً على دوره في تبرير كل قرارات عبد الناصر مهما كانت خطورتها ونتائجها الكارثية. بل أني لساعات كثيرة كنت أفكر فيه باعتباره جاسوسا أمريكيا عالي المستوى؟!

وإذا كان بعض الكتاب استشهد بـ«محمد حسنين هيكل والقيسونى وصلاح نصر والفريق مرتجى والفريق أنور القاضى» وهم شهود على الفترة والحدث وقد جاء مجمل شهادتهم يؤكد فداحة الثمن مادياً ومعنوياً، الذي خسرته مصر باليمن. وأن عبد الناصر أدرك فعلاً أن اليمن هى فتينام العرب، بل إنه حمل السادات بعد ذلك مسئولية هذه «الورطة» على أساس أن السادات هو الذي أشار عليه بتوسيع حجم العمليات العسكرية المصرية في اليمن. ولكن هناك شبه اجماع من المؤرخين على أن

عبد الناصر هو المسئول الأول عن قرار التدخل، وذلك لدوره المحوري في صنع القرار في كل المجالات وبخاصة في السياسة الخارجية، وقد أكد هذا الدور دستور ٥٦، ودستور ٥٨ و١٩٦٤ وكانت المؤسسات الأخرى «مجلس الأمة والاتحاد الاشتراكى – مجلس رئاسة الوزراء – وزارة الخارجية» هامشية، فاقدة التأثير، لذلك كانت عملية صنع القرار بين يدى عبد الناصر وحده، تخضع لفكره وإرادته ومهمة الجيش تنحصر في التنفيذ

وجعلت مذكرات شمس بدران "حرب اليمن" في عنق السادات وكأن السادات إذا قال سمع عبد الناصر ونفذ؟! بل وربطها بفضيحة حيث ادعى ارتباط السادات بعلاقة منفلتة مع امرأة يمنية،كانت زوجة لمسئول كبير باليمن وعرف منها أن حكم الامام البدر يعاني من حركة الثوار وأنهم يستحقون المعاونة فأخبر ناصر الذي رحب بمعاونة الثوار كما حدث في الجزائر والعراق وأرسل فرقة من الصاعقة، ثم وصل الأمر لوصول نصف الجيش المصري لحرب اليمن؟! ويدعي أنه سمع ذلك من عبد الناصر والفريق عبد المنعم خليل، ولكن الفريق خليل رئيس عمليات القوات المصرية التي قاتلت في اليمن بين ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ فيما يعرف بالعملية ٩٠٠٠ يقول بمذكراته "إن القاهرة كانت خلال شهر أغسطس/آب ١٩٦٢ على علم بوجود تنظيم للضباط الأحرار في اليمن يقوده العقيد على عبد المغني، وأن هذا التنظيم يرتب للقيام بانقلاب على حكم الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين الطاغية كما كانوا يسمونه هناك، وكان أنور السادات على علاقة ببعض اليمنيين هنا وهناك، وكان تقدير مصر الرسمي في حالة حدوث ثورة يمنية ضد حكم الإمام أحمد هو أن السعودية في الشمال والإنجليز في عدن بالجنوب قد يقفون ضد الثوار ويدعمون موقف الإمام أحمد. ولما توفي الإمام أحمد خلفه ابنه الأمير مُحَمَّد البدر ولي العهد وفي صباح يوم ٢٦ سبتمبر/أيلول ١٩٦٢ أذاعت صنعاء أن العميد عبد الله السلال قاد الانقلاب ضد الأمير مُحَمَّد البدر ـ إمام اليمن الجديد ـ واستولى الجيش اليمني على السلطة بعد معركة مسلحة قيل إن الإمام البدر قد قتل فيها. واعترفت مصر بالنظام الجمهوري في

اليمن، وقرر جمال عبد الناصر التعرف على الموقف في اليمن على الطبيعة، فأرسل السادات ومعه كمال رفعت عضوي مجلس الثورة لاستطلاع الموقف ومعهما وفد من ضباط العمليات. ولما عاد السادات من صنعاء بعد ٣٦ ساعة كان تحمسه للتدخل المصري في اليمن واضحا؛ فقد اقترح إرسال سرب من الطائرات المصرية إلى اليمن، فهو وحده كفيل بإجبار القبائل على التجمهر (أي تأييد الجمهورية) التي جاءت على أنقاض الملكية. وكانت هذه الفكرة بداية التدخل الإجباري الجوي والبري والبحري بالرجال والعتاد والسلاح والمال والذهب وكل شيء.وكان الأمير الحسن عم الإمام مُحَمَّد البدر قد عاد إلى السعودية،حيث اتخذ نجران قاعدة لإمداد القبائل بالذهب والريالات والسلاح والذخيرة والمعدات، للوقوف مع الملكية ضد الثورة، وكان الذهب له بريقه الخاص في جذب النفوس إلى تحقيق ما تريده اليد التي تعطي.

وقالت الكاتبات: نخجل من القارئ المتلصص علينا؟!

وجاءت "شرين أبو النجا" دكتورة وناقدة نسوية كبيرة وجميلة وتقابلنا عند د.نوال السعداوي بجمعيتها القائمة وقتها بضريح سعد "جمعية تضامن المرأة" وأهدتني كتابها وتصادف أن نفس الموضوع كان هو رسالتها للماجستير،كتابها: "نسوي أو نسائي" لتفتح معي حواراً أدهشني وأخجلني؟!

قالت: أن النقد النسوي تبين له سبب آخر لإشكالية الأدب النسائي، فتكمن الإشكالية في أن القارئ يتلقى كتابات المرأة ويحكم عليها بمنظوره الذكوري.. إن تلقي أدب المرأة وفق الذهنية الذكورية ليس تلقيًّا بريئًا أو محايدًا؟! وينظر لها على كونها سيرة ذاتية للمؤلفة؛ فالقارئ لا يتعامل مع النص بقدر تعامله مع جنس كاتبه، أنه يتلصص بالنص على الكاتبة نفسها ويعتقد بأن البطلة هى الكاتبة.. وصرخت: أكره النقد الذكوري حين يتلصص الرجل من أدبي على حياتي؟!

وعشت مع الكتاب أتابعه، وأتابعها بعد ذلك؛ فمع الحركة النسوية جاء نشاط ثقافي للمرأة هو ما تكتبه المرأة، هو ما عبرت فيه عن أحلامها وأوجاعها هو قلمها، هو الأدب النسائى. فهناك قضية اسمها أدب المرأة..لا يقصد بها الأدب المكتوب عن المرأة، ولكن يقصد به الأدب الذي تكتبه المرأة، وقد خرج من أدب المرأة تسميات نقدية كثيرة أهمها: الأدب النسائي، والأدب النسوي، والأدب الأنثوي، وكل من هذه التسميات يهتم اهتماما مركزا بالكتابة التي يتنوع إنتاجها بين: القصة، والرواية، والمقالة. المهم خرج شعر المرأة من هذة الإشكالية وفي ١٩٨٨ قالت الشاعرة "سعاد الصباح" بعد سؤال مباشر أثناء توزيع جوائز مسابقتها عما إذا كانت تعاني من متاعب بسبب تصنيف الأدب إلى (أدب نسائي وأدب) فقالت: (إن الخنساء جعلتنا خارج هذه الإشكالية، فالشاعرة العربية سابقة على الأديبة العربية بألف عام).. أي أنه منذ القدم هناك فصل بين الشاعرات والأديبات!! بل أنها قد طبقت نظريتها بقوة

حينما جعلت ليلتها الشاعرية في الأوبرا بالقاهرة بين شاعرين من الرجال هما (الفاروقان): فاروق شوشة، وفاروق جويدة، وكنا وقتها نتندر في الأوبرا بأن الرجل في الميراث بامرأتين، والمرأة في الشعر برجلين!!

ونعود مرة أخرى لتفصيل لما سبق إجماله – والعود أحمد– في التفرقة بين نعت الأدب بالنسائية ونعته بالنسوية فالحركة النقدية النسائية، أو النقد النسوي تجعل الأدب المرتبط بحركة تحرير المرأة وحرية المرأة وبصراع المرأة الطويل التاريخي للمساواة بالرجل "أدباً نسويا"، أما الأدب النسائي فهو الأدب الذي تكتبه المرأة مستسلمة فيه للثقافة الذكورية فهي تكتب بقلمها تقليدا للرجل مثل رواية (سيد العزبة) لعائشة عبد الرحمن (د/ بنت الشاطيء) ١٩٤٢ تقول فيها على لسان بطلة روايتها (سميرة):

إذا كان هذا يرضي السيد فماذا على من الناس؟

ورواية جميلة رائدة لا يذكرها أحد وهي رواية (صبحة) – لملك فهمي سرور (١٩٤٨) كانت شخصية صابحة – بطلة الرواية النموذج التقليدي للمرأة في علاقتها بالرجل فهي – على سبيل المثال – "تود أن تتزوج رجلا يأمرها، لا ربيبا يطيعها.. رجلا شرسا، منفعلا غضوبا، ثائرا ناقما.. وتقول: أنها كفء أن تتحمل كل هذا وترضيه"

وحديثا مجموعة "الكلام المباح" القصصية لسناء البيسي– إنها آخر كاتبة يمكن أن توصف كتاباتها بالنسائية – فهي لا تحب أن تسير في مظاهرات الأبجديات الموصوفة (بالفيمنيزم) ولكنها تحب أن تعيد للأشياء فطرتها وحلاوتها، وقد أهدت هذه المجموعة لابنها "هشام" بعبارة مختصرة (إلى هشام ابناً وصديقاً) وقررت أن تربط مجموع هذه القصص بأمومتها وابنها.. لا أعرف أهذا عن قصد، أم بدون قصد؟!

إنها في هذه المجموعة لا تقف مع حواء طول الوقت، وإنما تقف مع آدم معظم الوقت؟! والمجموعة يصعب عرضها فهي خطاب غير مباشر لا تعرف فيه كيف نطقت بلهجات الناس ومشاعر البشر بدون خروج على اللغة العربية.

أما الكتابة النسوية أو الأنثوية فموضوعها الجنس والكتابة في النوع الأخير هي في أغلب الأحيان كتابة شخصية ذاتية لا تعبأ إلا بطازج الإحساس دون رقة التعبير وهي كتابة ذات طابع إيروتيكي، جنسي. والذي فيه نلمح الأكلاشيهات الكتابية من نوع (غرق في بحر العسل.. يلتهمها بعينيه. يدللها كقطة سيام.. بدت له كقطعة القشطة) وهناك عدة أعمال بارزة، وبعض الكاتبات العربيات محترفات لتلك الكتابة ولعل رواية سلوى النعيمي "برهان العسل" أشهرهن والغريب؛ فهي ترجمت حديثا للفرنسية بأكبر عائد مادي لكاتبة، لتسبق نوال السعداوى ونزار قبانى ؟! ووزعت بباريس ١٥ ألف نسخة، ووضع على الغلاف صورة امرأة عارية في حالة انتظار بالوضع الفرنسي "السادومى" المعروف في الجنس.. فهل الفرنسيون مهتمون بالجنس ولا يزالون؟..وترى النسوية الجديدة أن الكتابة الذاتية لا الموضوعية والكتابة عن الجنس أمران طبيعيان بالنسبة للمرأة، بل أن الكتابة عن الجنس أكثر أهمية بالنسبة لها؛ فالمرأة تقع في نقطة توتر بين طبيعة بيولوجية ثابتة ورؤية حديثة متغيرة. فالجنس هو مركز هذا المحيط النسوي ولذا فإن أسبابه ونتائجه وتأثيراته الاجتماعية والوجدانية تشكل مادة وجود المرأة فالتجربة الجنسية لأغلب النساء ليست مجرد تجربة إنها محاولة للإمساك بالكون وسواء كانت حسنة أم سيئة فإنها تفرز حتما كشفا. وهناك مدارس في النقد الأدبي تعتمد على علم النفس والتوحد بين الكاتب والمكتوب، وهناك نظرية شهيرة في (الأدب الذي تكتبه المرأة): ترى أن المرأة تكتب بأعباء جسدها

ولكن ما هي مشكلة الأدب النسائي أو أدب المرأة أو الأدب الذي تكتبه المرأة بأية تسمية؟! هناك مشكلة نقدية فالدكتورة سوسن ناجي في رسالتها التي حصلت بها على درجة الماجيستير عن دراستها للرواية النسائية في مصر (١٨٨٨ إلى ١٩٨٥) أقرت أن موضوع دراسة أدب المرأة يعتبر بكرا بالنسبة للتجربة الأدبية الحديثة، لأن النقاد والدارسين ينظرون إلى كتابات المرأة باعتبارها فناً لم ينضج بعد ولم يتبلور في آدابنا بحيث يبدو من الصعوبة بمكان دراسته أو دراسة تطوره.

وإذا كانت سوسن ناجي تعتبر أن المشكلة نقدية، فإن الكاتبة والأديبة سلوى

بكر لها رأي آخر، إنها تعتبرها مشكلة ذكورية سببها الرجل، فهي ترى المرأة المثقفة في الأدب، تبدو عادة قبيحة، عجفاء، بنظارة سميكة، وهي تذكر وصف إحسان عبد القدوس لمناضلة ماركسية في إحدى رواياته بأنها (خالية من الأنوثة ولا تنزع الشعر عن ساقيها وذراعيها)، بل أنها تذكر أيضا هذا الأديب الذي كتب في واحدة من قصصه "أحب الحركة النسائية عندما تكون في الفراش فهناك اتهام للرجل بأنه لا يهتم بشيء إلا إذا كان في فراشه!! ليبقى نفس المعنى ونفس الكلام: الرجل هو السبب تعددت الأوتار والنغم واحد سواء، لأنه لا يهتم أصلا، أو أنه لا يهتم إلا بالجميلات، أو أنه يهتم بالنساء لذاته الذكورية ولا يهتم بالنساء لذواتهن..

ويبقى الرجل حائرا يهتم بما يكتبن أو ليذهب أدب المرأة إلى الجحيم.. يقول النساء: كُتب الرجل بإباحية في كثير من أعماله ولم يتم وضع نصه الأدبي تحت المجهر ولم يخضع على سبيل المثال لما يسمى التحليل النفسي أو الأزمات الجسدية والعاطفية التي عصفت به ساعة كتابة النص الأدبي، بينما يساق النص الذي كتبه قلم أنثوي ليتمَّ تشريحه تحت أكثر من مجهر.؟! رغم أن الرجل كتب في التابوهات الثلاث: الجنس، الدين، السياسة. فلم توقف التأريخ عند المرأة وما كتبته؟ رغم أن قلم الرجل في كثير من الأحيان كتب بلغة ركيكة، سوقية، لا تحمل الكثير، إلا أن فنه الأدبي لم يفند كإسراف لغوي أو ركاكة أو خروج عن النسق العام. بل أن الكاتبات عصفن بالرجل سواء كان ناقدا متخصصا لما يكتبن أم قارىء محب لقلمهن؟ فلطيفة الزيات في مرحلة الريادة في مرحلة ستينيات القرن العشرين تقول: (رفضتُ في إصرار أن تبوب كتاباتي الإبداعية في باب الأدب النسائي، وكان هذا القول دفاعًا عن النفس في وجه محاولة مستمرة في أمتنا لتبويب الأدب الذي تكتبه المرأة في مكانة أدبية وفنية أقل من ذلك الذي يكتبه الرجل، وفي استخدام وصف الأدب النسائي كوصفٍ يضمن تحقيرًا لهذا الأدب، وتهوينًا منه وكوصفٍ يرسي محدودية الموضوعات التي يعرض لها، ومحدودية الاهتمامات الإنسانية التي يطرقها).

وكان مثل هذا التوصيف للأدب النسائي مرفوضًا من معظم الكاتبات العربيات

لكن لطيفة الزيات عَدلت لاحقًا عن هذا الرأي بعدما طالها النضوج الفكري والفني لتقر بمبدأ الاختلاف بين النمطين: قلم الرجل وقلم المرأة. ولكن هذا الاختلاف لا يعني تفضيل أحدهما على الآخر، ثم قالت: أن النقد النسوي تبين سبب آخر تكمن فيه الإشكالية هو أن القارئ يتلقى كتابات المرأة ويحكم عليها بمنظوره الذكوري؟! فتلقي أدب المرأة وفقا لذهنية الذكورية ليس تلقيًّا بريئًا أومحايدًا! إنه ينظر لأدبها على كونها سيرة ذاتية للمؤلفة؛ فالقارئ لا يتعامل مع النص بقدر تعامله مع جنس كاتبه، إنه يتلصص بالنص على الكاتبة نفسها ويعتقد بأن البطلة هي الكاتبة. ولعل هذا ما عبرت عنه الروائية "سعاد زهير" في مقدمة روايتها "اعترافات امرأة مسترجلة" التي نشرت عام ١٩٦٠ والتي صيغت بضمير المتكلم، ولعل اسم الرواية "اعترافات" قد أغرى القارئ بهذا الربط الساذج بين النص وصاحبته، تقول: "حين نشرت هذه الاعترافات، على صفحات روز اليوسف في الشتاء الماضي لم أستطع خلال الأشهر الثلاثة التي استغرقتها الحلقات، أن أمنع عشرات من الأسئلة ثارت حولي، من الذين يعرفونني والذين لا يعرفونني، بل إن هذه الأسئلة المريبة قد وصلت ببعض أفراد عائلتي إلى حد الغضب والتهديد بمقاضاتي أمام المحاكم، لوقف نشر هذه الاعترافات، حماية لاسم العائلة من أن ينسبها الناس لكاتبتها!؟ وفي البداية كنت أثور وأضطر لدخول سلسلة لا تنتهي من المناقشات لإقناعهم بالحقيقة بأن هذه القصة ليست حياتي، ليست تجربتي الشخصية..

أما الكاتبة عائشة أبو النور فهي ترى أن قضية الرجل المتلقي (القارئ والناقد) حينما يصنع بخياله المريض تطابقا بين الكاتبة وأبطال قصصها فتقول: وإذا كنت أنا نفسي وأنا أقرأ ليوسف إدريس كنت أتصوره هو البطل، فإن المراهقة الفكرية انتهت بمجرد النضوج وتعدي مرحلة المراهقة؛ فالقاصة "عائشة أبو النور" في مقدمة مجلد الأعمال الكاملة لها "اعتراف" لها تقول فيه لم تجد مشكلة أقرب لوجدانها من هذه المشكلة، هل ما تكتبه هى سيرة ذاتية أم أدب اعتراف؟ وإذا بها تفجر قنبلة دار حولها الفقه الأدبي لفترة وهو ما سميته (بالأدب الذاتي) وقالت: إنها ترفض النقد

البوليسي أو المباحثي في الأعمال الأدبية حين يتلصص الناقد أو القارئ كما تقول: "من أدبي على حياتي الشخصية افتراضا من أن كل قصة أكتبها هي تجربة شخصية لي؟!"

وهذا ما جسدته "أحلام مستغانمي" إبداعيًّا في روايتها "ذاكرة الجسد" على لسان بطلتها، تقول: "يكفي كاتبة أن تكتب قصة حب واحدة، لتتجه كل أصابع الاتهام نحوها، وليجد أكثر من محقق جنائي أكثر من دليل على أنها قصتها، أعتقد أنه لابد للنقاد أن يحسموا يومًا هذه القضية نهائيًّا فإمّا أن يعترفوا أن للمرأة خيالا يفوق خيال الرجل، وإما أن يحاكمونا جميعا."

ما تجسده: الزيات مثلها مثل مستغانمي وعائشة أبو النور وأي كاتبة عربية في كونها مارست حقها في أن تسرد قصة لها حبكتها الدرامية، ونصها الذي جعل الكثير من المتحذلقين يسقطونه على حياتها الشخصية، وهو ما دفع أحلام مستغانمي أن تقول في المعهد العربي بباريس وهى تتحدث عن تجربتها في الكتابة: "لا تبحث كثيرًا لا يوجد شيء تحت الكلمات، إن امرأة تكتب هي امرأة فوق الشبهات؛ لأنها شفافة بطبعها"

وهو الذي يندرج تحت الموروث الثقافي في العقلية العربية. "التراث بين كونه ميكانيزم نهوض وميكانيزم دفاع، ليس المبرر الوحيد لمشروعية الاشتغال به " ويجب الوقوف على حقيقة كون المرأة الشريك الإستراتيجي في أي منظومة كانت، وهو الذي يقودنا إلى العلاقة المتداخلة والمترابطة والتي لا يمكن سلخها أو فصلها وليست بمعزل عن أيّ من تكويناتها الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية لأنها بالضرورة تنعكس على المرأة وخصوصيتها وتكوينها الانفعالي ومخزونها الفكري المعرفي وربما لن يجعلها قادرة على احتواء الظروف القاهرة وإن كان فهو إلى حد ما محدود وضيق.

وجاءوا بسعاد حسني عارية ملفوفة في سجادة فيما يشبه فيلم كليوباترا.

"من منا لم يحب أغاني عبد الحليم حافظ؟! ويستوقفه هذا الشاب الرقيق الدقيق المملوء بالإحساس، الذي يغني بشجن وكأنه يتألم في رومانسية مسموعة ملحنة!..من منا لم يدندن: صافيني مرة، موعود، أسمر يا أسمراني، مداح القمر؟!.. من منا استطاع أن يقاوم البحر وفناجين الغيب المحوجة في رسالة من تحت الماء وقارئة الفنجان. إن يوسف إدريس نفسه كتب مقالاً بعنوان: قول يا عبد الحليم!!..حليم الذي كانت حياته سر.. سر في علاقته بالمرض.. وسر في علاقته بعبد الناصر وثورة يوليو.. وسر في اليتم والتواضع ولكن سره الأكبر والأعظم كان في الحب"

هكذا كتب منير عامر مذكرات عبد الحليم حافظ، وهى مذكرات حكاها حليم في ١٧ شريط تسجيل، وكتبها عامر بعنوان (نساء في حياة عبد الحليم)، ولذا لم يكن غريبا في فيلم "زوجة رجل مهم" أن يؤرخ المخرج للرومانسية المصرية بأغاني عبد الحليم، وأتذكر أن أول حب صادفني وأنا بالمريلة في السنة الخامسة في مدرسة الإنجيلية الابتدائية المشتركة دفعته بأغنية لحليم تقول: "والشعر الحرير على الخدود يهفهف ويرجع يطير" فلم يكن عبد الحليم يغني وإنما كان يحكي قصة حب.. في كل أغنية من أغانيه حكاية لكيبوبيد. فلقد أحب زوجة سفير من أسرة كبيرة وكان لها أولاد ولاقى في ذلك عتابا، فغنى "بتلوموني ليه"، رآها بمصعد عمارة بالإسكندرية فقال لها: أنت من أنتظرك؟! ولكن كيف تتزوج بنت الأكابر من مطرب؟! كيف تطلق ابنة سفير من زوجها السفير لتتزوج مغنواتي؟! لو حدث ذلك فأنت لست بنتنا ولا نعرفك ولا نقبل أن تدخلي بيت الأسرة ولن نسمح لك أن تري أولادك بعد الطلاق" ولكن الجميلة تتصدى لكل الدنيا من أجل المغنواتي!! وكانت سنوات ١٩٥٦، ١٩٥٧، ١٩٥٩ من أجمل سنوات حياة عبد الحليم، وانتصرت الحلوة وحصلت

على الطلاق من زوجها وتنازلت عن كل حقوقها وبدأ عبد الحليم يستعد للزواج منها، وفجأة على طريقة الأفلام العربي تسقط الفتاة مريضة بمرض سرطان الدم وتضع بذرة أغنية سيغنيها عبد الحليم في السبعينات، هي "موعود" فقلبه موعود بالعذاب!! ولم تكن هذه صدمة حليم الأولى مع "بنات الذوات" فلقد سبق وطرده والد فتاة أرستقراطية لجرأته في طلب يد ابنته!!

ولكن حليم المجروح في الحب، غنى للحب "أول مرة"، "جبار"، "في يوم في شهر في سنة" وكما أبعد المرض الحبيبة مشروع الزواج الأول في حياة حليم، أبعد المرض بعد ذلك نفس المشروع عن كل الحلوات، فحليم عنده مرض لا يتزوج معه إلا الفن،

أما الحب الذي رصده كل الكتّاب فهو حب بدأ من فيلم "البنات والصيف" للنجمة السينمائية سعاد حسني التي قامت في الفيلم بدور أخته.. وكلمة أخت عند الفراعنة تعني "الحبيبة"! يقول أشرف غريب في كتابه "السندريلا والعندليب":"رئيس جهاز الاستخبارات المصرية في الستينيات صلاح نصر حاول الاستفادة من تلك العلاقة السرية الخاصة التي جمعت حليم وسعاد في توجيه ضربات موجعة للمطرب الراحل لكراهيته له بسبب قرب عبد الحليم من الرئيس عبد الناصر ونائبه عبد الحكيم عامر.. وذهب الكاتب إلى القول بأن محاولة تجنيد سعاد حسني للعمل مع جهاز المخابرات في ذلك الوقت كانت حلقة في هذه الحرب الخفية بين عبد الحليم وصلاح نصر."

ويتضمن الكتاب "تفاصيل هذه الحرب وحقيقة اختطاف الرجل القوي لكل من النجمين الشهيرين، والخدعة التي أنقذتهما في تلك الليلة المثيرة واللحظة التي طلب فيها عبد الحليم حماية الرئيس عبد الناصر له ولسعاد من ملاحقات صلاح نصر.

ويقول في "كتابه كتب عن هذا الحب: مصطفى أمين ومحمود عوض وجليل البنداري ومفيد فوزي. كان السؤال من الذي أحب الآخر؟! وهل تزوجا؟! ومن هجر؟ ومن فجر؟!

فمصطفى أمين في كتابه "شخصيات لا تنسى" يقول: في أوائل الستينات أحب عبد الحليم نجمة سينمائية شابة، وأحبته حبًا جارفًا مجنونًا، وفي سنة ١٩٦٢ أصيب بنزيف حاد وهو يقيم في شقته في عمارة السعوديين بالجيزة وكنت أزوره كل يوم مرتين في شقته، وفي كل مرة ألاحظ عند دخولي إلى غرفة نومه حركة وجلبة، وامرأة تختفي في الغرفة المجاورة، وظننت في أول الأمر أنها أخته (علية) أو زوجة أخيه (فردوس)، وفي إحدى المرات لمحتها وعرفت أنها النجمة السينمائية المشهورة (س.ح)، ولم أقل شيئًا لعبد الحليم!! ولكن حليم قال لي بعد ذلك أنها ترفض أن تترك فراشه وأنها تنام تحت قدميه على الأرض لتخدمه أثناء مرضه وأنها تحبه وتريد أن تتزوجه، وسألته هل يحبها؟ فقال: نعم، ولكنه لم يقرر أن يتزوجها أو لا يتزوجها!!

أما كامل الشناوي، فما أن سمع بإشاعة الحب بين المطرب والممثلة حتى قال له: علمت يا حليم أنك تحب فلانة النجمة السينمائية، ولو سألت عنها في البيت الآن لوجدت عندها كاتبًا صحفيًا معروفًا، وأمسك بالتليفون ليطلب النجمة السينمائية المشهورة، ولكن عبد الحليم (رفض)!! وبعدها سمع حليم إشاعات كثيرة عن النجمة السينمائية، وأضاف له كامل الشناوي عبارة "اكفي الزبدية على فمها البنت تطلع لأختها"، فقد كان كامل الشناوي موتور من حب مستحيل مع أختها نجاة الصغيرة.

وطلب حليم من الراحل مرسي جميل عزيز أن يترجم إحساسه وغضبه وتوتره مما يسمع وجاءت أغنيه "تخونوه"!! وبعدها وبذكاء عبد الحليم المشهور لم يعلن عن حبه، كتم كل شيء، أو قرر أن يكون كل شيء سرا!!

وقرر كامل الشناوي أن يجعله يعترف، وجمع كلا من: عبد الرحمن الخميسي "مكتشف سعاد حسني"، ومحمد السيد شوشة، والأستاذ جليل البنداري، واستطاع بذكاء أن يحصل من حليم على أحاديث صحفية حاول من خلالها الإيحاء بأن سعاد حسني هي التي تطارده للزواج منه!!

ورغم أن البنداري أكد بأن سعاد حسني هي التي رفضته حينما عرض عليها

الزواج في رحلة إلى أوروبا ذهبا فيها معًا!! إلا أن سعاد حسني لم تكذب أي شيء مما نشره (كامل الشناوي) عن تهافتها على عبد الحليم!! بل أن سعاد حسني بعد أسبوع من نشر ما قاله عبد الحليم تزوجت المصور السينمائي "صلاح كريم"!!

وفجأة انطلق المحاور الموهوب الحاوي مفيد فوزي بعد كامل الشناوي بثلاثين سنة ليفعل نفس الشيء مع سعاد حسني، فتح صفحات مجلة صباح الخير لحوار طويل لها سنة ١٩٩٣ كان الحوار بينهما في لندن واستطاع أن يستفز حيوان اللؤلؤ للخارج.. فباحت سعاد واعترفت..خرج الخبر من المحارة الداخلية للسندريللا وجاء الاعتراف القنبلة في العدد رقم ١٩٤١، وبالتحديد في ليلة القدر برمضان سنة ١٤١٣ هـ فلقد دعا مفيد في هذه الليلة المقدسة أن تبوح سعاد حسني.

وقالت سعاد: لقد تزوجت عبد الحليم، واستمر زواجي به ٦ سنوات وأنها حبه الأول، أما تفاصيل هذا الخبر فبدأت بهذه الأسئلة:

مفيد: أجيبي عن سؤال عن (حليم)

سعاد: (بخبث لذيذ).. لماذا قلت حليم ولم تقل عبد الحليم حافظ؟

مفيد: (بجرأة): أنا أختار الاسم الذي يروق لك أن تناديه به.

سعاد: حليم كان حضورًا ساطعًا طاغيًا. وكنت أيضًا تعرف ذلك.

مفيد: كنت أتمنى أن يجمعكما بيت واحد، لا فيلم واحد.

سعاد: (بهدوء).. حصل!. زواج عرفي استمر ٦ سنوات.

تحققت نبوءة القسيس الفرنسي الذي قال لحليم

"عمرك قصير.. لكنك ستتزوج امرأة يهواها كل من يراها"..

نعم كان يجب أن يلتقي اليتيم العليل بالجميلة المحرومة من الحنان.. كان لقاء الصوت الحلو، بالعفوية الحلوة.. شيء لا بد منه.. المطرب والممثلة.. اليتيم والحلوة.. المتناقضات تتكامل..

ومن المعروف أن رحلة جمعت بينهما في المغرب، وصنعت نهاية للحب أو الزواج وكانت تدور حول رغبات حليم في أن تترك سعاد حسني الفن وتتفرغ له!! سألها حليم: هل فكرت؟

ردت في ثقة: أنت كنت بتتكلم جد.. أسيب فني إزاي.. ومين اللي يقول كده.. فنان كبير زيك!!

يذبل وجه العندليب.. يرد هو الآخر بانفعال واضح:"إذن لن نتزوج!!" وتشعر سعاد بأن كبرياءها طعن وتهمس له: "أنا لم أطلب منك أن تتزوجني!!".. وتترك المغرب وتسافر إلى مدريد.

ويقول حليم: رفضت اعتزال الفن وأنا لن أطيق أن أرى زوجتي يحلم بها المعجبون!! ليتني كنت متحررًا أكثر!!

وتقول سعاد للصحفي عمر السيد شوشة: علاقتي بعبد الحليم حافظ أعطتها الشائعات أكثر من حجمها!!

وإذا كان إعلان سعاد حسني لزواجها من حليم لمفيد فوزي جعل أخته (علية) تتحدى وتتهمها بالكذب، فإن الأستاذ "عبد النور خليل" ينضم إلى أخت حليم (علية) في كتابه الذي عنوانه "أسرار لم تكن للنشر" ليوضح أنه في ربيع سنة ١٩٦٨ علم عبد الحليم حافظ من المنتج رمسيس نجيب بما قتل حبه لسعاد حسني، ولا يمكن أن يكون تزوجها بعد هذا الخبر وهو التاريخ الذي حددته سعاد باعترافها!!

ثم أنه بعد هذا الخبر لم يكن أحد ليلوم عبد الحليم على شيء. لقد أخبره رمسيس نجيب بأن سعاد حسني ممنوعة من السفر وبالتالي فلن تستكمل معه فيلم (أفراح) الذي سيسافر ويصور معظمه في لبنان، وحينما قرر حليم أن يتدخل نصحه رمسيس نجيب ألا يفعل لأنها متهمة في قضية خاصة بالمخابرات العامة "عرفت بعد ذلك بقضية صلاح نصر" وعرف حليم بأن عبد الناصر يشرف على التحقيق بنفسه فتراجع حليم أمام القضية، ففي عام ١٩٦٣تقرر تشغيل الفتيات في المخابرات اتخذ

صلاح نصر هذا القرار بعد أن وجد كل أجهزة المخابرات في العالم تستخدمهن في عملها تحت وهم أنه معروف نفسيا أن الرجل يفقد توازنه وهو مع المرأة بل وقد ينسى نفسه ويتفوه بأحاديث سرية..كان هذا مبرر استعمال سلاح الأنوثة في مصر.

وقد اعترف صلاح نصر بأنهم استعملوا ١٠٠ فتاة وأنهم كانوا يلجأون لتصويرهن من باب السيطرة وخوفا من تقلب عواطفهن. ويعترف "ابن صلاح نصر" بأنه كان هناك قسم في جهاز المخابرات يسمى قسم السيطرة, يستخدم سيدات متطوعات للإيقاع بالجواسيس مثل أي جهاز مخابرات في العالم, وكانت هؤلاء النساء يأتين برغبتهن. لكن المشكلة أن الفترة التي تلت نكسة ١٩٦٧كانوا يتصيدون فيها أي أخطاء لجهاز المخابرات الذي أدى دوره كاملا في الحرب, والذي كان بشهادة عبد الناصر نفسه من أقوى أجهزة المخابرات في هذه الفترة, وتم تكريم والدي وقتها بحصوله على قلادة النيل وهي أرفع وأعلى وسام مصري عام ١٩٦٦ عن الدور الذي كان يقوم به،

ولعل إحدى المقولات المهمة لصلاح نصر: إن مشكلتي الحقيقية أنني أنشأت جهازا متطورا جدا وعلى أرقى أسلوب في دولة من دول العالم الثالث؟! كان هناك طلب من الرئيس عبد الناصر بتكثيف العمل الداخلي إلى جانب الأعمال والمهام الخارجية في جهاز المخابرات لأنها كانت الفترة التي أعقبت الانفصال المصري – السوري وكان الرئيس عبد الناصر يحس بالخطر ويحس بأن هناك انقلابات عسكرية وشيكة, وتم بالفعل اكتشاف بعض الخلايا النشطة داخل القوات المسلحة وكان هناك تحرك من الإذاعات الخارجية ضد الرئيس عبد الناصر وبعض الدول والأنظمة العربية التي كانت تدبر مؤامرات وتدعي صداقة مع الرئيس عبدالناصر؛ فتمت الاستعانة بالنساء؛ وكأنهن سلاحنا النووي السري المكتشف.

وحول مدى صحة تجنيد سعاد حسني في جهاز المخابرات العامة من قبل والده قال: "وتم رسم الخطة عن طريق إحدى مندوبات قسم المندوبين تدعى (ريري) وهي راقصة سابقة. وقالت (ريري) أن الممثلة (ل. ح) هي التي تستطيع أن تحضر

السندريللا لعمل كنترول لها، وأنه من الممكن أن يتم استدراج السندريللا مقابل مبلغ وقدره ٣٠٠ جنيها!!..وتظاهر مترجم اللغة الفرنسية بأنه فرنسي، وتمت المقابلة بينه وبين السندريللا، واصطحبها إلى شقة مصر الجديدة التي كان يطلق عليها البيت الأمين.. وأجريت لها عملية الكنترول.. وفي هذه الأثناء أصدر صلاح نصر باقتحام غرفة النوم وضبط السندريللا.. وفي مبنى الاستجواب أفهموها أن الشخص الذي كان معها ما هو إلا جاسوس فرنسي، ووعدوها بأنهم لن يبلغوا عنها شرطة الآداب في مقابل أن تعمل لحسابهم في المخابرات؛ فهو يؤكد أن سعاد حسني تم تجنيدها في جهاز المخابرات بالفعل وكان والده يرى أنها «عميلة مخابرات خايبة» وأنها لم تكن تؤدي المهام التي أوكلت إليها بكفاءة لأنها كانت تهتم بحياتها الشخصية ورغباتها أكثرمن المهام الموكلة إليها!! فقد صدرت الأوامر فجأة بعمل كنترول للسندريللا، وكان لا بد للأمر أن ينفذ دون مناقشة..

وحينما أدرك حليم بأن الوقائع تتعلق به شخصيًا قطع كل ما بينهما وقرر أن يدفن حبه للأبد.كان هذا اليوم هو مولد نجمة جديدة هي (فاطمة الزهراء) الشهيرة بنجلاء فتحي، حيث قامت بالدور في الفيلم مع ثلاثي أضواء المسرح والممثل حسن يوسف، ولكن سعاد حسني كانت تتلصص على أخباره، مثلما يتلصص على أخبارها.. الحب نستطيع أن نقاومه ولكنه أيضًا يفعل أثره!!

كلما أصاب حليم نزيف سارعت سعاد حسني إلى بلدتها طنطا، وركعت أمام ضريح السيد البدوي تدعو الله له بالشفاء، ودموعها تنهمر أمام الضريح ولا تتخيل أن يخطفه الموت منها. لقد ضاع الحب الكبير بين عناد الحبيب وكرامة المحبوبة.. لكن الموت بشع، وانهزم الجميع أمام الموت!!

إن نظام المخابرات حكم على عبد الحليم بالنزيف حينما اتصل به رئيس بلاط الترفيه عن عبد الحكيم عامر وقال له: "ابتعد عن فلانة لأن أخلاقها مش ولا بد، إنها تصطاد الرجال من الشارع" وحينما استفسر حليم منها قالت: أظن أجهزة الدولة عندها حاجات أهم من أودة نومي

وجاءوا له بها ملفوفة في سجادة لتخرج منها عارية كتمثال من الشمع فيما يشبه مشهد "إليزابيث تايلور" في فيلم كليوباترا، حينما قررت أن تدخل لقيصر فقدم أتباعها سجادة هدية لقيصر وحين فردها خرجت كيلوباترا حورية عارية تتنهد: "هيت لك؟! وهئت لك؟" وأعجب المشهد الزبانية وأعادوا إخراجه.. وخرجت سعاد في عين حليم من سجادة أرسلها رئيس بلاط الترفيه عن المشير عامر لحليم هدية؟! وقتها كانت الشوارع مخنوقة بالدموع.. وكان حليم يتوقع النزيف في ذلك اليوم!!..

ونزف دمعا ودما..

في أوكار الذئب الفكري للرجل الشرقي ذهبت مى للعصفورية؟!

(الحب يفسد الجنس. الجنس يفسد الحب. الطريق الذي نعتقد أنه سليماً في العلاقات الإنسانية ليس سليماً فلا يوجد حب بلا جنس؟! ولكن السماء مع الحب ضد الجنس والشيطان مع الجنس ضد الحب هكذا تقول كل الأديان، والأساطير، والفلسفات، وحكاية مدينة (سودوم) ومدينة عمورية حيث خسف الله بالمدينتين كما جاء في التوراة بسبب انحلال أهلها من قوم لوط وقصة التفاحة وحواء وآدم وحكاية الملك أوريا، ورواية يوسف الصديق وزليخة. كيف كلها تقول ذلك نفس المعنى ولا تجد في الأديان قصة لزواج سعيد، لا في التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن!! لا قصة كاملة بالتفصيل إلا قصة النبي إبراهيم وزوجته سارة وعبدتها هاجر فماذا فعل بهما، وكيف كانت وهل هى سعيدة حقا!!)

هكذا تحدثت معى الصديق الكاتب"محمود قاسم" وأنا في بيته بمدينة نصر.. أهديه أول رواية لي رواية "مملكة الجنة"، وأفهمني أن ما قاله هو فلسفة أو جزء من فلسفة الشاعر جبران خليل جبران أشهر وأغرب شعراء المهجر من اللبنانيين أو الشوام. والذي قال في الحب:

والحب إن قادت الأجسام موكبه ... وإلى فراش من اللذات ينتحر

والحب في الروم لا في الجسم لفرقة ... كالخمر للوحي ولا للسكر تنعصر

فقد عاش جبران ثمانية وأربعين سنة من (١٨٨٣ – ١٩٣١) وكان متأثراً حتى سنة ١٩١٢ بأدب القصة وكتب: "عرائس الروح"، و"الأرواح المتمردة"، و"الأجنحة المتكسرة" متأثراً بالتوراة والروحانية المسيحية وإيمانه بالروحانيات بل التناسخ في الأرواح ويظهر ذلك من عناوين كتبه يسوع ابن الإنسان –النبي– حديقة النبي–

آلهة الأرض.

وسألته : هل تكتب الآن عن جبران؟

قال: لا.. بل أكتب عن مي زيادة، فهي حب جبران، وجبران حب مي.. تتصور أنهما لم يريا بعضهما؟! وكل مابينهما ٤١ رسالة وعند البعض ٥٢ رسالة فقط!!

قلت: ولماذا لم يتزوجا؟

قال: ياعم ما احنا تزوجنا عملنا إيه بالزواج، هما عملا خلود. فحينما يأتي الحديث عن الزواج، لا يكون هناك كلام عن الحب (لا هيت، ولا هيت، ولا هئت) وإنما عن النسل. وتكون المشكلة هي هذا النسل –كانت مشكلة عند سارة وعند زكريا ولا يزال دعاء العاقرات هو دعاء زكريا: "ربي لا تذرني فردا".. والمسيحية لا ترفض الزواج ولكنها لا تعتبره الطريقة المثلى في الحياة عين في الجنة على تسامي الروح وعين في النار خوفا من اشتعال الجنس في الجسد.

ولكن محمود قاسم اكتشف مقالة صادمة للناقد أنور المعداوي نشرت من ٦٥ سنة من قبل سماها المعداوي «مشكلة العلاقة بين مي وجبران» حكم فيها أنور المعداوي حكمًا باترًا قاطعًا باتًا حاسمًا جارحًا فظًا عليها بأنها امرأة ذات طبيعة مغلفة بالانحراف، ملفعة بالشذوذ، وكان الوحيد الذي طعنها في أنوثتها متهما إياها بتهمة لم يسبقه إليها أحد:"الشذوذ الجنسي"!! ودلل على ذلك أن (المرأة الطبيعية هي التي يستيقظ في أعماقها الشعور بالرجل، سواء أكانت هذه اليقظة في صورة حب مضطرم أم كانت في صورة عاطفة جياشة أو حس مشبوب، أما المرأة الشاذة فهي تلك التي تنام في أعماقها مثل هذه اليقظة التي تلهب دون أن تحس بين جنبيها بالنار. والتي تثير ولا تثار.. فـ "مي" في حقيقتها التي لا تتذوق طعم الحب، لأنها فقدت شهية الأنوثة)

ويدعي أنور المعداوي أنه توصل إلى هذه الحقيقة الباترة وذلك اليقين الساطع

من تتبع حياتها النفسية وهي بين الرجال في صالونها الأدبي "أيام الثلاثاء"؟! وذكر بعضهم مثل (ولي الدين يكن، ومصطفى صادق الرافعي، وجبران خليل جبران الذي لم تره ولم يرها إطلاقًا، وعباس محمود العقاد! وفي اختيارات «المعداوي» يلجأ إلى ضرب الأمثلة بنماذج يتصور أنه يتمكن من خلالها إثبات وجهة نظره، فمن خلال أسلوب متعسف في الاستقراء يقول "المعداوي": "لقد شغف بها بعضهم ذلك الشغف الذي يذهب بالكرامة ويعصف بالوقار» مستشهدًا برسالة الشاعر «ولي الدين يكن» الذي يكتب إليها: «عندي قبلة هي أجمل زهرة في ربيع الأمل أضعها تحت قدميك.. إن تقبليها تزيدي كرمًا وإن ترديها فقصارى ما أفعله هو الامتثال. إني في انتظار بشائر رضاك وطاعة لك وإخلاص»..

وهكذا نشر محمود قاسم وثيقة المعداوي المختلف عليها منذ ٧٠ سنة بجورنال اليوم السابع – وترك كتابه عن مي– إنه يجري وراء المعداوي، يعيد البحث والتقصي.

وسألته: هل ستكتب عن مي زيادة؟

قال: لا.. أنا مهتم بالمعداوي، يكتب عن مي زيادة وهو مفضوح مع شاعرة الجبل" فدوى طوقان"

قلت: كيف؟

قال: له ٦٠ رسالة مع الشاعرة الفلسطينية، وبنفس طريقة كبار الزمان مع مي زيادة، الخلط بين الحب والأدب

وهكذا نشرت الصحفية الكبيرة "نوال مصطفى" كتابها "مي أسطورة الحب والنبوغ" بعد سنة من حواري مع قاسم وأهدتني نسخة منه، بمناسبة استضافتي في برنامج "هي" وكانت المعدة له، للكلام عن كتابي: (العالم السري للنساء– جرائم المرأة)

قالت: أنت تكتب عن جرائم المرأة.. أما أنا فأكتب عن عبقرية المرأة.

قلت: أعتقد أن مي أصابها مرض صالونها، فللصالونات الأدبية أمراض هي لعنة المرأة الحرة الصريحة التي لا يمكن أن يفهمها أحد، لقد كانت في حوار مع الجميع؛ فهي امرأة للكل وليست امرأة لأحد؟! فمي زيادة فتاة شديدة الحساسية ومضطربة ومتناقضة وتعشق التعبيرات الجميلة فتصيب وتخيب.

وقالت: إنها إرهاصة أنثوية هي مي زيادة (*) تلك الأديبة الكبيرة التي تركت بصماتها على الحياة الفكرية في مصر وتأثر بها أدباء عصرها وكان صالونها الأدبي أشهر صالون وكان يحج إليه العديد من كبار الكتاب وقتها (فلا تنظر لها نظرتك البوليسية التي كتبت بها كتابك. لا تكن كالمعداوي)

وعرفت أنها قررت أن ترد على المعداوي، وترد لمي كرامتها، ستقف محامية تستأنف ضد المعداوي، وتهدم وكر ذئب الرجل الشرقي الفكري؟ وكتبت وهى المعجبة بالاسطورة مي زيادة التي تجيد ٩ لغات؟!

والذي يدرس حياة هذه الأديبة الكبيرة يعرف أثر طفولتها على حياتها فقد ولدت في الناصرة بفلسطين وأدخلها والدها مدرسة الراهبات في لبنان وهناك كانت تشعر بأنها وحيدة غريبة وسط جدران صماء بكماء وكانت قراءة الأدب العالمية تحملها إلى أعماق أعماقها، وزادت من هذه الوحدة وفاة شقيقها الوحيد، فشعرت بحزن عميق في نفسها، عبرت عنه بقولها عندما امتدت بها الأيام في إحدى ترجماتها لأحد كتب (ماكس مولر) كتبت "إلى العينين التي أطبقهما الموت قبل أن ألثمهما. إلى الابتسامة التي لا أعرف منها إلا خيالا.. إلى الاسم العذب الذي لا تهمس به شفتاي دون أن تملأ عيني الدموع، إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه، ويتم في عاطفة الحب الأخوي فحرمني من حذو الأخ وقبلته وابتسامته ودمعته إلى أخي الوحيد الذي

(*) هي الأديبة الشهيرة (مي) والتي يمر على ميلادها مائة عام ونيف. تركت (١٢) كتابا مؤلفاً ومترجماً بالإضافة إلى عدد آخر من الكتب لا تزال مخطوطة، وعشرات المقالات في الصحف والمجلات لم تمتد لها يد البحث والتنقيب لنجمع في كتاب وكانت تجيد ثلاث لغات غير العربية هي الفرنسية والإنجليزية والألمانية ولذا فقد ترجمت عن الفرنسية (رواية "رجوع الموجة" وعن الألمانية رواية "غرام ألماني" وعن الإنجليزية رواية "عذاب الحب").

تقاسمه الأثير والثرى"

هذه النفس التي تألبت عليها وحشة الوحدة، وآلام فراق الأخ الوحيد، أضافت الأيام إلى هذين البعدين بعداً ثالثاً وهو الغربة التي شعرت بها عندما جاءت مع والدها إلى مصر!

ولذا لم يكن عجيباً أن يكون (جبران خليل جبران) هو حب مي زيادة رغم كل من أحاطوا بها وأحبوها أو حاولوا ذلك كان بينه وبينها حب غريب عمره كله[٢] إحدى وأربعون رسالة بينهما ولأن كل منهما كان يعرف ويدرك ماهية الآخر تماماً ويظهر ذلك في القضية الفكرية والاجتماعية والأدبية التي كانت بينهما، وقد لعبت مي في حياة جبران عن طريق الرسائل بعده أشياء جعلته يسترد جنسيته اللبنانية ويسعى لذلك بدأب بعد أن كان هاجر إلى بوسطن سنة ١٨٩٤ وحصل على الجنسية الأمريكية، فقد كانت تحلم بأن تتزوج حبيباً لبنانيا!! وجعلته ينقلب على حبه للروح إلى إيمانه بالحب المتكامل للحبيبة الروح والجسد ولكنه كان عذرياً حتى في المراحل التالية في شعره، كما ساعدته أن يخرج من شرنقة الشرق وبخاصة تأثره بالتوراة إلى الأفكار الغربية واستقر عند نيتشه أرسل إليها مثلاً خطاباً طويلاً يبثها أشواقه وأحلامه وآماله ويقول فيه

"أنا ضباب يا (مي).. أنا ضباب يغمر الأشياء ولكنه لا يتحد وإياها.. أنا ضباب لم ينعقد قطرا.. أنا ضباب وفي الضباب وحدتي، وفيه هو انفرادي ووحشتي, وفيه جوعي وعطشي، ومصيبتي هل الضباب وهو حقيقتي يشتاق إلى لقاء ضباب آخر في الفضاء، ويشوق إلى استماع قائل يقول:"لست وحدك، نحن اثنان، أنا أعرف من أنت؟"

---

[٢] تركت (مي) مئات الرسائل التي تبادلتها مع رموز عصرها ومنها رسائل (للعقاد) ورسائل (لأنطون الجميل) ورسائل (ليعقوب صروف) ورسائل (لأمين الريحاني) ورسائل (لأحمد لطفي السيد)، ولكن أكبركم من الرسائل كان لجبران خليل جبران (٤١ رسالة)، وفي عام ١٩٧١ نشر عامر العقاد بعض رسائل مي والعقاد وقال في فصل عنهما: لو جمعت الرسائل التي كتبتها مي أو كتبت إليها لكانت بضع مجلدات!!.

"أخبريني يا (مي): أفي ربوعكم من يقدر ويريد أن يقول لي: أنا ضباب آخر أيها الضباب، فتعال نخيم على الجبال، وفي الأودية، تعال نسير بين الأشجار وفوقها.. تعال نغمر الصخور المتعالية، تعال ندخل معاً إلى قلوب المخلوقات وخلاياها، تعال نطوف في تلك الأماكن المنيعة غير المعروفة.

قولي يا مي: أيوجد في ربوعكم من يريد ويقدر أن يقول لي ولو كلمة واحدة من هذه الكلمات!!..

وتقرأ (مي) هذا الخطاب، وتهتز أعماقها بـ (جبران) الإنسان الذي سوف يحملها على جواد أبيض نحو تحقيق أحلامها. وكتبت إليه:

"عزيزي جبران: أريد أن تساعدني وتحميني وتبعد عني الأذى ليس بالروح فقط، بل بالجسد أيضا، أنت الغريب الذي كنت لي – بداهة وعلى الرغم منك – أبا وأخا ورفيقاً وصديقا ً، وكنت لك أنا الغريبة – بداهة وعلى الرغم مني – أماً وأختاً ورفيقة وصديقة.

وتهيم "نوال مصطفى" بهذا الحب الأفلاطوني الأدبي الرفيع بين مي وجبران، فلا أحد رأى أحدا ولا سمع أحدا.. إنه حب ورقي سامٍ، وبالتالي تعجبت لعبارة (الجسد) في هذه الرسالة هزتها، فهل أيقظتها من حلمٍ جميل؟ تنبهت أن في صالون مي ٣٠ فحلا في الأدب والسياسة والشعر والثقافة. وأن "مي" كانت تريد أن تحيا وتتذوق فنون الأدب الرفيع وطلب منها الزواج كثير من فطاحل الأدب (ولي الدين يكن، وشلبي شميل) وعرض عليها الغرام الحر بعضهم.. ودخلت في علاقة ممتدة مع العقاد ولكنها كانت فيلسوفة الصداقة بينهم جميعا. وتعلن نوال مصطفى أنها لم تفهم معنى الجسد في رسالة مي، أما قلب مي فقد هام بعيدا عند الشاعر الذي تتبادل معه الرسائل، فكيف فعلتها وكتبتها وفي رسالة إلى شاعرها جبران "ذكرته بالجسد"؟!

وتفسر نوال مصطفى ذلك بأنه الحب؟! بل الحب العذري؟! بل الرومانسية أو الأفلاطونية. إنها أسطورة مي زيادة !! بل إنه من المعروف أنها فسخت الخطوبة من

شاب ثري، لأنها قالت عبارة: أختار شريك حياتي كما يهوى القلب، والعقل لا كما تهوى المصلحة !! وتنتبه نوال مصطفى فجأة فتقول: ولكن العقاد كتب عنها في روايته أو قصته (سارة) أنها "هند" وادعى أنها كانت تهتم أكثر به وتحرص عليه أكثر ولكنه كان يكرر كانت (سارة الجسد، وكانت هند "مي" الروح)؟!

إن المرحوم (حسن أحمد حسن) المدرس بكلية الفنون الجميلة رسم مي زيادة فجعلها تنام على الأقلام، على أسنة الأقلام كفقراء الهنود حينما ينامون على المسامير أي جعل الجميع مشتركين في تعذيبها، ولكن الأدباء يتحدثون، أما الفضلاء فيصمدون. فلقد وجدنا جملة رسائل بين مي والأدباء في عصرها: عباس العقاد، أحمد لطفي السيد، أنطوان بك الجميل، الشيخ مصطفى عبد الرازق، جبران خليل جبران، ولي الدين يكن، أمين الريحاني..

وفي عام ١٩٧١ نشر عامر العقاد بعض رسائل مي والعقاد وقال في فصل عنها لو جمعت الرسائل التي كتبتها مي أو كتبت لها لكانت بضع مجلدات!! فالعقاد له مقال جميل عنوانه (رجال حول مي) يصف فيه أثر مي زيادة وصالونها على زوارها.. هذا المقال يبرز من خلال دقة الملاحظة ما كان عليه هؤلاء المترددون على صالون الأديبة (مي) فلكل منهم أسلوبه في تعبيره "لطفي السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف، وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت الخجول، كأنه الصبى في مجلس الفتيات القريبات، وشلبي شميل وأسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور.وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالون مي أشهر صالونات البيوت، ومصطفى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة الذي يغني الاطلاع عليها عن السماع، وإسماعيل صبري عبد الله وأسلوب الشاعر الذي يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتلميح، وهو الذي كان يكتب الأبيات قبل يوم الزيارة مستئذناً في الحضور.

إن لم أمتـــع بمـــي ناظـــري غـــداً   لا كـــان صـــبحك يا يـــوم الـــثلاثاء

ولأنيس منصور في كتابه (في صالون العقاد كان لنا أيام) هذه العبارة القاسية: هل كانت مي زيادة غانية تتحدث في الأدب – أو أديبة تعرف الفجور– إنها لا هذا ولا ذاك.. وإنما أوقعتها الأقدار في أوكار الذئب الفكري للرجل الشرقي. لقد حاول أن يجرب معها الجميع!!

ولكن الغريب أن هذه العقلية المختلفة المتمردة أصابها الجنون وكانت ترى في أخريات حياتها تهذي

ولطاهر الطناحي كتاب "أطياف من حياة مي" عن أخريات أيامها وضياعها جسداً وعقلاً ، فهل فعل ذلك فيها صالونها؟.. هل هي لعنة المرأة الحرة الصريحة التي لا يمكن أن يفهمها أحد، لقد كانت في حوار مع الجميع؛ فهي امرأة للكل وليست امرأة لأحد، ولا حتى لنفسها.. إنها تخرج مع العقاد وتراسله وتراه ولكنها لا تحبه وتحب جبران وتعيش معه على الورق الأبيض ولكنها لا تراه ولا تلمسه ولا تسافر إليه؟!

وترتجف نوال مصطفى من المكتوب في المراجع عن مي، وتنقضه وتنقده فهل غازلها طه حسين؟ والعقاد لماذا كتب عنها قصائد؟ ومصطفى صادق الرافعي سود لها كتب: "السحاب الأحمر" و"طرق الورد" و"رسائل الأحزان"، وكلها "رسائل" بكل ألوان الطيف وكل درجات الحرارة، وقبلتها ولم تعترض؟

ولم يفعل ذلك جبران لم يكتب قصيدة اسمها (مي زيادة) مع أنه كتب عن ابن سينا والغزالي؟! فمي زيادة ولدت سنة **١٨٧٦** وماتت سنة **١٩٤١** أي عن عمر يبلغ **٦٥** سنة أي أنها عاشت بعد موت جبران عشرة سنوات ثم أنها علمت بتعلقه بأكثر من شاعره وأديبة في المهجر قبل موته بخمسة سنوات أخرى. فهل بقي حبها؟ هل جبران هو الذي جننها أم صالونها الأدبي؟.. ويتضح أن **٢٥** من فطاحل صالونها هجروها وهجروا صالونها بعد خروجها من مستشفى المجانين بالشام "العصفورية": العقاد وطه حسين منهم.

وتنقل نوال عن أنيس منصور: ففي كتابه الموسوعي في (صالون العقاد كان لنا أيام) يفلسف الأمر ويرى أن مي ليست أديبة كبيرة، ولا هي مفكرة وإنما كان صالونها ضوءً في سماء مصر وكانت شخصيتها أشبه بملكات النحل حام حولها الفراش الفكري وجرى إليها دبابير الأدب والفن ولكنها لم تكن قوية كملكات النحل لتختار أقوى الذكور ولكنها اختارت أبعدهم عنها ولم تكن ضوءًا لإحراق الفراش فأحمد الفراش الضوء أحبت شاعراً غريباً مثلها، مريضاً مثلها، هو جبران خليل جبران، كانت تسأله أن يعد لها دقات قلبه وعدد سجائره.. أما أدباء مصر ومفكروها فكانت تتحدث إليهم وتجاملهم وتسلط عليهم غريزة المرأة ويذهب كل واحد إلى بيته ليبعث لها رسالة خاصة شديدة الحذر يكتب فيها أدبه وليس حبه يكتب فيها ما لم يقل وما لم تقل.

وتقول نوال مصطفى: صدقت أستاذ أنيس، ولكن مي أديبة كبيرة ولها ترجمات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية، وترصد مؤلفات لها وصلت ل١٤مصنف. وترصد ما قالته هدى شعراوى عنها "بأنها جميلة غير الجمال المعهود، وبها حيوية، وعيونها تلمع، وكانت في الاتحاد النسائي، وأنها فجرت مع هدى شعراوي قضية المرأة"

ولكن هكذا رأى أنيس منصور غرام الكبار في صالون مي: "إنها أقرب إلى التي غرقت في حوض من الشامبانيا، الكل فتحوا الزجاجات فصبوها على رأسها وليس في حلقها، ثم وضعوها بالقرب من النار.. ولما ماتت استراح الجميع، لأنها لم تكن لواحد منهم فكان حرمان الجميع منها نوعاً من العدل ولكنه العدل العنيف.. هل ظلموها..هل ظلمت نفسها؟! هل كان جنونها في النهاية كمن حاول أن يمشي على الحبل فاختل توازنه فسقط، وكان الأسف على سقوطه معادلاً للإعجاب بتوازنه على الحبل قبل أن يسقط؟!"

وتواصل نوال مصطفى في كتابها السؤال: فهل كانت مي زيادة غانية تتحدث في الأدب أو أديبة تعرف الفجور؟.. إنها لم تكن هذا ولا ذك وإنما أوقعتها الأقدار في أوكار الذئب الفكري للرجل الشرقي لقد حاول أن يجرب معها الجميع الفيلسوف

لطفي السيد[٣] أرسل لها خطاباً : إنني طماع ولكن عذري أنني صادق في الإحساس" أي يريد أن يقول لها إنه معجب بها أو يحبها أو يشتهيها وطالما أنه صادق فهذا يكفي لأن يحصل على ما يريد.. يا سلام يا فيلسوف؟!

وتقول الدكتورة: "إجلال" المتخصصة في الهياج الجنسي عند مرضى الأمراض العقلية: (مي زيادة) إنها تشبه النبي إبراهيم دخلت النار، ولم تحرقها؛ كانت برداً وسلاماً عليها ولكنها لأنها امرأة وليست نبية لم تصدق ذلك فاختل عقلها..جنت أفضل امرأة؟! فلقد رأت العقاد وجلست إليه وزارته في منزله وأهدت إليه أكثر من هدية، ولكنها تطلب منه فقط الحذر الشديد فالرسائل تكاد تكون رمزية تحتاج إلى شفرة واللقاء يكاد يكون بخطة بوليسية موضوعة بخبرة وتقبل العقاد ذلك، فقد كان هذا طابعه!

ولكنها تجرأت حينما تجرأ عليها مصطفى صادق الرافعي[٤] وكان حجة في صناعة الكلام (هامت بما يقول فاعتقد أنها هامت به) وكادت تطلب له البوليس.

ولكن (مي زيادة) اعترفت لطاهر الطناح بحبها (لجبران) فهل هذا الاعتراف لأنهم تركوها وحدها بعد موت حبيبها وأملها؟ فمن المؤكد أنها أحبت الشاعر جبران خليل جبران. ولكن كل هؤلاء المترددين على صالونها لم يعرفوا ذلك بل إننا لم نعرف إلا بعد أن ماتت. ربما كنا عرفنا أكثر لو أن رسائلها قد بقت دون أن تحرقها. فقد دخلت مستشفى العصفورية (للأمراض العقلية في لبنان) وكان جنونها كاملا في

[٣] التقت به في عام ١٩١٤ ونصحها بأن تقرأ القرآن الكريم لتدرس أسلوبه جيداً باعتباره المدخل لإجادة اللغة العربية وتذوقها، فهو كفيلسوف كان يراها تفكر باللغة الفرنسية وبالتالي يصعب تذوقها عربياً حتى ولو كتبت ذلك بالعربية!! متجاهلا أنها تدين بالمسيحية؟

[٤] (الشيخ مصطفى عبد الرازق) أرسل لها في سنة ١٩٢٧ رسالة يقول لها فيها: سيدتي الآنسة العزيزة.. إن لم تكوني وزيرة، ولا من المستوزرات، فإنك أميرة النهضة النسوية في الشرق، بل أنت أميرة النهضة الشرقية على إطلاقها وإذا كنت لا أطمع أن يهتدي بمباحثي في الفلسفة الإسلامية الكافرون فإنني أطمع أن تنال جهودي رضاك، ورضى حماة العلم والفكر من أمثالك

القاهرة تسير في الشوارع تحمل الخضروات والملابس، ثم أنها أرجعت الخطابات التي بعثها المعجبون بها إلى أصحابها ثم إنها حرقت كل رسائل العشاق لها. فالعقاد يكتب لها هذه الرسالة وهو يقضي عطلة الصيف في رأس البر في: **١٩ أغسطس ١٩٢٥**
"سيدتي كنت الليلة في رحلة بحرية جميلة وكانت نجمة البحر "ميريم" تلمع على الأفق كبيرة متلألئة فكنت أرفع بصري إلى السماء فأراك في السماء وأقول لها أو أقول لك:

يا نجمـــــة الـــــيم ونـــــور الأوان   أشـــرقت، فليشـــرق علينـــا الأمـــان

لـــو لم تكـــوني ملكـــا حارســـا   يحوطنـــا في كيـــد هـــذا الزمـــان

مـــا ســـار فينـــا يـــوم فارقتنـــا   شـــيطانه البـــاغي طليـــق العنـــان

فـــاليوم إذا أقبلـــت لا خـــوف   مـن كيـد الشـياطين وأنـت الضـمان

وترد مي:

"سيدي الأستاذ الفاضل العقاد أما عنواني في روما فهو هذا وهو طويل بعض الطول يشبه العناوين التركية التي كان يشكو منها بيرلوتي **(Pierr Loti)** ومع ذاك فأرجو أن يكون لي محسن فيكون واسطة للحصول على مقالاتك الأسبوعية الأدبية. إذا كانت رحلتنا من القاهرة إلى الإسكندرية في ساعات الحر الشديد فقط استقبلتنا الإسكندرية بنسيم لطيف وباخرتنا هذه راسية الليلة على مقربة من "فرضة البحر" حيث يلتقي برد بحر "ليس يلتقيان" والمنار يزجي بالضياء ولكن هؤلاء المسافرون يكثرون من الضجيج فلا يتيسر التفكر والكتابة. وأنتقل من صالون إلى صالون لأجد مكاناً هادئاً وأزيد رغبة في الكتابة لا بد من الامتثال فكل ما يحيط بي يحملني على ترك القلم على أني سأنفرد في زاوية من المركب وأطل على البحر وأقول لنفسي شعرا ، شكراً على الأبيات التي أتحفتني بها، إن لها عندي مكاناً خاصاً دون سائر شعرك، وأهديك خالص الود"

ويقال أنها اول من كتب أدب الرسائل ونشر في مكاتبتها ٦٦٦ رسالة، مع جبران والعقاد وعدلى يكن، وآخرين. مزقت رسائلهم ونشروا رسائلها.. إنها سابقة على: غادة السمان، وفدوى طوقان

فمي سؤال يجيب عنه كثيرون:

فمثلاً الاستاذ المرحوم حسن أحمد حسن المدرس بكلية الفنون الجميلة رسميا جعلها تنام على الأقلام، أسنة الأقلام كفقراء الهنود حينما ينامون على المسامير أي انه جعل الجميع مشترك في تعذيبها ،وهو يقول عنها : إنها المرأة الوحيدة التي أحبها العقاد واحترمها وهي التي قالت له: لا.. أول الأمر، وقال لها: لا وبعد ذلك!! ولا يزال صوت عبد الوهاب "وأغنية": "كلنا نحب القمر والقمر بيحب مين حظنا منه النظر والنظر راح يرضى مين"..تنطبق على الآنسة مي زيادة..لقد قال عنها العقاد عند وفاتها: (رحم الله مي زيادة كانت حصنا محاطا بخندق أي أنها بعيدة ومنيعة)

وتقول نوال مصطفى: ووجدت الأستاذ الرافعي يشير ويشيع حبه للآنسة (مي إلياس زيادة). وكانت (مي) وقتها شرفاً يدعيه كل أدباء زمانها ابتداء من سلامة موسى مروراً بالعقاد وطه حسين وإسماعيل صبري ومطران انتهاء بلطفي السيد.. ولكن حب مصطفي صادق الرافعي لمي جعله مؤهلا التراكيب الجمالية والبلاغية الكثيرة في كتبه وبالطبع نحن لا نسأل أدبياً عن حبه، إن كان صادقا، وإنما نحن نقلب في الذي كتبه فإن أحب فسوف نرى ماذا كتب. وإن ادعى الحب فسوف نرى ما كتب!!

فمع مي كان كل شيء مع جبران ولكنه على الورق.. نوع من الحب الأبيض بالقلم والسطور !!

وقال التابعى نعم أحببت اسمهان

سافر مُحَمَّد التابعي إلى الهند وكان معه أنيس منصور، وخرج عليهما في "كلكتا" إحدى ولايات الهند فقير هندي بجرابه مجموعة من الثعابين وطلب من كل منهما "روبية"، وهي عملة هندية، مقابل أن يقول لكل منهما اسم من يحب؟! وكتبت الثعابين لأنيس منصور بتموجات جسدها على الرمال كلمة "صوفيا برنادو" ؟! وكتبت الثعابين للتابعي اسمها على الرمال آيلي أو آمال؟! وانكشف كل منهما للآخر!! والمعنى أن أنيس منصور يحب فتاة إيطالية ويهيم بها، أما التابعي فقد كتبت الثعابين كلمة أيلي أو آمال، وتعجب التابعي فلم يكن هذا الاسم ضمن من أحب ولكنه بعد سنوات اكتشف أن "أسمهان" اسمها الحقيقي في شهادة الميلاد "آيلي" وكانوا يقولون لها "آمال"!!.

أما أغرب ما حدث فهو الذي حدث لمحمد التابعي الرجل الذي أقسم ألا يتزوج، تحول الذي كانت هوايته أن يجمع قلوب الممثلات والراقصات كأنه يجمع طوابع البريد إلى محب للزواج والإلحاح عليه تحول ليكون أحد طوابع البريد الملصقة في الألبوم الخاص بأسمهان!.تحول التابعي من سميع معجب بعبد الوهاب ضد أم كلثوم إلى معجب ولهان "بأسمهان" وأعجبته أغنية "أنا اللي أستاهل" حتى أن عبد الوهاب بعد أن كان إذ زار التابعي في بيته ذهب إلى غرفة نومه وفتح دولاب ملابسه وأخذ منه ما يعجبه من أربطة العنق بخاصة، اكتفى في علاقته به بالتليفون بعد أن أصبح لا يسمع إلا أسمهان.

فما أن جاءت هذه الأسرة من جبال الدروز إلى بساط النيل حتى تغيرت الخريطة الفنية والمعادلة الصعبة، جاءت الأم الأميرة عاليا المنذور ومعها ابنتها أسمهان، وشقيقاها فريد وفؤاد الأطرش خوفاً من شيء ما. ويقال كان يتعقبهم أحد ويريد أن يقتل أسمهان بخاصة. وعلى حدود مصر ضمنهم سعد زغلول فدخلوا بدون باسبور،

وتغير كل شيء بعد أن كان الصراع بين عبد الوهاب وأم كلثوم أصبح بين أسمهان وأم كلثوم.. ورقص الهرم مع فريد الأطرش وسامية جمال.

فقد كان التابعي أحد الصحفيين الذي قرر أن يكون ملكاً حتى أنه كان إذا ذهب إلى باريس أو لندن سأل عن الفندق الملكي ولم ينزل إلا فيه!! أما التابعي الذي ذاق الفقر والحرمان قرر أن يذوق الكافيار والنبيذ، وبعد أن كان يركب الباسكليت في تنقلاته من المجلة إلى المطبعة، أصبح الباشوات يحسدونه على ماركة سيارته. فقد كان شعار التابعي "وأما بنعمة ربك فحدث" ولكنه كان يفهم الآية خطأ، فكان يحدث النساء بذلك دون الرجال، يعطي امرأة التي يعجب بها في أول لقاء خاتم "سولتير" ويعطي أصدقاء عمره في أعياد ميلادهم قلم حبر أمريكاني ولم يستثن من ذلك إلا عبد الوهاب!!.فلم يحدث في تاريخ الصحافة المصرية أن عاش صحفي في المستوي الملكي الذي عاش فيه التابعي، وقد قلده فيما بعد في غرامه بالسيجار والماء المعدني مُحَمَّد حسنين هيكل، وفي جمال هندامه والعناية على حمدي الجمال، ولكن أحداً في بلاط الصحافة كلها ما استطاع أن يقلده في دونجوانيته حتى مصطفى أمين نفسه فهو الذي اعترف في كتابه "شخصيات لا تنسى" أن التابعي سلطان العشق وكتب عنه تحت عنوان "سلطان الحب في القرن العشرين" ففي الوقت الذي كانت فيه الأفيال تمرح في سماء الفن والصحافة والناس مشغولة بمن يكون البرنجي (أي الأول) يوسف وهبي أم الريحاني _ العقاد أم طه حسين _ عبد الوهاب أم "أم كلثوم" – تحية كاريوكا أم سامية جمال!! أجمع الجميع على أن برنجي الصحافة هو مُحَمَّد التابعي. اعترف بذلك الجميع فها هو مصطفى أمين يكتب للتابعي من واشنطن في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٢ يقول "أستاذي العزيز أقبلك ملايين القبلات وأرجو أن تكون موالياً على التمرينات في النادي الأهلي، وقبل كل شيء لا أعرف كيف أشكرك على اهتمامك بمقالة "طظ في أمريكا" ووضعها في الملزمة الملونة!!

كان التابعي – كما يقول مصطفى أمين – "قوياً مع الرجال، ضعيفاً مع النساء وكان لا يثق في أي رجل بسهولة، ولكنه يثق في أي امرأة بسهولة، وكان أستاذاً في

جذب النساء بكل اللغات وكل الأجناس، فقد كان مولعاً جداً باللغة الإنجليزية ويجيد الفرنسية وكان يستطيع أن يكتب مقالات بالإنجليزية وبلغت درجة إجادته لها إلى اختياره مترجماً للبرلمان المصري سنة ١٩٢٤ رغم أنه تقدم معه حاملو درجات علمية من جامعتي أكسفورد وكامبريدج، ويبدو أنه كان بالتابعي عقدة معينة فقد كان يحب أن يظهر بين الجميلات ويظهر أنه كان يرسل صور رحلاته إلى المجلات التي يعمل بها لذلك ويكتب هو التعليق، فقد كان يخاف أن يطاله الشيب أو يتمكن منه الزمن.. وضحك التابعي على الزمن وعاش في خدعة طويلة، فقد استطاع أن ينكر من عمره عشر سنوات، وحصل على جواز سفر في الأربعينات أنقص فيه عمره عشرة سنوات كاملة، وتعامل مع الدنيا على هذا الأساس، وفي يوم وليلة أصبح التابعي ليس أحد كبار كتاب مصر والشرق العربي ولكنه ملك الورقة والقلم.

أما أسمهان فهي ملكة حقيقية كان لها "شنة ورنة.. كما يقولون" في جبل الدروز، وكان لها أحلام مع المخابرات البريطانية في أن يجعلوها شخصية اجتماعية مرموقة في لبنان، وحينما تجاهلتها بريطانيا اتجهت إلى الجنرال الفرنسي "كاترو" وكان ذلك في تلك الفترة التي كانت فيها سوريا ولندن مسرح صراع حقيقي بين عوامل وأهداف سياسية بعد الحرب العالمية الأولى.

ويقول "يوسف الحكيم" في كتابه "سوريا والانتداب الفرنسي" إن أسمهان فرش لها "الجنرال كاترو" قصراً خاصاً بين عاليه ويحمدون. والتقى التابعي بأسمهان، ومن الوهلة الأولى ومن طريقة كلامها ومن هيئتها وملابسها وعيونها الجبلية قرر التابعي أن يتزوجها. وكان غيوراً جداً.. كان التابعي في غيرته مجنوناً يهدد ويتوعد بالفراق وما أن ينهي شحنته حتى يقول أحلى كلام في الحب، وكانت هي في غيرتها غريبة إذا غارت اختفت يوماً أو اثنين عند أحد الأصدقاء أو الأقارب.

ومن غيرة التابعي اتباعه لطرق بوليسية؛ فقد دفع مبالغ كبيرة لكل الخادمات والوصيفات المحيطات بأسمهان حتى يعرف أخبارها ودفع ثمناً كبيراً.. كان يدفع للبواب ليعرف متى تخرج؟! ويدفع للخادمة لتوافيه بأسرارها، ولكن أسمهان التي كانت تلعب

الكوتشينة مع رجال المخابرات الإنجليز والفرنسيين كانتتعرف كيف تختار خدمها.. وكانوا يقولون لها ما الذي يقولونه للتابعي ولغيره!!فقد كانت أسمهان امرأة ساحرة لها قدرة كبيرة على اجتذاب الرجال، وهي كثيرة الهمس إذا تحدثت فيتوهم الذي يقول.. ويرغي.. ويلت ويعجن!!

وكان ما تعمله أسمهان يجلب لها إعجاب المصريين من الرجال جداً؛ فهي هوائية تحب في الصباح وتكره في المساء.. تنام عندما يستيقظ الناس وتخرج من بيتها في نصف الليل ولها مزاج جداً، وقد رفضت دعوة ملكية من إحدى الأميرات لأنها طلبت منها أن تجالس الناس مقابل ٥٠٠ جنيها، ولم يكن معها في ذلك الوقت إلا ١٧.٥٠ قرش صاغ، وكان هؤلاء الناس كبارات مصر والشام ولكنها اعتذرت لأنها كما يقولون "قادرة" أي على عكس النموذج المصري وقتها "المنطوية" وإن كان كل شيء تغير الآن "وفي الوقت الذي كان الناس يتحدثون عن غرامها بالتابعي إذا بها تهرب إلى غرام آخر وشخصية أكثر شهرة من التابعي. لقد اتصلت بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي.. تركت حفلة بها التابعي وادعت أنها مصابة بصداع وستذهب لمنزلها واتجهت لمنزل أحمد حسنين باشا.. ومتى؟! الساعة الرابعة صباحاً ورأى ذلك مصطفى أمين وحكاه لعلي أمين وقررا أن يفسدا هذه الزيجة فتقدما باستقالة من آخر ساعة إلى التابعي يقولون له إذا تزوج أسمهان يتركان له مجلة آخر ساعة وقال لهما طظ في آخر ساعة!! وطلبا المشورة من أم كلثوم لحماية التابعي وقالا لها ما رأيك تتزوجينه أنت؟! وضحكت!! ووصل للتابعي الخبر بوثائق، ومات حبه بالسكتة القلبية، وسافر وحاول أن يتعلم التزحلق على الجليد وفشل ولكنه اشترى ملابس ومستلزمات التزحلق فلقد قرر أن يعرف كيف يتزحلق إذا أعطاه الحب صابونة ماركة أسمهان!!. أما ما وصله من وثائق فقد كان يثبت أن هناك حواراً عنيفاً وقع بين الملكة نازلي أم الملك فاروق وأحمد حسنين بسبب علاقته بأسمهان!! ولأن التابعي هو صاحب عبارة "أن انس المرأة.. بالمرأة" أو "اجعل حياتك منها كالكأس لا تراه ممتلئاً ولا تراه فارغاً" ومن هذه الفلسفة كتب عما عرف من النساء كتاب "بعض

ما عرفت".

وكان من أروع ما كتب في آخر ساعة مجموعة مقالات عن قصته مع أسمهان قال فيها: إنها أميرة يجري في دمها الدم الأزرق وكان يحب أن يهذبها بما لم تعتد عليه أن يضربها أن يمنعها من نزواتها، ولكنه كان يوافقها على ما ترضى عنه لأنه يحبها، ومن هذه العبارة كتب عنها مصطفى أمين في كتابه "شخصيات لا تنسى" امرأة كانت تتمنى رجلاً يضربها ولكنهم جميعاً لم تطاوعهم كفوفهم!!

ولكن أسمهان خدعته ضحكت عليه وجعلته يهمل عمله، فهو يتابع أخبارها ولا يتابع أخبار الوزارة ويحرص على مقابلة المندوبين الذين يحملون أسرارها أكثر من حرصه على مقابلة مندوبي الجريدة والمحررين ولكنه الحب، ولكنها امرأة مختلفة فهي من برج القوس!!.

ومما يقال عن أسمهان أنها تعاونت مع "هتلر" في أثناء وجودها بمصر، ولذا فالأصابع تشير إلى اتهام المخابرات البريطانية بقتلها في حادث سقوط سيارتها في النيل وهي في طريقها لرأس البر، فقد ماتت وخرج السائق حياً وكانت تريد أن تذهب بالقطار وقال لها السائق كل التذاكر محجوزة وكان هذا غير صحيح وماتت في ١٤ يوليو ١٩٤٤ قبل أن يكتمل آخر أفلامها مع يوسف وهبي "جنون الحب" ودخل نعشها فعلاً الأستوديو كجزء من الديكور!!

وقد صدر كتاب "أعلام الأدب والفن" لأدهم الجندي سنة ١٩٧١ تحدث فيه عن أسمهان وأوضح فيه أن علاقتها بأحمد حسنين باشا لم تكن حباً، بل غلباً، إنها أحد متطلبات التعامل مع الألمان "أن تحمل لهم أخبار السرايا" نفس الشيء الذي قيل عن كاميليا والملك فاروق، أما الشيء المبهر فهو تأكيده على أنها أحبت في حياتها التابعي فعلاً وبجنون ولا يزال التاريخ الخاص جداً فيه كثير من الحكايات عن الصحافة والفن كشفتين في ٧ قلم.

وقال السادات: التهامي فيه شيء لله؟!!

(وفي إحدى المرات ضحك السادات طويلاً عندما سمع التهامي يروي له أنه رأى مناماً وقال له: "رأيتك في المنام تصلي في المسجد الأقصى بالقدس ونحن جميعاً حولك وأنا بالذات بجوارك، والمسجد كله مليء بالمشايخ الذين يلبسون العمائم".. ويضيف بهاء الدين قائلاً: "ولكن على أية حال كانت تلك أول قطرة ماء غير محسوبة وغير جادة في موج الأحداث الغامضة حت التي أدت إلى رحلة السادات للقدس.. ولعل كثيرين من أصدقاء الرئيس السادات لاحظوا بعد ذلك من دون معرفة السبب – أن السادات بدأ يلازم حسن التهامي ويقربه أكثر من المعتاد، وأنه بدأ يقول للناس بشكلٍ جدي: "إنه فيه شيء لله، ومكشوف عنه الحجاب" ولم يكن معروفاً أن الاتصالات المصرية الإسرائيلية المباشرة قد بدأت في المملكة المغربية سراً، وأن إسرائيل كانت ترسل موشيه ديان وزير دفاعها وقائدها العسكري الشهير ممثلاً لها في هذه المباحثات السرية البالغة الدقة والخطورة.. وأن السادات أرسل للتحاور مع ديان، حسن التهامي! ومن يدري فربما كان هذا الاختيار الغريب مقصوداً)

أحمد بهاء الدين في كتابه "محاوراتي مع السادات"

وُلِدَ عبد الرحمن حسن التهامي – وهذا هو اسمه بالكامل– في قويسنا يوم السادس والعشرين من أبريل نيسان عام ألف وتسعمائة وأربعة وعشرين وتخرج في الكلية الحربية عام ألف وتسعمائة واثنين وأربعين ليصبح ضابطاً للمشاة في عام ١٩٤٣، اشترك حسن التهامي مع كمال الدين رفعت في إنشاء تنظيمات خاصة، لمهاجمة أفراد قوات الاحتلال البريطاني، في مصر، والاستيلاء على الأسلحة والذخائر من المعسكرات البريطانية، التي كانت منتشرة في ضواحي القاهرة خصوصاً منطقة شارع الهرم. وكان من أبرز الأعمال، التي قام بها كمال الدين رفعت وحسن التهامي،

هو تدمير السفارة البرازيلية، في القاهرة، صيف عام ١٩٤٧، وذلك، بسبب أن البرازيل كانت عضواً في مجلس الأمن في ذلك الوقت إبان نظر قضية مصر في المجلس، وكان صوتها دائماً يرجح الجانب المعادي لمصر، على الرغم من إعادة التصويت عدة مرات. شارك في عمليات الفدائيين، في منطقة قناة السويس عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ في أكتوبر ١٩٥١، وذلك بمعرفة قيادة تنظيم الضباط الأحرار، وبمعرفة الرئيس جمال عبد الناصر. فكان يقوم، مع كمال الدين رفعت، بتدريب بعض الشباب من طلبة الجامعات وصغار الموظفين على حرب العصابات، وقد استمرت هذه العمليات حتى حدوث حريق القاهرة، في ٢٦ يناير ١٩٥٢ واشترك حسن التهامي في محاولة اغتيال اللواء حسين سري. وكان حسن التهامي من المقربين إلى جمال عبد الناصر، منذ قيام ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢، على الرغم من عدم رضائه عن التغييرات السياسية والاجتماعية التي نفذها الرئيس جمال عبد الناصر. ولذلك، تم إبعاده عام ١٩٦١، بتعينه سفيراً لمصر في النمسا، ومندوباً دائماً لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية. شارك في حرب فلسطين عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين وكان أحد أفراد الخلية الأولى للضباط الأحرار التي شكلها عبد الناصر والتي كانت تضم أيضاً اليوزباشي كمال الدين محمود رفعت.

وبعد ثورة يوليو تموز عام ألفٍ وتسعمائة واثنين وخمسين عُينَ مديراً لمكتب الرئيس للمعلومات ثم تولى إدارة البحوث، وفي عهد عبد الناصر وصل إلى منصب مستشار سياسي للرئيس تم تعيينه في عام ألف وتسعمائة وواحدٍ وستين سفيراً لمصر لدى النمسا ومندوباً دائماً لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وعندما تولى السادات منصبه كرئيسٍ خلفاً لعبد الناصر عمل التهامي مستشاراً للشؤون الدينية بدرجة نائب رئيس وزراء.. ثم عُينَ وزيراً للدولة ومبعوثاً شخصياً للسادات.

شارك حسن التهامي في ثلاثة أحداث تاريخية مهمة وفاصلة في تاريخ مصر الحديث: ثورة يوليو وكامب ديفيد ونشأة المخابرات المصرية.. ومع ذلك فهو يوصف دوما بملابس ليست متناسقة مع بعضها البعض وحذاء أسود لا يلمع إطلاقاً وفي

بعض الأيام بلحية بيضاء تميل إلى السواد وكأنه لا يتعدى درجة فراش في أحد المصالح الحكومية المصرية وليس من بين هؤلاء الأشخاص الذين غيروا مجرى التاريخ الحديث وأسقطوا نظاماً ملكيا وأشعلوا حروبا وصراعات في المنطقة بأثرها وليس في مصر فقط فهو رجل يحمل سمات وتصرفات الدراويش لكنه وصل إلى منصب نائب رئيس الوزراء؟!

إنه حسن التهامي الذي كان قبل كل ذلك ضابط الحرس الحديدى الخفي (من ضمن ٣٠ ضابطا تعلقا بالملك وألمانيا) أطلق عليه البعض وصف "خميني مصر" فهو شخصية لا يمكن توقع خطوتها المقبلة، إذ يُروى عنه أنه في أثناء الاجتماعات السياسية بكامب ديفيد كان يقول "السلام عليكم ورحمة الله".. فينظر الحضور بحثاً عمن يلقي أو يرد عليه التهامي السلام فلا يرون أحداً..؟! ويسألونه فيقول: إن سيدنا الخضر قد دخل القاعة وألقى السلام.. وفي أحاديثه لا يتورع حسن التهامي عن القول بأن عبد الناصر كان عضواً في الحزب الشيوعي "حدتو" وكان اسمه موريس!! وهو يعلن أنه مؤسس المخابرات المصرية. ثم يعترف بأنه كان يتنصت على المكالمات الهاتفية للوزراء وكبار المسؤولين في مصر بتكليف من عبد الناصر.. ثم أخذ يتجسس على مكالمات عبد الناصر الهاتفية أيضاً..

ويقول عبد الفتاح أبو الفضل في كتابه (ص١٧٣) إنه بعد الثورة مباشرة كان التهامي من الذين جرى تعيينهم في المخابرات وإنه "لم يكن له مكتب خاص بمبنى المخابرات. ولا نعلم عن عملٍ محددٍ يقوم به، إلا مساهمته في إحضار بعض خبراء المخابرات الأمريكيين لعقد حلقات دراسية لأربعة من ضباط المخابرات المصريين للاستفادة بخبراتهم فقط

وذقن حسن التهامي لها قصة طريفة تستحق أن تُروى، وعلى لسانه هو فإنه أطلق ذقنه لأول مرة في مرحلة مطاردة عبد الناصر للإخوان المسلمين مما أصاب الناس بالذعر وصاروا يحلقون ذقونهم خوفاً من الاعتقال. ولما أطلقها قال له عبد الناصر في صالون بيته:"إن ذقنك هذه تزعج الحكم وسببت لي مشكلات وأرجوك

تفكر في الموضوع".. فقال له التهامي: "إنني ربيت ذقني لشعورٍ ذاتي وعندما ينتفي هذا الشعور سأتصرف بنفسي ولست محتاجاً إلى توجيه من أحد

ويؤكد في أوراقه أنه قيدّ بالحبال كلاً من عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر قائد القوات المسلحة ليمنعهما من تعيين خالد محيي الدين رئيساً للحكومة.. وتفصيل ذلك عندما أخذت الأوضاع السياسية في مصر شكل الأزمة في أواخر فبراير شباط من عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين، وبدا أن الخروج من الأزمة يمكن أن يتم بإعادة مُحَّد نجيب إلى السلطة وتعيين خالد محيي الدين رئيساً للحكومة.كان التهامي هناك بمسرحياته الهزلية إذ يقول إنه اصطحب مجموعة من الضباط ودفع باب المشير عبد الحكيم عامر ودخل الضباط أمامه وأقفل بدوره الباب خلفه واستند إليه بظهره كي لا يفتحه أحد. وكان الإجراء المتفق عليه حسب رواية التهامي هو منع عبد الناصر ومن معه من التصرف.. وكان عامر– كما تقول الرواية المزعومة– جالساً في تلك اللحظة في مكتبه يجمع أوراقه.. في حين كان عبد الناصر واقفاً أمامه في منتصف الحجرة ويقف خلفهم مستنداً إلى مائدة الاجتماع عبد اللطيف بغدادي. ولم يكن باقياً من أعضاء مجلس قيادة الثورة إلا صلاح سالم الذي كان نائماً على سرير الطواريء في الغرفة الداخلية لمكتب عبد الحكيم عامر.

والصورة التي رسمها لنا التهامي كالتالي: طلب التهامي من الضباط "تكتيف" عبد الحكيم عامر على كرسيه فقاموا بذلك من دون مقاومة من عامر.. وكان عبد الناصر يراقب ذلك التصرف بدهشة ولكن من دون أن ينطق. واستدار بعض الضباط وشرعوا في تقييد عبد الناصر وهو واقف في مكانه أمام عبد الحكيم عامر.. وأمسك الضباط بذراعيه ووضعوها خلفه، جمال عبد الناصر ببصره في وجوه جميع الضباط ليختار من سيتحدث إليه منهم ولم يكن يعرف معظمهم.. ثم وقع نظره على التهامي وهو في ذلك الموقف، فترك الضباط جميعاً وقال له بالحرف الواحد: "يا حسن قول لهم يفكوني..أنت عاوز إيه؟! فقال له وهو في مكانه: "نحن لا نقبل القرار ونمنعكم من التصرف ونحمي مصر من أخطائكم.. ولا نفك قيودكم حتى نعيد الأمر

إلى نصابه.. وإن شئنا سلمناكم القياد مرة أخرى"..

وحين سأل عبد الناصر عن هذه الطلبات يقول التهامي إنه طلب عدم تصفية مجلس الثورة وعدم استلام خالد محيي الدين الحكم.. وطلبات أخرى من بينها استمرار المشير عامر في قيادة الجيش. وتمضي الرواية الهزلية وتصل إلى أن يقول عبد الناصر: "إذن فكوني" فتركوه.. ثم طلب فك قيد المشير عامر وقال له قبل أن نفك ذراعيه: "يا عبد الحكيم سمعت ما قاله حسن.. القرار ملغى وعليك أن تباشر سلطاتك كقائد عام للقوات.. وارفع سماعة التليفون وابدأ بالاتصال بالوحدات كما قال حسن"..

ويخرج التهامي من غرفة المشير بعد ذلك ليبشر الضباط بانتهاء الأزمة! ويعود ليقول إن عبد الناصر استدعاه قبل وفاته بأيامٍ قلائل وقال له:"خليك جنبي..لأنهم عايزين يموتوني"..وهو يقسم على أنه تمكن من وضع السادات على قمة السلطة في مصر بمسدسه الشخصي. ويصرخ قائلاً: إنه مؤسس المخابرات العامة المصرية (لا صلاح نصر ولا زكريا محيي الدين ولا غيرهما طبعاً!!)

أما مفاجأة التهامي الكبرى فكانت حكايته مع برج القاهرة نقرأ في كتاب عبد الفتاح أبو الفضل"كنت نائباً لرئيس المخابرات": وفي فترة متقدمة – بعد البدء في إنشاء برج القاهرة بحيث أخذ يرتفع عن الأرض، علمنا أن حسن التهامي احتل الدور الأول، وأحاط جزءاً من هذا المبنى بأسوار عالية، وجعل له بوابات ضخمة وكان مقره في مجموعه يشبه قلاع الأمراء في العصور الوسطى. وحتى بعد احتلاله لهذه القلعة كنا نسميها قلعة الأسرار حيث عجزنا كضباط مخابرات وزملاء أن نعرف أي شيء عن العمل الذي يجريه داخل هذا الحصن، وبعد أن استلم علي صبري العمل في المخابرات العامة محل زكريا محيي الدين بعد العدوان الثلاثي على مصر، صدر قرار بنقل التهامي من المخابرات، لكنه رفض أن يغادر قلعته الغامضة أسفل البرج واعتصم بها هو وأعوانه. وأرسل له علي صبري رئيس المخابرات مجموعة مسلحة من ضباط المخابرات أرغمته على مغادرة القلعة. وكانت حجة التهامي عندما طالبوه

بمغادرة "قلعته" أنه هو صاحب الفضل في الحصول على تكاليف إنشاء البرج من الأمريكان (ثلاثة ملايين دولار) والحكاية تبدأ من تعيينه رئيساً لقسم مكافحة الشيوعية في جهاز المخابرات في عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين، أيام كان زكريا محيي الدين مسؤولاً عن الأمن في مصر.

وكان التهامي يمارس عمله بشكل مستقل عن سيطرة المخابرات.. ونجد في مذكرات عبد الفتاح أبو الفضل ما يؤيد ذلك إذ يقول: "وعلمت أيضاً أن حسن التهامي كان منذ بداية الثورة يعمل وهو موظف بالمخابرات في عملٍ خاص مكلف به من عبد الناصر. هذا العمل لم نعرف به إلا مؤخراً بعد إرغام حسن التهامي على مغادرة هذا المكان، وكان مسؤولاً أمام الرئيس عبد الناصر عن مراقبة تليفونات أعضاء مجلس الثورة والوزراء والشخصيات ذات الصفة العامة وأنه يسجل هذه الأحاديث لعرضها على عبد الناصر فقط"

وكانت النتيجة أن التهامي سجل أحاديث عبد الناصر نفسه!? ففي أحد الأيام اتصل عبد الناصر بصلاح نصر مدير المخابرات وطلب منه أن يأتي على عجل. ولما قابله وجد صلاح نصر أن عبد الناصر في حالة غضبٍ شديد وطلب منه أن يطرد التهامي من عمله في المخابرات فورا وأن يحل هذا القِسم.. فسأله صلاح نصر عن السبب فقال عبد الناصر إن حسن التهامي يتجسس عليه ويسجل له مكالماته فقال له صلاح نصر إنه لم يتسلم مهام منصبه كمدير للمخابرات إلا منذ بضعة أشهر فقط وليست لديه معلومات عن هذا الموضوع فكيف عرف هو أن التهامي يسجل له مكالماته؟. رد عبد الناصر بالقول إن التهامي سلم عبد اللطيف بغدادي أشرطة تسجيل عليها مكالمات عبد الناصر فبادر البغدادي بتسليمها له؟! وبالفعل جرى طرد التهامي وأُلحِقَ قسم مكافحة الشيوعية بالمخابرات، وأصبح خاضعاً تماماً لسلطة صلاح نصر.. وتفاصيل هذه الحكاية وردت في كتاب "صلاح نصر الأسطورة والمأساة" لحسنين كروم الذي لم يكشف عن اسم حسن التهامي صراحةً وقتها ثم نشر الاسم بوضوح بعد استئذان صلاح نصر الذي رحب بذلك كان من المفروض أن

يُعاقب حسن التهامي على الأقل بإبعاده عن المراكز السياسية والأمنية الحساسة بعد افتضاح تجسسه على مكالمات رئيس الدولة، وكان من المتصور أن يبادر أحدٌ فيسأل: لمصلحة وحساب من كان التهامي يتنصت على مكالمات عبد الناصر؟!. لكن المفاجأة المثيرة للدهشة أن نجم التهامي لم يأفل بعد تلك الواقعة وإنما استمر في الصعود، فقد نُقِلَ للعمل في رئاسة الجمهورية وفي أعمال لا يعلم عنها كثيرون شيئاً، ولله في أمثال حسن التهامي شؤون، ولنا فيهم شجون

ولكن لوثات حسن التهامي لا تنتهي وكان عبد الناصر قد عيّنه كأول مندوب لمصر في اللجنة الدولية للطاقة الذرية بفيينا – النمسا كنوعٍ من الإبعاد له في منفى مريح، ولم يكن مطلوباً من المندوب المصري في تلك الفترة أية مسؤولية فضلاً عن وجود مجموعة من الفنيين المسؤولين إلى جانبه الذين يمكنهم تسيير العمل. وقد اشتهر عنه خلال خدمته في فيينا أنه كان يقوم في وقت صلاة الفجر وفي أوقاتٍ أخرى من النهار والليل ويفتح النوافذ ويرفع الأذان بصوتٍ جهوري، مما كان يلفت نظر أفراد الأمن النمساويين في الشارع وكذلك السكان المجاورين.

ويروي عبد الفتاح أبو الفضل في كتابه "كنت نائباً لرئيس المخابرات" قال كمال رفعت إنه في أثناء عمل التهامي في الرئاسة – بعد طرده من قلعة برج القاهرة – فاجأه عبد الناصر بالوثائق التي تسلمها من الاتحاد السوفيتي آنذاك التي تؤكد أن أحد أعضاء السفارة المصرية في موسكو – وكان يعمل لحساب التهامي– جمع معلومات عن الجيش السوفييتي وتدريباته من الضباط المصريين الذين يتدربون هناك. وعلمت بالأمر المخابرات السوفيتية بواسطة عملائها في الولايات المتحدة.

ويقول أبو الفضل إن عبد الناصر أبلغ كمال رفعت بهذه الواقعة، وأنه علم بعد فترة بالمضمون نفسه للواقعة من صلاح دسوقي نائب وزير الداخلية الذي أصبح محافظاً للقاهرة كما تولى رئاسة النادي الأهلي بين عامي ألف وتسعمائة وواحد وستين، وألف وتسعمائة وخمسة وستين.. الغريب في الأمر أنه بالرغم من كل هذه الأعمال المريبة من التهامي فقد عُينَ في فترة لاحقة سفيراً بوزارة الخارجية وصدر قرار

جمهوري يسمح له بالزواج من أجنبية!؟

بل إن عبد الفتاح أبو الفضل يروي في مذكراته كيف كان في زيارة لمنزل التهامي للحصول منه على بعض دراسات وقرارات المؤتمر الإسلامي حيث كان يشغل مركز سكرتير عام المؤتمر الإسلامي. وفي هذه المقابلة أخذ التهامي يقص على الرجل حقيقة قصة صفقة الأسلحة التشيكية. ومن ضمن حديثه أن عبد الناصر قبل توقيع الصفقة المذكورة أرسل التهامي في مأمورية خاصة إلى الولايات المتحدة ليستطلع رد فعل رجال المخابرات الأمريكية حول تأثير هذه الصفقة على السياسة الأمريكية في حال إتمامها. ولما عاد التهامي من الزيارة طمأن الرئيس عبد الناصر بأنه بحث الأمر مع المسؤولين الأمريكيين واتضح له أن توقيع وإعلان هذه الصفقة لن يثير انزعاج واشنطن.. وطلب من عبد الناصر أن يوقع الاتفاقية وألا يخشى شيئاً. وتردد عبد الناصر، فما كان من التهامي إلا أن صرخ في وجهه قائلاً:"امضِ يا جبان"

يعود التهامي ليروي حكاية المسدسات معه عندما يزعم أنه حاول الاستيلاء على مسدس الحارس الأمريكي لجيمي كارتر في كامب ديفيد ليجبر السادات والرئيس الأمريكي كارتر بالقوة على التراجع. هكذا هو التهامي القادر على إيقاف عبد الناصر والسادات وكارتر وغيرهم بقوة السلاح عند الحدود التي يراها، مسدس التهامي كاد يصل أيضاً إلى الرئيس مُحَّد نجيب إذ ذهب إليه خلال أزمة فبراير من عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين في قصر عابدين والتقاه داخل مكتبه بدعوى مفاوضته حول أسلوب العمل والتوافق مع مجلس الثورة. وزيادةً في الاطمئنان – كما يقول التهامي– أخرج له الطبنجة ووضعها على المكتب بينه وبين مُحَّد نجيب، ولما حرّك الأخير يده للإمساك بالطبنجة كان التهامي أسرع منه، وقال له: "لا داعي لذلك" قبل أن يعيدها إلى السترة وبطريقة الكاوبوي الذي لا يفارقه مسدسه الذي يحزم به قراراته ويلجأ إليه عند اللزوم، ولم لا وهو الذي يؤكد لنا أنه قادر على ضرب الزهرة من عودها وكذلك نصف القرش أو المليم – الذي اختفي بفعل التضخم والغلاء – أو غطاء زجاجة المياه الغازية من على مسافة ثلاثين متراً طبعاً نحن نشعر بالأسف

الشديد لاعتزال التهامي وإلا لكنا قد سارعنا إلى ترشيحه لنيل ميدالية ذهبية في الرماية

ويروي التهامي في مذكراته التي نشرتها له الأهرام في عام ١٩٧٧ كيف أن أعصاب عبد الناصر كانت تتوتر كلما كان يراه، وأن عبد الناصر كان كثيراً ما يتجنب مقابلاته معه ويكتفي بالاتصال الهاتفي، وذلك لأن التهامي لم يكن يتخلى قط عن مسدسه ولهذا السبب يؤكد التهامي أنه كان يقف بعيداً عن سيارة عبد الناصر عدة خطوات عند نزوله من سيارته ليحيط به رجال الأمن حرصاً على عدم إزعاجه، مكتفياً بإلقاء السلام عليه.. الأغرب من ذلك أن السادات روى له ذات مرةٍ بعد توليه الرئاسة وبعد انتهاء أحداث مايو أيار عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين وتخطيها أن "رجال الأمن أيام عبد الناصر كانوا يقولون إن جمال كان مقتنعاً بأن حسن التهامي إذا انفرد برئيس جمهورية مصر في أي مكان ثلاث دقائق فلا يمكن أن يطمئن رئيس مصر لمصيره أو مستقبله أو يتكهن بما يمكن أن يحدث في تلك الدقائق".. فغضب التهامي لما أخبره به السادات ولاحظ الأخير ذلك فسأله قائلاً: "لم غضبت؟" فقال له: "هذه إهانة" فسأل السادات قائلاً:"ليه؟" فقال التهامي بثقة كبيرة: "إن الدقائق الثلاث فيها تقليل من قدرتي على التصرف فيكفيني دقيقة واحدة أو أقل" فضحك السادات من قلبه على هذا التعليق

روى حسن التهامي لجريدة "الأهرام" ما جرى يوم وفاة عبد الناصر في الثامن والعشرين من سبتمبر أيلول من عام ألف وتسعمائة وسبعين فيقول إنه وسط أجواء الحزن في منزل عبد الناصر على رحيله انتحى بالسادات جانباً في صالة المدخل وقال له: "يا سيادة النائب، أنت شايف (الفريق مُحَمَّد) فوزي وعلي صبري وانفرادهما ببعضهما..وشايف سامي (شرف) وشعراوي (جمعة) وأمين (هويدي) وما يدور بينهم خارج المنزل.. فالجو يوحي بتدبيرٍ ما.. أشعر به.. وأنت سيادتك نائب رئيس الجمهورية، فأرجوك أن تشغل مكان عبد الناصر لتحمي البلد من أي هزة أو تآمر من هؤلاء.. وهذا وضعك الطبيعي" فقال له السادات: "يا فلان.. ده مش وقته..

وخلينا نروح المجلس (يقصد مجلس الوزراء حيث كان مقرراً عقد اجتماع عاجل مشترك في قصر القبة للمجلس مع الهيئة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي" فقال له التهامي: "إن التآمر لن يسمح بتضييع وقت.. إن هذه هي الليلة الحاسمة في تاريخنا.. ولن أقبل أن يقوم هؤلاء بأي تآمر ولو كلفني ذلك شخصي.. وأنا شخصياً كفيل بالتصدي لهم تحت أي ظرف.. وأرجوك أن تقتنع بكلامي هذا"

هكذا يتحدث التهامي عن مصطلح التآمر لمجرد أنه رأى عدداً من الوزراء والمسؤولين يتحدثون ويتشاورون عما سيحدث بعد وفاة رئيس الدولة. والأهم أن التهامي وبحكم موقعه آنذاك كرئيس لجهاز موظفي رئاسة الجمهورية لم يكن يملك أية قوة فعلية يمكن تحريكها بما يجعل تهديده "بأنه لن يسكت وسوف يتصدى للمتآمرين حتى ولو كلفه ذلك حياته" مجرد كلام أجوف – إن كان قد حدث فعلاً – ويستهدف فقط تأكيد ولاءٍ مزعوم للسادات ومحاولة استعدائه على رجال عبد الناصر في السلطة..

وفي مذكرات سامي شرف التي تحمل عنوان "سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر" ما يؤكد ذلك المعنى، فيقول إن تفسير هذا الموقف "يكمن بالقطع في شخصية حسن التهامي والتي من المؤكد أنها لقيت هوى في نفس أنور السادات منذ بداية الخمسينيات، فعمل على توظيفه في كل معاركه السرية والعلنية، فقد كنت بحكم موقعي مطلعاً وعن قرب على كل تصرفات حسن التهامي وسلوكياته داخل أو خارج مصر قبل الثورة وبعدها، كما قمت بتكليفٍ من الرئيس جمال عبد الناصر بالتحقيق معه أثناء عمله سفيراً في النمسا عندما ورد اسمه على لسان أحد الضباط المتهمين في قضية محاولة قلب نظام الحكم التي عرفت بقضية (عبد القادر عيد)، وفي ص ٥٧٦ (وبعد رحيل عبد الناصر ورث أنور السادات أجهزة الرئاسة وفي داخلها حسن التهامي فقرّبه إليه بشكل ملحوظ وقد وصلت العلاقة الودية بين السادات والتهامي إلى درجة كبيرة. وكان الأخير من أقرب المقربين إلى الرئيس المصري بالرغم مما اشتهر عنه من عدم الاتزان وتفسير الأحلام والغرق في الغيبيات، حتى إن الرئيس المصري

اختاره كمندوبٍ له للتقارب مع حكام إسرائيل وقابل موشيه ديان بالمغرب في رعاية الملك الحسن للتمهيد لزيارة السادات للقدس وإعلان مبادرته المعروفة بمبادرة السلام..

والعلاقات بين التهامي والسادات قديمة، وتعود إلى ما قبل ثورة يوليو فكلاهما تعاون مع الحرس الحديدي – الجهاز الأمني وجهاز الاغتيالات للملك فاروق – ثم تجددت العلاقة أو أنها كانت مستمرةً في المؤتمر الإسلامي وقت عملا معا ومنذ هذا التاريخ نشأت علاقة وثيقة بين السادات وكمال أدهم الذي اتضح فيما بعد أنه كان يعمل كمركز متقدم للمخابرات المركزية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

وقد كشف الأمريكي الشهير بوب وودوارد الصحفي ذو الصلات الوثيقة بالمخابرات المركزية الأمريكية أبعاد العلاقة التي ربطت بين السادات وكمال أدهم والتهامي والمخابرات الأمريكية في مقال نُشِرَ في صحيفة" الواشنطن بوست" بتاريخ الخامس والعشرين من فبراير شباط عام ألف وتسعمائة وستة وسبعين وفي هذا الصدد يقول نائب رئيس الوزراء في عهد السادات "مُحَمَّد عبد السلام الزيات" في كتابه (السادات بين القناع والحقيقة) إنه بعد أقل من شهر من تولي السادات رئاسة مصر ظهر على المسرح في مصر كمال أدهم الذي أخذ يتردد على القاهرة بتحفظٍ في بداية الأمر ثم أخذ تردده صفة الانتظام ثم يضيف قائلاً: "إن هذه العلاقة الثلاثية بين السادات وكمال أدهم وحسن التهامي تتكامل مع ما جاء على لسان عبد الفتاح أبو الفضل عن علاقات حسن التهامي بالمخابرات المركزية، وهي بالقطع موثقة في سجلات المخابرات العامة المصرية، وربما هي نفسها التي قادت إلى مبادرة التهامي خلال عمله بالمخابرات وبدون تعليمات من رؤسائه بمراقبة تليفونات المشير عبد الحكيم عامر ثم مراقبة جمال عبد الناصر نفسه، وهو الأمر الذي كشفه أحد الضباط العاملين مع التهامي وأبلغ به المشير عامر مما أدى إلى صدور قرار بإبعاده عن العمل عن المخابرات العامة ونقله إلى وزارة الخارجية"

ألغاز كثيرة يثيرها اسم حسن التهامي وتستدعيها الأدوار التي لعبها

لكن البعض يفسر ظاهرة التهامي استنادا إلى ما اصطلح على تسميته "وثائق السفارة الأمريكية في طهران" بعد أن اقتحمها واحتلها الطلبة الإيرانيون واحتجزوا عدداً من العاملين فيها مع اشتعال الثورة الإيرانية في عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين. إذ تقول طهران إن تلك"الوثائق" تتناول صلة حسن التهامي القوية بالمخابرات الأمريكية وكيف أنه كان هناك تنظيم سري يجمع بين مخابرات إيران والسعودية ومصر والمغرب يطلق عليه نادي السفاري**Safari Club** وكانت سكرتاريته الدائمة في القاهرة.. وقد تكلف إنشاؤه وتجهيزه مبالغ طائلة بهدف مقاومة الشيوعية في المنطقة وكان من ضمن المهام التي كُلف بها هذا النادي الإعداد لاجتماع بين مصر وإسرائيل في قصر ملك المغرب

ورافق حسن التهامي الرئيس السادات في رحلته إلى القدس عام ١٩٧٧وشارك حسن التهامي في كافة المفاوضات التي أدت إلى توقيع معاهدة الصلح المصرية . الصهيونية وظل حسن التهامي أقرب المقربين للرئيس السادات إلا أنه أدلى في عام ١٩٧٩ بتصريحات صحفية معادية لليهود وللإسرائيليين نشرت في الكويت وأثارت استياء السادات والحكومة الإسرائيلية، مما أدى إلى عودته مرة أخرى إلى دائرة الظل..

ولعل آخر من أدلى بشهادته عن حسن التهامي هو الدكتور بطرس غالي وزير الدولة المصري للشؤون الخارجية – وطبعاً الأمين العام للأمم المتحدة سابقاً – حيث جاء في كتابه "طريق مصر إلى القدس: قصة الصراع من أجل السلام في الشرق الأوسط" ما يكشف الكثير عن شخصية التهامي وأسلوبه وتصرفاته يقول د.غالي (ص ١٣٨) في سياق حديثه عن اجتماع جرى في العاصمة الفرنسية باريس قبيل مؤتمر كامب ديفيد الذي بدأ في سبتمبر أيلول عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين: "وفي مأدبة عشاء لنا بمبنى وزارة الخارجية تحدث مُحَّد إبراهيم كامل بالإنجليزية متناولاً العموميات، ولكن حسن التهامي احتكر الحديث وكان بمثابة عرّاف السادات وسمير الرئيس و"رجل بركة" ورافع للمعنويات. لقد كان التهامي ضابطاً عسكرياً جسوراً

ولامعاً في الثورة، ثم أصبح أشبه بالصوفي، مؤمناً بأنه يتلقى في الأحلام تعليمات خاصة من الرسول، وكان يتصور نفسه صلاح الدين المصري الذي يحمل رسالةً خاصة باستعادة القدس والذود عن الإسلام. وكان السادات يرتاح إلى وجوده ويستمتع بصحبته، غير أننا جميعاً كنا نراه إنساناً غير متسق. وكانت له لحية مكثفة على الطريقة الإسلامية الأصولية، الأمر الذي يخالف اللوائح العسكرية.

وبالرغم من كل غرابة الأطوار التي كنا نراها فيه، فإنه لعب دوراً مهماً بالنسبة للسادات. فقد سافر التهامي سراً لملاقاة موشيه ديان في المغرب، ووصف هذه الرحلة بأنها مهدت الطريق لمبادرة القدس الساداتية. بيد أن اتصال التهامي مع ديان – كما قال لي السادات– لم يكن له دورٌ على الإطلاق في قراره بالذهاب إلى القدس"

هكذا رأى د. بطرس غالي شخصية حسن التهامي.. ومع أن في الوصف كثيراً من الصور النمطية والذهنية التي لا تخفى على أحد فإن شهادته تظل مهمة لأنه كان شاهداً على عصر ووقائع بالغة الأهمية

نعود إلى حكاية مأدبة العشاء، يقول د. غالي (ص ١٣٩): "الآن ونحن على مأدبة العشاء مع الفرنسيين كان التهامي يكشف كيف أنه في اللحظة الأخيرة قرر عدم تنفيذ مخططاته للإطاحة بالحكومة الأفغانية، وقص مغامرات أخرى كثيرة. وكان الفرنسيون يستمعون إليه باندهاش. وأسرَّ أحد الدبلوماسيين في أذني:"هل هو حقيقة نائب لرئيس وزراء مصر؟" وأجبته بأن التهامي في الحقيقة مستشار خاص للسادات، وأنه لا يتولى مسؤوليات محددة أو سلطات في الحكومة المصرية، ولا يشارك في اجتماعات مجلس الوزراء. ولعدم اقتناعه بهذه الإجابة، عاد الدبلوماسي إلى التساؤل عما إذا كان حسن التهامي سيرأس الوفد المصري في كامب ديفيد، فأكدت له أن الرئيس السادات سوف يرأس الوفد المصري. "ولكن التهامي يحتل المركز الثاني في القيادة"، هكذا أصر الدبلوماسي المتسائل، فقلت له:"نظرياً صحيح، ولكن وزير الخارجية سيكون مسؤولاً عن المفاوضات"

وبينما نحن نغادر وزارة الخارجية بعد العشاء أسرَّ لي السفير أحمد ماهر مشيراً إلى التهامي بكلمة "فضيحة"! وأضاف مُحَّد كامل الذي التقط هذا التعجب، قائلاً: "ليست هذه سوى البداية". لقد أزعجنا جميعاً الوجود السريالي للتهامي في الوفد" والشاهد أنه حين يختار الرئيس – أي رئيس– درويشاً ليصبح صديقه المقرب ومستشاره في دهاليز السياسة فإن هذا يدخل الرئيس والدولة نفسها في دائرة الخطر الأخطر من هذا أن يختار الرئيس هذا الدرويش للمشاركة في مفاوضات مصيرية لكن السادات قرر تعيين صديقه التهامي – ذا الشخصية المهزوزة في الظاهر والغامضة في الباطن– ضمن الوفد المصري للتفاوض مع إسرائيل في قلعة ليدز البريطانية ثم عيّنه في وفد المفاوضات الرسمي في كامب ديفيد..

وكانت له مكانة عند السادات في أثناء المفاوضات الجانبية قد تفوق صلاحيات وزير الخارجية المصري (مُحَّد إبراهيم كامل) الذي استقال قبل إبرام اتفاقية كامب ديفيد

ويلقي وزير خارجية مصر في أثناء مفاوضات كامب ديفيد مزيداً من الضوء على شخصية التهامي في سياق كتابه "السلام الضائع في كامب ديفيد" ويقول: "كانت هذه هي المرة الأولى التي أقابله فيها. كنت قد سمعت عنه روايات وأساطير غريبة منها أنه كان في صدر شبابه يعيش حياةً متحررة صاخبة ثم تحول فجأةً إلى الدين وإلى التصوف.. ومنها أنه كان على اتصال مع الجن والأنبياء ويتحدث مع الموتى.. وفي اللقاء الأول بينهما ظل التهامي يروي قصصاً عن بطولاته وجسارته تتضمن أعمالاً خارقةً لا يصدقها عقل ولكنه كان يرويها بتأكيدٍ وثقةٍ لا يقبلان المناقشة. وكان حديثه بالرغم مما فيه من مبالغاتٍ وجنوح إلى الخيال ظريفاً ومسلياً على غرار قصص "ألف ليلة وليلة".

وفي الطريق إلى مطار سالزبورغ النمساوي قال التهامي موجهاً حديثه إلى الرئيس السادات إنه يعتقد أن موشيه ديان هو المسيخ الكذاب الذي تنبأت التوراة بظهوره وإنه قد واجهه بذلك عندما قابله في المغرب (خلال لقاءاتهما السرية) وهنا قاطعه

السادات قائلاً: "يا حسن.. مش عاوزين نجيب سيرة الموضوع ده الآن " وفي اليوم التالي – العاشر من يوليو تموز عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين – كان مُحَمَّد إبراهيم كامل في طريقه إلى الفندق عندما قابل التهامي فصافحه الأخير وذكر أنه اتخذ قراراً بأن يهديه أرشيفه السري بأكمله ليكون تحت يديه في الوزارة، وهو يتضمن وثائق سرية ومعلومات وبياناتٍ على أكبر قدرٍ من الأهمية.. وأشار إلى أنه رفض تسليمه إلى أي وزيرٍ من وزراء الخارجية السابقين. ثم بدأ يسدي النصح إلى إبراهيم كامل حول موشيه ديان قائلاً: "عندما تقابله إذا لاحظت أنه يراوغ في الحديث معك فما عليك إلا أن تقبض يدك اليمنى وأنت تنظر إليه ثم ترفعها أمام وجهه وأنت تصيح "يا تهامي" وستجد أنه سيعود إلى رشده على الفور وبذلك تستطيع التفاهم معه"

وهكذا وضع حسن التهامي يده على نقطة الضعف الخفية لدى موشيه ديان؟!

كان الوقت يمضي ثقيلاً مملاً على وفد التفاوض المصري حتى يفرغ التهامي من جولاته المجهولة وينضم إليهم في الاستراحة.. وكان هو ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن الوحيدين اللذين يصران على ارتداء الملابس الرسمية كاملةً مع ربطة العنق طوال المفاوضات، وما إن يعبر التهامي مدخل الاستراحة حتى يتلاشى في لحظةٍ جو الملل والتثاؤب والقلق وكأنه ضغط على زرٍ إلكتروني وينقلب إلى جوٍ من البهجة والمرح والدعابة وتدب الحياة بين المجتمعين بعد أن يشد التهامي انتباههم وأسماعهم ويبدأ بإبلاغهم آخر "الأخبار"..فيقول مثلاً إن وزير الخارجية الإسرائيلي موشيه ديان قد وافقه منذ ساعةٍ على عودة القدس إلى العرب.. ثم يتكلم عن التصوف وعن تفسير الأحلام وينتقل إلى القصص والروايات ويحكي كيف حل مشكلة المسلمين في الفلبين.. وكيف استطاع أن يؤجل قيام الثورة في الملايو لمدة ثلاث سنوات.. وكيف عالج نفسه من السم الزعاف الذي دس له في الطعام في أثناء إحدى زياراته لدولٍ عربية.. فانسحب إلى غرفته يتلوى من الألم وأغلق عليه الباب بالمزلاج لمدة ثلاثة أيامٍ لا يأكل ولا يشرب.. وراح يعالج نفسه بترياق السموم الذي يحمله دائماً معه.. ثم يتكلم عن فوائد العنبر الذي يستخرج من كبد الحوت وعن مزايا عسل ملكات

النحل.. ثم يتوقف فجأة ويخاطب وزير الخارجية المصري مُحَّد إبراهيم كامل قائلاً" القدس أمانةٌ في عنقك يا أخ مُحَّد فحذار أن تفرط فيها"

من جهته يقول د. غالي (ص ١٤١): "وقام التهامي بتوزيع قطع صغيرة من العنبر على أعضاء الوفد المصري، شارحاً بأن علينا إذابتها في الشاي وبأنها ستمنحنا القوة على مواجهة الإسرائيليين. ولم تكن هذه المادة الفوّاحة المستخرجة من أمعاء الحيتان الكبيرة لتناسبني، غير أن بعض أعضاء الوفد المصري استعملها" من كان يصدق أن العنبر دخل على خط المفاوضات في كامب ديفيد

تحت معطف النازية ؟!

هناك كراهيه مكنونة بين الملك والوفد _ والنحاس بالذات – ورثها فاروق عن أبيه الملك فؤاد، فقد رأى الملك وهو في سن السابعة عشر مليشيات الوفد تجوب المظاهرات بقمصانها الزرق وتنادي "يحيا الوفد – عاش النحاس" بل تصل للقصر الملكي نفسه وهي مصرة على نفس النداء "يحيا الوفد".. وفي عام ١٩٣٧ شكلت جمعية مصر الفتاة ميلشيات عسكرية على نمط حزب الوفد، عرفت بـ "أصحاب القمصان الخضر" فاستخدمها فاروق،وعملت مع القصر،وكان حزب «مصر الفتاة في الثلاثينيات والأربعينيات بزعامة السياسي المصري أحمد حسين، يقوم على الشكل النازي الفاشي، وكان واحداً من أحزاب الساحة المصرية وقتها يجتذب الشباب، وأثناء الحرب العالمية الثانية والتي وجدت مصر نفسها منخرطة فيها – إذ لا ناقة لها ولا جمل – (كان حزب مصر الفتاة مؤيدا لألمانيا النازية ومع ذلك اقترب منه الملك فاروق؟!) واصطدم أصحاب القمصان الزرقاء، بتشكيلات مصر الفتاة ونتج عن ذلك قتل شخصين ومن ثم تعرضت مقرات مصر الفتاة للإغلاق، وتوازى مع ذلك حملة سياسية شنها النحاس باشا في مجلس النواب بأن مصر الفتاة تعمل مع دولة أجنبية، خاصة بعد حادث تَعرض النحاس باشا لإطلاق نار"اغتيال" قام به أحد شباب القمصان الخضر، فتم إغلاق دور مصر الفتاة، واعتقال الكثير من أعضائها وعلى رأسهم "أحمد حسين" نفسه المسئول عن أصحاب القمصان الزرقاء بمصر الفتاة.

وفي يوم٣٠ أكتوبر ١٩٣٧ تدهور الموقف بشكل خطير بسبب مصادرة الحكومة لجريدة البلاغ – لسان حال القصر– لنشرها نص حديث دار بين الملك فاروق والنحاس طلب فيه الأول حل جماعات القمصان الزرقاء وعندما تولى مُحَّمد محمود باشا رئاسة الوزراء أواخر ١٩٣٧ هاجمت مجموعة من الشباب فيللا رئيس

الوزراء وتصادمت مع الحرس الخاص به واستطاعت مجموعة منهم اقتحام الفيللا، وتكسير بعض محتوياتها إلى جانب اصابة مُحَمَّد محمود باشا نفسه إصابة في رأسه بعد أن حاول التصدي للمهاجمين. وبعد احتواء الموقف والقبض على بعض هؤلاء الشباب تم استصدار مرسوم يمنع عمل وإنشاء التشكيلات شبه العسكرية في مصر. وبذلك اسدل الستار على قصة شباب القمصان الملونة[٥] ولم يكن غائبا على أحد كثرة الجماعات السرية بمصر فهناك ما يزيد عن ثلاث جماعات شيوعية قياداتها يهودية، وهناك الإخوان المسلمين التي تأسست ١٩٣٨ وقد اتصل القصر، والوفد، والإنجليز، بالجميع واستقر كل منهم على من العدو ومن الصديق؟ وحين غربت القمصان الملونة خرجت مظاهرات الإخوان المسلمين تهتف لمليكها المؤمن عقب كل صلاة جمعة. والملك يخرج من الأزهر بعد أن أدى الصلاة وفي يده مسبحة فضية.

الأوضاع في الداخل والخارج كانت تلوح بالفكرة للملك فلماذا لا يتصل بالنازي المنتصر فيأمن طيشه ويتفق على استقلال بلده، فهناك حرب كبيرة هي الحرب العالمية الثانية وصلت نيرانها لحدود مصر الغربية (١٩٣٩– ١٩٤٥) ولذا نجد أن محطة "زد دي إف" تلمح إلى تاريخ العلاقات بين النازيين ومصر تاريخيا حيث تشير إلى أنه «خلال الحرب العالمية الثانية، استطاع الألمان تجنيد شخصيات مصرية رفيعة في البلاط الملكي المصري في عهد الملك فاروق وكانت هناك قوي سياسية تدعو إلى التحالف مع ألمانيا في مواجهة بريطانيا التي كانت تحتل مصر آنذاك. ذلك أن ميول بعض الشخصيات في عهد الملك فاروق إلى الألمان وهتلر بما فيهم الملك ذاته، لم يكن عن اقتناع بأفكار النازية، بل كانت رؤية وطنية لأي جماعة ضد الاحتلال البريطاني لمصر، وهذا أكبر دليل على أن النازية كانت مجرد أفكار سياسية

---

(١) ويختلف المؤرخون حول نشأة جماعة القمصان الزرقاء، ففي الوقت الذي أكد فيه البعض أنها ترجع إلى الحزب الوطنى، قال أخرون إن حزب الوفد هو أول من أسسها.وفي دراسته حول شباب القمصان الملونة، يقول المؤرخ الكبير يونان لبيب رزق إنه وجد مقالا في جريدة الاهرام كتبه حافظ رمضان بك رئيس الحزب الوطني في ذلك الوقت أكد فيه أنه كان أول من أوعز لأحمد حسين وجماعة مصر الفتاة تشكيل فرق القمصان الخضراء، وأنه صاحب فكرة القمصان الزرقاء, وأن الوفد سرق الفكرة منه..

يجري تداولها في تلك الحقبة باعتبارها مضادة للاستعمار الغربي..

وعلى العموم كان زورق وزارة حسين سري يزداد اضطرابا وجنوحا فالخبز قد اختفى، وزادت معاناة الطبقات الشعبية فالحرب رفعت تكاليف المعيشة في إنجلترا ١٣٥% ولكنها رفعتها في مصر ٣٥٠ % وتَحرُك الملك في اتجاه المحور ألمانيا علمت به ورصدته السفارة الإنجليزية، ومعه هبطت الثقة بينهما درجات كثيرة لأسفل، وبدأ السفير الانجليزى "مايلز لامبسون" يسمى الملك بالولد **the boy** والملك يسميه "جاموس باشا" ولذا اضطربت – بحق – أعصاب الإنجليز أمام المظاهرات والهتافات الصاخبة: "تقدم يا روميل.. إلى الأمام يا روميل" فدفعت المخابرات البريطانية ب "إيرين جينيل" يهودية مصرية من عائلة غنية من تجار القطن بالإسكندرية، لفاروق، ووصلت لقصره وسيطرت عليه وتحولت لعشيقة له، وفي قصره ضبطت جهاز لاسلكي وبخاتم إيرين ثبتت تهمة العمالة على الملك للألمان!!

وفي مذكراتها تقول: "إنني لست مهتمة بفاروق، ولكني سأذهب معه لأني أكره الألمان"؟!

ويصف المؤرخون بداية العلاقات الألمانية المصرية،كانت خلال فترة نشوب الحرب العالمية الثانية، مع اندلاع الشرارة الأولى، للحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، عندما اجتاحت ألمانيا النازية بولندا، لتشكل فيما بعد حلفين رئيسيين هما قوات التحالف ودول المحور، في أكبر حرب شمولية شهدها العالم تسببت في مقتل ما يقرب من ٨٥ مليون شخص ما بين مدني وعسكري.

على الرغم من كون مصر وقتها تحت الاحتلال البريطاني، الذي بدأ عام ١٨٨٢، وانتهي فعلياً بجلاء القوات البريطانية عام ١٩٥٤، وباعتبار بريطانيا إحدى القوى الرئيسية في قوات التحالف إلى جانب الولايات المتحدة، في مواجهة دول المحور بقيادة هتلر، إلا أن هناك علاقة غير محدودة ولا مفهومة نشأت بين عدد من الشخصيات المصرية وألمانيا النازية ?!

1-الملك فاروق

يقول الكاتب حلمي النمنم أن الملك "فاروق" كانت لديه علاقات بألمانيا النازية، كانت تدار بواسطة سفير مصر في إيران وكان والد الملكة فريدة زوجة صهر فاروق، مشيرا إلى أن المخابرات البريطانية رصدت اتصالات بين قصر المنتزه الملكي بالإسكندرية، الذي كان يوجد به الملك فاروق، وبين السفن النازية، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجاهروا بأن الملك "فاروق" خلف هذا الموضوع.

وأوضح النمنم، أنه هناك بعض الشواهد تدل على أن "حادثة القصاصين" كان الهدف منها اغتيال الملك فاروق، وأن السيارة التي صدمت سيارة الملك فاروق كانت مقطورة تابعة للجيش الإنجليزي، وكان الهدف من ذلك معاقبة الملك فاروق لعلاقته بألمانيا النازية، مؤكدا أن الملك فاروق كان يتعامل مع ألمانيا باعتبار أن فوزها يعني تخلص مصر من الاحتلال البريطاني .

٢- علي ماهر باشا

شغل منصب رئيس وزراء مصر أربعة مرات كان أولها في ٣٠ يناير عام ١٩٣٦، وآخرها عند قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، عرف عنه علاقته بألمانيا النازية كما يقول النمنم، وهو ما تسبب في قيام القوات البريطانية بمحاصرة قصر عابدين، في فبراير عام ١٩٤٢، وأجبر السفير البريطاني في القاهرة حينها، السير مايلز لامبسون فاروق الأول ملك مصر على التوقيع على قرار باستدعاء زعيم حزب الوفد مصطفي النحاس لتشكيل الحكومة بمفرده أو أن يتنازل عن العرش

٣- أنور السادات

يرى النمنم أن السادات كانت لديه علاقة بألمانيا النازية من خلال شبكة تجسس كانت تعمل لحساب ألمانيا النازية في مصر، إبان الحرب العالمية الثانية، وأنه تم اعتقاله والحكم عليه بالسجن الفعلي لمدة ثلاث سنوات إلا أن النمنم فسر هذه العلاقة على أنها تعتمد اعتمادا كليا علي المثل القائل "عدو عدوي هو صديقي"

بمعنى أن السادات كان يرى أن فوز ألمانيا في الحرب يعني التخلص من الاحتلال البريطاني

٤– الفريق عزيز المصري

أحد العسكريين البارزين أثناء فترة حكم الملك فاروق الأول، عينه الملك فاروق رئيس أركان الجيش المصري للمشاركة في محاولة تحديثه بعد معاهدة ١٩٣٦، يعتبره العديد من الضباط الأحرار أباهم الروحي، وقد ساعدوه في المحاولة الفاشلة للاتصال بالقوات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية بالهروب بطائرة، غير أن الطائرة سقطت في قليوب وقبض عليه ومن معه وقدم للمحاكمة بتهمة الاتصال بألمانيا، ولكن كان هدفه هو التخلص من الاحتلال البريطاني على حد تعبير النمنم

٥– حسن البنا:

ويقول حلمي النمنم، إن علاقة حسن البنا بألمانيا النازية كان الهدف من ورائها هو العمالة، وأن الإخوان هم من روجوا لحكاية هتلر وأنه أسلم وأنه تحول اسمه للحاج مُحَمَّد هتلر، وهذا الكلام مثبت في الوثائق النازية، بحسب قوله.

٦ – مجموعة ضباط الطيران:

وهي مكونة من أربعة ضباط برتبة ملازم طيار تقيم معا في شقة مفروشة بمصر الجديدة وهي قريبة من المطار الحربي مطار ألماظة، وكانت هذه المجموعة مكونة من الطيارين:"أحمد سعودي أبو علي، وحسين عزت، ومُحَمَّد وجيه أباظة، وعبد اللطيف البغدادي" فشكلوا تنظيما سريا بين ضباط الطيران سموه "تنظيم الطيران" بهدف مقاومة الاحتلال البريطاني، وقاموا بالاتصال بجماعة الإخوان المسلمين للتعرف على مدى استعدادها للمشاركة في مقاومة الاحتلال البريطاني واقترح الإخوان إدماج التنظيمين [أي تنظيم الطيران مع التنظيم الخاص بالإخوان المسلمين (ولم يتم الاتفاق] وعن طريق حسين عزت تم ضم "أنور السادات" إلى المجموعة وهذا التنظيم هو الذي كلف "أنور السادات وحسن عزت بالاتصال بالجواسيس الألمان لأسباب غامضة

عللوها "بأن عدو عدوى صديقى"؟! وانكشف الأمر وقبض على أنور السادات وحسين عزت، وفي يوم الإثنين ٢٩ يونيو عام ١٩٤٢ استقل أحد أفراد المجموعة وهو "أحمد سعودي أبو علي" طائرة من النوع البريطاني ومعه حقيبة بها كل ما أمكن جمعه من معلومات واتجه بها لمنطقة مرسى مطروح غرب الإسكندرية وكانت تحت سيطرة القوات الألمانية في ذلك الحين، ولم يعلم أحد مصيره.

وكثير من الباحثين يعتقدون أن هذه المجموعة كانت على اتصال بالقصر للاتصال بألمانيا كطريق لاستقلال الوطن، واتصلت بالفعل بعزيز المصري ونسقت معه، وقد تحدث السادات عن مجموعة الطيران فقسمها لمجموعتين: فقد تحدث عن أحمد سعودي ومغامراته وعن صديقه حسن عزت وعن وجيه أباظة على أنهم أفراد مجموعته هو" تنظيم السادات" التي رأسها عام ١٩٤٠ وجعل الباقي لعبد اللطيف البغدادي "تنظيم البغدادي" الذي تنسب له مجموعة الطيران في الأصل، وهي مجموعة شملت ضباط وصف ضباط من الطيران واتصلت بتجمعات مدنية وتعدت الـ ١٠٠ عضو!

ولكن الطيار حسن عزت، يرى أنه كان له مجموعة ثورية ضم فيها "خالد محيى الدين" ويقول على السادات بعد أن ترك العمل معي في المقاولات بعد أن حصل على مبلغ الفي جنيه وهو مبلغ خرافي حينها التحق بالحرس الحديدي مقابل إعادته للخدمة بالجيش لينعم بالاستقرار العائلي مع عروسته السيدة جيهان بدلا من الأشغال الشاقة بالمقاولات.

وكانت الضربة القاصمة التي تلقاها الملك فاروق عندما حاصرت الدبابات البريطانية قصره في ٤ فبراير ١٩٤٢ لتجبره على تكليف مصطفى النحاس، برئاسة الحكومة نظرا لما يتمتع به من شعبية، لقد شعر الملك فاروق وقتها أن عرش مصر يهتز وأنه تحول إلى مجرد صورة بدون أي تأثير في السياسة المصرية، لقد أمسك السفير الإنجليزي "مايلز لامبسون" للملك بورقتين: في "الأولى" النحاس رئيسا للوزراء، وفي الثانية تنحيه عن العرش هو وأولاده من بعده؟! وعلى الملك أن يختار؟

فلم يكن الأمر يحتمل ألعاب الملك الشاب بالاتصال بالألمان؟! ولن تقبل إنجلترا وفي الحرب أن يكون فاروق تحت معطف النازية ؟!

فلا شك أن إعجاب المصريين بالفكر النازي وصل إلى العائلة المالكة سابقا وكان يتصدرهم النبيل عباس حليم ابن خالة الملك فاروق. والملك نفسه واتصاله مع بعض العناصر النازية من خلال خطابات متبادلة بينهما وجدت في الأرشيف البريطاني وقد ذكرها بالتفصيل الكاتب (وجيه العتيق) في كتابه (الملك فاروق وألمانيا النازية خمس سنوات من العلاقات السرية) ويتعرض فيه المؤلف لتفاصيل العلاقة السرية التي نشأت في أثناء الحرب العالمية الثانية بين الملك فاروق وألمانيا النازية، ويكشف عن أساليب الاتصال التي استخدمها الطرفان من وراء ظهر الإنجليز والنتائج المثيرة التي تمخض عنها هذا الاتصال.

كما يتعرض الكتاب في صحفاته لميول الملك فاروق المحورية وبواعثها ونتائجها، ووصف الألمان له برجلهم الأول في مصر!! بالإضافة إلى كشفه عن مراسلات الملك فاروق – هتلر، الألمان، ويشير الكاتب (وجيه العتيق) أستاذ التاريخ الأوروبي الحديث إلى أنه كان هناك اتصال مع ألمانيا الغربية منذ فترة كبيرة قبل عهد مُحَمَّد نجيب، وإلى أن القنصلية المصرية في ألمانيا تلقت عام ١٩٤٠ في عهد وزارة حسين سري باشا، ما وصل إلى ٤٠٠ طلب من عسكريين نازيين للانضمام إلى الجيش المصري والعمل فيه؟!

ويشير الكاتب لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢، الذي أخاف الملك ومحاولات إخراج الملك من مصر من قبل الإنجليز ودور ذلك في اندفاع الملك بشدة نحو النازيين ليس عن اقتناع بل حنقا على الإنجليز. ويكشف المؤلف عن وجود شكوك حول اتصال الملك فاروق بألمانيا من خلال سفارة تركيا لكن الإنجليز كانوا مراقبين كل اتصالاته ونجحوا في منع أي تعاون استخباري بين الملك والحزب النازي.

وقد ذكر عادل ثابت قريب الملك فاروق لوالدته أن الفوهلر (أدولف هتلر)

سعى لكسب صداقة الملك فاروق لطمعه في مصر فأهداه بمناسبة زواجه سيارة من السيارات الألمانية الفاخرة في عام ١٩٣٨ سيارة ماركة مرسيدس بينز من طراز ٧٧٠ حمراء اللون بمناسبة زواجه من الملكة فريدة، (وهي السيارة التي لم يتم تصنيع منها سوى سيارتين فقط في العالم: الأولى كانت لهتلر والثانية تم إهداؤها لشاه إيران.كانت سيارة مميزة، مصفحة ومزودة بزجاج يحمي الركاب من الرصاص، وطولها كان حوالي ٦ أمتار وعرضها مترين أو أكثر، والمحرك كان ٦ سلندر بـ ٥ سرعات ووزنها ٤٨٠٠ كيلو جرام. في ذلك الوقت وقد اشتهر قادة الجيش الألماني بركوبها أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان هتلر يريد أن يستميله لجانبه لمعرفته من خلال عناصر المخابرات الألمانية الموجودين في مصر في تلك الفترة أن الملك كان لا يميل إلى الإنجليز. .

ولكن الفصل الأساسي في استقدام خبراء نازيين إلى مصر دار بعد هزيمة الألمان في الحرب العالمية الثانية. وتقول الباحثة في الشؤون الإسرائيلية الدكتورة "سلوى صابر" في كتابها "الموقف الأمريكي من سباق التسلح بين مصر وإسرائيل ١٩٥٥-١٩٦٧":

"بدأ استقطاب العلماء والخبراء الألمان للعمل في مصر منذ عام ١٩٥٠ إذ احتاجت إليهم مصر لإعادة بناء جيشها وتنظيمه على النمط العسكري الألماني، وكان هناك اتجاه داخل الجيش يهدف إلى إحلال الكثير من المدربين الألمان محل نظرائم الإنجليز في محاولة لكسر نفوذ الإنجليز وكسر الاحتكار الإنجليزي للتسليح."..

وتضيف: "أنشأت مصر إدارة خاصة في وزارة الحربية لشؤون الخبراء الأجانب الذين كانوا يعملون بموجب عقود خاصة لكل منهم، وتقول "سلوى صابر" في كتابها:كان أوتو سكورزيني داهية بحق وصار يعمل في فرقة الحراسة الشخصية لهتلر، وكان ضابطاً ضمن وحدات الـ"أس أس"، الجناح العسكري للحزب النازي فقام الرئيس مُحَمَّد نجيب بضمّه كما ضمّ الكثيرين من رجال وحدات الـ"أس أس" إلى الجيش المصري لتدريبه، وتشكيل جهاز الشرطة المصري، خلال عام ١٩٥٣، وجعل سكورزيني مقرّباً منه وعيّنه مستشاراً عسكرياً له؟!

وتشير إلى أنه "من بين أبرز النازيين الذين استعان بهم نجيب خلال تلك الفترة، الجنرال فلهلم فارمباخر الذي عمل في مجال التدريب العسكري بعد هربه إلى مصر عقب هزيمة ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وكان قائداً في الجيش النازي، وعمل على تجنيد قدامى الجنود والضباط الألمان السابقين من فيلق إفريقيا، وجاء معه لقيادة التدريب الجنرال بجانب جنرالات من الغستابو، منهم ليوبولد غلايم، قائد غستابو وارسو في بولندا،وفرانز بيونخ وغوهايم دوملنغ وألويس أنطون.

ويقول الدكتور صبري العدل في بحثه لرصيف٢٢ إنه من المعروف أن ألبرت هايم قضى شطراً كبيراً من حياته في مصر بالفعل إلى أن توفي فيها عام ١٩٩٢ بعد ٤٤ عاماً من العيش على أراضيها، وهو طبيب يُشتبه في أنه قتل وعذب المئات في معسكر اعتقال ماوتهاوزن، وشارك في عمليات حرق يهود ومعارضيين لهتلر وعاش في مصر باسم مستعار هو طارق حسين، خوفاً من اغتياله، وعمل طبيب أسنان في أحد أحياء منطقة الموسكي. ويضيف أنه من المعروف أيضاً أن كارل ديبوش الذي أطلق عليه اسم "الخواجة دبوس" عمل طبيباً في مصر، وهو طبيب وضابط ألماني متهم بقتل ٣٠٠ يهودي من خلال إجراء التجارب عليهم في معسكرات التعذيب

وعندما جاء الباحث الأميركي ذو الأصل اليهودي روبرت ساتلوف إلى القاهرة بعد كامب ديفيد عام ١٩٨٠ كانت وجهة نظر ساتلوف المعروف بخلفياته المؤيدة للسياسات الإسرائيلية وقربه من المجلس اليهودي الأميركي تؤكد وجود نازيين مصريين أيدوا هتلر في سياساته، فضلا عن زعم ساتلوف بوجود مساعدات عسكرية ودعم فني للعلماء النازيين لمصر في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وثورة يوليو بسبب توجهات الملك السابق فاروق المؤيدة للنازي وكذلك السياسة الناصرية المؤيدة للمعسكر الاشتراك

المهندس حلمي السعيد يكشف المستور في شهادته للأجيال؟!

لأنه يعلم أن عندنا من العقد التاريخية والسياسية المزمنة ما تكفينا ليوم القيامة، فلا مبرر أن يضيف بمذكراته عقدة جديدة، بل أستطيع أن أقول أنه في مذكراته – التي تأخرت طويلا ونشرت في صمت بعنوان (شهادتي للأجيال) – حل الكثير من العقد والألغاز التي لا تزال تسبب لنا الصداع والروماتيزم والهستريا الوطنية.

هو المهندس حلمي السعيد واحد من ضباط يوليو، ورجال جمال عبد الناصر، وشاهد صامت على تاريخ هذه الفترة التي راح كل من هب ودب يكتب عنها أما على طريقة عنتر بن شداد أو على طريقة جنكيز خان.. فنحن إما في النعيم أو في الجحيم، لكن أبدا لم نكن على الأرض. ورغم أن حلمي السعيد من الضباط الأحرار وحارب في فلسطين وشارك في ثورة يوليو إلا أن المناصب التي تولاها كانت في الغالب بعيدة عن صراعات القوى ومؤامرات الكواليس، فهو ضابط مهندس.. عمل مستشارا لجمال عبدالناصر في الاقتصاد والتخطيط.. وكان معاونا لعبد الحكيم عامر في اللجنة العليا للسد العالي.. وأسس الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة.. ورأس مؤسسة مصر التي كانت تضم ٦٠ شركة..

وقبل أن يختتم حياته العملية اختاره أنور السادات وزيرا للكهرباء والسد العالي.. وعندما تجرأ وقدم استقالته من الوزارة وجد نفسه في السجن متهما بقلب نظام الحكم فيما عرف بقضية ١٥ مايو ١٩٧١ هو ومعظم رموز العهد الناصري وقياداته. وقد كان من الممكن أن يختفي حلمي السعيد في صمت كما عاش في صمت..

لكن شاءت الظروف أن تأخذه من الدار إلى النار.. ليس فقط في قضية ١٥ مايو.. وإنما قبلها في قضية أخطر وأصعب ولا تزال تثير شهية الناس في الحديث عنها

وسرد تفاصيلها.. فقضية (انحراف جهاز المخابرات العامة) التي كان على رأسها الأب الروحي للجهاز.. صلاح نصر.. فقد طلب منه جمال عبدالناصر أن يتولى التحقيق في هذه القضية التي هناك من يعتقد أنها كانت كبش فداء ذبحه النظام في معبده للخروج من نفق هزيمة يونيو المظلم والمؤلم والمزروع بالعقارب والخفافيش..

والحقيقة أن اختيار"حلمي السعيد" لهذه المهمة يثير علامات من القلق والاستفهام.. فما الذي يعرفه – وهو الرجل الفني والخبير في الهندسة والكهرباء والسد العالي – في مثل هذه القضية الشائكة التي يختلط فيها الحق بالباطل، وما هو أخلاقي بما هو غير أخلاقي؟

وهو نفسه يبدو مفزوعا من هذه المهمة، ويقول في مذكراته (التي نشرتها دار المستقبل العربي):

(إن المخابرات في كل زمان ومكان هي أسوأ مهنة في العالم ومهمتها جمع المعلومات الدقيقة لتكون أمام القادة.. صناع القرار في بلادهم.. وجمع المعلومات يعتمد على أية وسائل شريفة أو غير شريفة.. فليس في عمل المخابرات مثاليات أو التزام بمبادئ وقيم وإنما الغاية أولا وأخيرا هي الحصول على المعلومات بأية وسيلة.. بالرشوة.. بالنساء.. بالإدمان.. ومنطقها أنه أمام الحصول على المعلومات لصالح أمن الدولة تهون وترخص كل الوسائل المتاحة وغير المباحة) (ص١٠١ من المذكرات)..

ولكنه.. لا ينكر في الوقت نفسه أن ما تعرض له صلاح نصر من تشهير وإساءة متعمدة فيه الكثير من التجني، فقد أدى هو وجهاز المخابرات العامة أدوارا أذهلت العالم وعلى رأسه العدو الإسرائيلي.. ولا تزال في ملفات هذا الجهاز الحساس ما يثبت انه في أوقات الشدة الوطنية كان سدادا. ولا جدال أن حلمي السعيد فوجئ بتكليفه بهذه المهمة.. وحاول التملص – على ما يبدو – منها بدعوى أن صلاح نصر صديقه لكن عبد الناصر قال له: أنه ليس في نيته أن يذيع نتائج التحقيق ولا حتى خبرا عنه.. وأنه اختاره بالتحديد لقدراته على الكتمان وحفظ الأسرار. ولأن

صلاح نصر صديقه فإن حلمي السعيد سيكون الأقدر على معرفة الحقيقة بحجمها الطبيعي دون مبالغات..

ولكن ما حدث هو أن النظام استخدم هذه القضية في الدعاية السياسية في مرحلة ما بعد الهزيمة ليقول للناس التي فقدت الكثير فيه أنه يطهر نفسه بنفسه.. ويداري عوراته.. ويكوي جراحه.. ورغم أن الهدف بدا نبيلا وجريئا فإن النظام قدم دون أن يقصد سلاحا لطعنه.. وفتح ثغرة كبيرة لنقده.. وراح خصومه يستخدمون هذه القضية سنوات طويلة لنهش لحمه.. ولتصفية الحسابات القديمة معه.

ولعل شهادة الرجل الصامت.. البعيد عن الصراعات والمؤامرات التي تولى التحقيق فيها.. تعيد لهذه القضية حجمها الطبيعي، بعد حوالي ٣٢ سنة على تفجيرها..

فقد بدأ التحقيق في الساعة الثامنة من يوم ٢٨ أغسطس ١٩٦٧ وأنهاه في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١٤ أكتوبر من العام نفسه.. وكان يشاركه في هذه المهمة رجل المخابرات الشهير مُحَمَّد نسيم.. الذي عرف في مسلسل (رأفت الهجان) باسم (نديم قلب الأسد) وكان البطل الرئيسي في عملية (الحفار) الإسرائيلي وقد فجره في ميناء أبيدجان بساحل العاج.. كان التحقيق يدور حول سوء استعمال النساء والأموال السرية، وهو ما جعل من الضروري استدعاء ٤٤ سيدة وفنانة و٩ أفراد من خارج الجهاز بخلاف ١٤ فردا من قوة الجهاز.. وقد جرت التحقيقات في المخابرات العامة.. في مكان مستقل.. وكانت صورة منها ترسل إلى سامي شرف مدير مكتب عبد الناصر، وأمين هويدي رئيس الجهاز بعد صلاح نصر (ص ١٠٥)

ولا يدخل حلمي السعيد في تفاصيل التحقيقات، ولا نعرف السبب: هل هي طبيعته المحافظة؟.. أم احترامه لقانون السرية الذي منع الخوض في هذه القضية؟.. وإن جاء المنع متأخرا بعد أن نشرت كل تفاصيلها وأسرارها وأبطالها في الكتب والصحف وأصبحت مصدرا من مصادر النميمة والثرثرة في النوادي والمقاهي..

لا يدخل الرجل في التفاصيل، ولكنه يكتفي بالقول أنه هو ومُحَّد نسيم رفعا تقريرا إلى عبد الناصر الذي حوله إلى النيابة العامة (التي كان يتولاها المستشار علي نور الدين) ومنها إلى المحكمة. وفي التحقيقات والمحاكمات اتضح أن ثلاثة أفراد من الجهاز وثلاثة أفراد من خارجه متورطون في علاقات نسائية.. وهو رقم يبدو متواضعا بالقياس إلى حجم الضجة التي أخذتها هذه القضية.. وبالقياس إلى حجم الإنجاز الذي حققه الجهاز في تلك الفترة الشرسة في الصراع مع العدو الإسرائيلي ولكن يبقى الانحراف انحرافا، مهما كان حجمه ويبقى سببه الرئيسي البقاء في مواقع القوة طويلا بلا حساب، أو كأنه لا بد أن تقع مصيبة أو هزيمة حتى يكون التغيير والعقاب.

وأغرب ما يقوله حلمي السعيد في شهادته للأجيال: أن بعض النسوة كن يرفضن اللقاء بالرجال إلا اذا كانوا أجانب وهو ما دفع رجال صلاح نصر إلى (استخدام عدد من المترجمين من أفراد الجهاز للقيام باصطحابهن إلى الشقق الآمنة الخاصة بالمخابرات والمجهزة بمعدات التصوير، وكأن الانحراف الخلقي أسهل مع الأجنبي الذي لا يتحدث اللغة العربية.. أو كان الشرف مسألة محلية نتنازل عنها بالتصدير (راجع ص١٠٥ من المذكرات)

أما أكثر القضايا إثارة فهي قضية السيدة (نون) التي خاضت الصحف فيها كثيرا دون أن تتبين الحقيقة (ص١٠٥) وقد كانت السيدة (نون) وشهرتها الفنية (باء) على علاقة بأحد قيادات الجهاز وكان لها أصدقاء أجانب، ورغم أنها تحدثت فيما بعد أن ما لاقته من ما لقته من ضغوط عليها من هذه القيادة فالحقيقة أنها كانت وقعت إقرارا عام ١٩٦٠ لتكون مندوبة للمخابرات؟!

وكان جميع زملائها في الوسط الفني يعلمون علاقتها بالمخابرات وبقياداته وفي عام ١٩٦٢ قدموها إلى قيادة سياسية (وعسكرية) بارزة في إحدى الفيلات الآمنة في حجرة مظلمة ولما قامت الشخصية القيادية بإشعال سيجارة عرفته السيدة (نون) التي كانت تردد كثيرا أنها عرفته بسيجارة وفي ١٩٦٣ تزوجته بعقد زواج عرفي وشهد عليه اثنان من أشقائه.

وفي عام ١٩٦٥ قامت المخابرات بالسيطرة عليها بواسطة مترجم في الجهاز حتى لا تتحدث عن علاقتها بهذه الشخصية السياسية البارزة وأخطرت المخابرات هذه القيادة بعمل هذا الكنترول عليها (ص١٠٦) وفي التحقيقات ذكر ضابط كان برتبة نقيب أن القائد السياسي العسكري كان يحب السيدة نون إلى حد أنه كان يقارن بينها وبين زوجته الأولى وإلى حد أنها خططت لتأمين مستقبلها بالإنجاب منه، وعندما راح النقيب يبلغ القائد بخططها (على شرائط مسجلة) لم يتردد القائد بأن يبلغها بما سمع من النقيب الذي أصبح مصيره معروفا.. القبض عليه ووضعه في السجن. وإجباره على طلاق زوجته ليتزوجها شقيق القائد (ص١٠٧)

ونجحت السيدة نون في أن تنجب طفلا (في الساعة ١٢ ظهر يوم ٤ ابريل ١٩٦٧) من القائد السياسي وكانت حتى ذلك الوقت زوجته عرفيا (ص١٠٨)

ومن الغريب أن قيادات المخابرات العامة في تلك الفترة كانت تشجع القائد السياسي على توطيد هذه العلاقة مع السيدة نون بدلا من حمايتها منها (ص ١٠٨) وفي التحقيقات أيضا: أنه قامت علاقة بين أحد قادة الجهاز وشقيقة أحد القيادات السياسية وكذلك زوجة أحد كبار الموسيقيين التي كان يشك أنها على علاقة بجهات أجنبية وقد أكدت خادمة الموسيقي تردد قادة المخابرات والقائد السياسي على منزل الموسيقي الذي ضاق بهم وتم تعيين هذه الخادمة بالمخابرات (ص١٠٨)

وكانت المخابرات قد بدأت في مارس ١٩٦٣ في استخدام الجنس في عملها وراحت تجند الراقصات في الكباريهات (ص١٠٩) ولكن الغريب أن بعض قادة الجهاز عندما كانت تعجبهم سيدة من الفنانات يقومون بالسيطرة علىها وإجبارها على العمل مندوبة للمخابرات (ص١٠٨) ويقول حلمي السعيد: إن هذه القضية كشفت بعدا في شخصية عبد الناصر وهو شجاعته في مواجهة كل انحراف وحرصه على أن يعرف الشعب كل الحقائق وأن ينفض عن نفسه كل رواسب الماضي ليبني مستقبله ويحقق طموحاته بصفحة ثورية طاهرة وأشهد كم كان يعاني عبد الناصر وهو يتصدى بكل حسم للانحرافات والاخطاء منحازا للضمير الوطني مهما كلفه ذلك من

عذاب في معركة تصفية مراكز القوى التي ظهرت والتي وقفت في طريق التصحيح خوفا من ضياع نفوذها.

وفي المذكرات يتعرض حلمي السعيد لموضوع شائك آخر وهو وفاة المشير عبدالحكيم عامر هل انتحر أم قتل؟

ويقول (في ص١١٥) أنه سأل صلاح نصر عن عملية السموم ولماذا استوردتها المخابرات العامة؛ فأجاب أنهم استوردوا نوعا من السموم هو (أكونيت) يستخرج من نبات اسمه (خانق الذئب) وأضاف: أن الاستيراد كان لكبار القيادات في حالة الهزيمة لأن السم يحدث قتلا فوريا وبدون ألم؟! واستطرد: أن عبد الناصر غضب يومها (وكان ذلك قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧) وقال في حدة : مش انا اللي انتحر) لكن المشير عامر أخذ وحدة منها ووجدوا مكان لصقها بين فخذيه وهي التي أدت لوفاته) ذلك كله (ورد في استجوابي لصلاح نصر بتكليف من عبد الناصر للتحقيق فيما نسب لجهاز المخابرات من تجاوزات وجميع هذه الردود والتحقيقات مسجلة على شرائط وكلها سلمت للنيابة العامة.

إن التاريخ لا يكتب مرة واحدة ولا في زمن واحد ولا من زاوية واحدة التاريخ عملية مستمرة مثل مياه النهر تلقي مع استمرار الأمواج والمياه بالجثث الطافية وتزيل الشوائب والرواسب لتظهر الحقائق مهما طال الزمن.. ولو كانت شهادة السعيد هي شهادة رجل يعرف قيمة العقل وليس طرفا في صراعات ومؤامرات وحسابات فإن ذلك لا يعني أن كلمته رغم موضوعيتها الظاهرة ستكون الكلمة الاخيرة فمثل هذه الملفات لا تغلق بكلمة من هنا أو مذكرات من هناك فالمستور الذي تكشفه يجر في أذياله الكثير والكثير وكأنه يغوص في رمال متحركة.

ولأسباب غريبة تعذبت برواية النبطي

(النبطي حكاية امرأة قبطية شابة (مارية) تلاحق الأحداث والتطورات من خلال وجهة نظرها فالراوية تعيرنا حواسها لنرى ونفهم كل ما يدور من حولها إن ميزتها تكمن في قوة ملاحظتها ورهافة ذاكرتها هي امرأة استثنائية، في شخصيتها بعض السلبية فهي توافق من غير أي اعتراض على زواجها من التاجر (سلومة) الذي يكبرها بأكثر من عشر سنين وسلومة هذا سكير أحول وأبخر (كريه رائحة الفم) ويفتقر إلى الوسامة والتميز وترضى بالابتعاد عن أهلها وديارها فقط كي لا يُقال عنها عانس؟!)..

تقول عنها الرواية: (بي ارتجافاتي في حضنه فتحت عينيّ المسبلتين، فرأيت عينيه تغوصان فيّ، من فوقي، ومن خلفه بدت أطراف النخلات ورؤس الأعمدة، بعيدة جداً.كان وحده القريب، اللصيق لن يمر الآن أحد من هنا. مر ذلك بخاطري، فغمرتني رغبة تدعوني للذوبان التام والتوحد معه، ومع الأحجار المحيطة، ومع حدود الكون وأدركت أن ما يفعله بي، لي، لا له")

حدث الجذب لي من رواية "النبطي" فقررت أن تصاحبني، غير مكتفي بلحظات معها قبل النوم. عازما أن انتهى منها أو تنتهي مني.. فتحتها في نهاية يوم بكافي شوب بالمهندسين.

قلة القهوة والنيكوتين في دمي، دفعاني لأقرب مقهى قبل انصرافي للمنزل،كانت أغنية غير مالوفة تخرج من المكان تقول:"عندى طول الوقت رغبة في السكات والقعدة وحدي.."

أقرا من النص: (أما النبطي الذي تحمل الرواية اسمه فهو الأخ الأصغر لسلومة زوج مارية، أطلقوا عليه هذا الاسم منذ الصغر على الرغم من أن عائلته وقبيلته جميعاً

من الأنباط. والنبطي شاب جميل يخلب لب مارية منذ أول يوم تشاهده؛ في أثناء خطبتها، وتتمنى لو أنه هو الخاطب. وسيستمر نوع من الود المتوهج الغامض بينهما، حب تختفي جمرته المتقدة تحت كتلة كثيفة من رماد الأعراف والتقاليد والمخاوف)

يقول النبطي: (أنه يسمع نداءات من السماء، غير أنه لا يدّعي النبوة.. له دينه الخاص، وله صلته الشخصية العميقة مع صورة لإلهين يلهمانه. صورة ماثلة بقوة في ذهنه وهو مثقف بمعايير زمانه، يمارس سلطة الكلام، ويجيب على أسئلة الآخرين وبين الحين والآخر يذهب إلى جبل إيل في سيناء يصغي بخشوع لكلمات إلهه)

– قال من بجانبي: لا تنهمك بروايتك هكذا.. إنها فتنة صنعها زيدان بين حين وآخر فهو يقرص الإسلام في"النبطي" كما قرص المسيحية في "عزازيل" ليحقق لنفسه الحياد وبناءً على "شفويّات" روائيّة تحتاج إلى تمحيصٍ شديد ـ بأنها مواقف محايدة من التاريخ ـ على فرض التسليم بدعوى الحياد تلك لأن التاريخ هنالك متداخلٌ بالدِّين، بل إن الدِّين هو الذي صنع ذلك التاريخ والأحداث.كأن (زيدان) يتناغم بسلسلة رواياته تلك مع الحرب الفكريّة على الأديان؟

نظرت للجالس بجوارى الملتحي، البشوش في بدلة كاملة وفي يده مسبحة يحركها دوماً..

– قلت: لا أجد ذلك فيما قرأت؟!..

– قال: لا تجيد التركيز، أو لعلك لم تصل في الصفحات لما أقول.

– قلت: أنا بالفعل أجري وراء "مارية" ولا أعطي لغيرها اهتمام.

طلب الرواية مني وقلب صفحاتها، وطلب مني القراءة وجدت في الصفحات التي أختارها (مع حاطب امرأتان منكم، خائفتان، وهو يريد أن يؤنسهما بلكِ أخذهما من الدوق هدية للنبي القرشي؟ فسألت مارية: وما حاجة النبي بالنساء؟! فصمت. رد عميرو: أنبياء العرب يحبون النساء.. قال زوجي ساخرا: فما بال عمك النبطي يزعم أنه نبي وهو لا يحب النساءَ؟!)

وصفحة أخرى بالرواية (جاءوا له برِقاع مكتوب فيها (قرآن المسلمين)، فنظر إليها طويلًا، وجال ببصره في السهول البعيدة، ثم قام وهو يقول، وكأنه يحادث نفسه: "يأتي بهذا، ويُسيل الدِّماء"؟!")

– قال: النصّ بالرواية يسوقه زيدان حول ما جيء إلى النبطيّ به من قرآن، قال عنه ما قال معرِّضًا الراوي بالرسول وبحركته، متباكيًا ضمنيًّا على ما حدث لليهود بالمدينة.كأنه لا يعرف – كما يبدو وهو المهتمّ بعلم التاريخ ومخطوطاتها (الحيثيات التاريخيّة) وراء ما حدث لليهود في الجزيرة من تهجيرٍ، أن خطاب الرواية العامّ ظلّ ينضح بإشاراتٍ سلبيّةٍ حيال الإسلام والمسلمين، وحول الحركة التاريخية التي أحدثها الإسلام في جزيرة العرب وخارجها، ولعل من الشواهد الدالّة على ما أزعم وستتذكرها معي:

١– أن (سلّومة) وهو ذلك النَّبَطيّ السِّكِّير، الذي تزوّج بالقبطيّة (ماريّة) وكان، فيما يظهر، على الدِّين المسيحيّة، ما أنْ أَسْلَمَ، حتى انقلب حالُه، وتحوّلت طباعه، وصار تاجر حربٍ، وخيولٍ، وبَشَرٍ، ما أنْ أَسْلَمَ، حتى استولى على بيت زوجته في مِصْر، وعلى مالها الذي أودعتْه لديه، لولا شكواها لأخيه النَّبَطي (الهودي) ،فأعاد إليها بعضه.

٢– حتى (عميرو)، ذلك الصبيّ الوادع المسالم، أَسْلَمَ فصارت العصا (الشومة)، لا تفارق يده. وتحوَّل إلى شخصٍ عدوانيّ؛ ضَرَبَ بعصاه سِنانَ اليهوديَّ؛ حين غضب سِنان لرَفْس فَرَس سلّومة ابنَه فتسبّبت في قتله يخاطبه عميرو بفوقيّة، قائلاً: إن عليه أن لا يرفع صوته على "أسياده"! ٣– وأضاف: كأن الإسلام بحسب الرواية ـ سبب في تشريد الأنباط من ديارهم في شمال الجزيرة، مسلمين ويهود ومسيحيّين ووثنيّين، في هجرةٍ إلى مِصْر. ولا يبدو مستساغًا تبرير هذه المضامين؟

– أقول له في تندر: أبعد ألف ليلة، وأولاد حارتنا وكل الترويع والتعصب ولا يزال المسلسل مستمرا؟!..

– يقول: أن يكون المؤلف مؤرخاً فعليه أن يثق في التاريخ الذي يكتبه، أما أن يكون روائياً فعليه أن يكتب ما يثق فيه، ود."يوسف زيدان" مؤرخ بروح روائي، وروائي بقلم مؤرخ، فعشق الوقوف بالعتبات، عتبات الأزمنة قبل عتبات الأمكنة، فوقف في روايته عزازيل عند عتبة الدين المتحول لسلطة تقهر حرية الاعتقاد واختار الأرثوذكسية المصرية لتكون حجر تلك العتبة عند مدينته الإسكندرية، ثم جاء بعتبته الثانية في روايته الحديثة "النبطي" ليقف على عتبة زمنية أخرى، عند تلك اللحظة التي خرج فيها الدين الإسلامي من جزيرة العرب لفتوح البلدان، وعلى حدود الجزيرة العربية قبيل فتح مصر بدقائق تاريخية، على نحو أعاد فيه تقييم التاريخ عبر رؤيته كمؤرخ يعبر عن رأيه روائياً، فجاء التاريخ في نبطيه محدثاً ثورة على التقاليد التاريخية

– قلت: إنه المذهب اللكتيكي أو التفكيكى للرواية "القلقلة العنيفة للقواعد الفكرية المستقرة في التاريخ واللغة"، وقال به "جاك دريدا" و"فوكو" (١٩٢٦– ١٩٨٤م) و"بول دي مان"(١٩١٩– ١٩٨٣م). لم يفعلها على ما أعرف بالدين إلا(دان براون) التفكيكي المتطرف الذي ينتقد الأفكار المثالية المعتمدة، والراسخة في الثقافه، فعل بالمسيحية الأفاعيل في (شيفرة دافنشي)؟!

قال: قلده زيدان بشيفرة أخرى اسمها "النبطي" مازالت تسيطر على زيدان أصداء رواية "عزازيل" حيث يعيد في "النبطي" وصل الأحداث التي وقعت للفكر المسيحي المستنير في شخصية "الأب باخوم" رمز العلمانية المسيحية، ورأيه في حقيقة صلب "المسيح"، حيث يقول على لسانه:"إن الرومان كانوا يصلبون على عمود خشبي ليس له شكل الصليب" كما أن "الأب باخوم" كان يحتفظ بمخلاته بنسخة من إنجيل يهوذا، ويصور "زيدان" في شخصية "باخوم" رجل الدين العلماني المحب للفن، والرسم، ولبراءة الأطفال، وموقفه من الصراع مع الكنيسة الرومانية في البلدة البيضاء، أتباع خلقيدونية، لقد فعل كما تقول الأفاعيل، إنه يقلد دان براون!! والأمر في الحالتين غير مقبول، ولكن بالإسلام فعل أكثر، لأن "زيدان" يشكك أصلاً في رسائل النبي ﷺ، والتي ثبت تاريخياً انه أرسلها إلي "المقوقس" حاكم مصر، فيقوم

بقلقتة للثابت في التاريخ على نحو آخر، من أن الذي أهدى النبي ﷺ الشقيقتين "مارية"، و"سيرين" ليس المقوقس، حيث يلتقي "سلومة" التاجر النبطي بقافلة "حاطب بن أبي بلتعة" وهو في طريق عودته إلى مصر ومعه هدية الحاكم الروماني إلى النبي صلى الله عليه وسلَّم، ثم تمر سنوات، حدث خلالها فتح مكة، وإنجاب"مارية القبطية" لـ "إبراهيم" ليعلن "زيدان" فجأة أن الرومان جلبوا من جهة القوقاس أسقفا ملكانيا رهيبا ليحكم مصر، ويشيع الرعب في قلوب اليعاقبة الفقراء، اسمه "قيرس" ويسميه الناس"المقوقس"، بيد أن الثابت تاريخياً أن شخصية "المقوقس" كانت على مسرح الأحداث من قبل ظهورها عند "زيدان" بسنوات طويلة، فتذكر الباحثة "بتشر" أن كلمة "مقوقس" معناها الأفخم في اللغة الرومانية، ظنها العرب جزءًا من اسم "جرجس بن مينا بن كوبوس" المصري، والي مصر غير العسكري، وبقي في وظيفته بعد فتح العرب لمصر، فقد خلط "زيدان" بينه وبين "كيروس" حاكم مصر الوسطى.

قلت: أهذا بالرواية؟.. يبدو أني أقرا.. رواية أخرى؟!

أقرأ له من الرواية: "ستحتفظ مارية بسرِّها هذا، لنفسها، حتى وقت طويل مستعيدة في الليالي نكهة ذلك اللقاء العابر المدهش وهي تداعب جسدها فلم تجد في زوجها، فيما بعد، رفيقاً جسدياً وروحياً؟! فتنغمس في علاقة حميمة، مع شقيقة زوجها "ليلى" وهي أرملة جميلة ذات شهوة جنسية لا تكاد تخفيها وبحسب وصف مارية لها: (حين تبتسم، تلمع بين سمرة شفتيها أسنانها،كأنها نجوم مصفوفة تزين سواد الليل) ..

أشفط ثمالة البن وأقرأ: (ليلى) هذه غامضة، كالليل، وحالكة، وحافلة بالأسرار. العلاقة المحرّمة بينهما لن تلفت انتباه أحد، بيد أنها تعوّض مارية عن حرمانها العاطفي والجنسي مع زوجها "العقيم ـ جاهل المعاشرة" وشعورها بالوحدة وهي بعيدة عن أهلها، وقريتها. في البدء تختلي" ليلى" وحدها، بين الصخور تتعرى ويتهيأ لها بأن الجن يواقعها!! تسألها مارية وما الذي يفعله معك الجن؟! فتقول لها: يفعل العجب

العجاب؟ جرّبي مرة، وسوف تصدّقين وبعدها تسعدين!

– أقول له: يا سيدي إنها إيروسية مهذبة..

– يقول: ليس فيها إلا الفحش ففي الرواية بعد ذلك، تترك "ليلى" وهمها ذاك وتتعلق بمارية التي تهيم بها هي الأخرى.. تجلسان، وإحداهما تحدق في عيني صاحبتها.. تقول"مارية" بنص الرواية :(كأن عينيها كهف فيه شهد مصفى..تحرسه الزنابير يدفعني إليها غموضها، وبقربها يغمرني إغواء ملتبس مستحيل)

اقول لنفسى أنا اعيش مع الإروتيكية "الجسدية" بالنص والمتحزلق يبحث فيه عن كتابه المقدس.. إنها رواية؟!

ينظر لى ويقول: أنا أتابع الكاتب، بحكم عملي بالأدب والنقد، وعيب زيدان أن اجتهاداته تمس تاريخ المصريين بشرر (يتعرض"زيدان" في ثورية بالغة لكيفية فتح العرب لمصر، على نحو مخالف للثابت عند "السيوطي" في حسن محاضرته، وعند"البلاذري"، وعند "ألفرد بتلر" في "فتح مصر"، فقد شُغل جميع المؤرخين بقضية هل تم فتح مصر عنوة؟ أم بالاتفاق؟ فجاء فتح مصر عند "زيدان" على نحو خارج نطاق تلك القضية ذات الحدين، فجعل فتح مصر تم بالخدعة، ويفتعل واقعة تاريخية بعيدة عن الواقع حيث جعل اليهود يستجيبون لطلب المسلمين في الهجرة إلى مصر لكي يمهدوا لأمراء الحرب دخولها).. تأتي من ينتظرها فيقف الكلام في حلقه، ينشغل بها! حشر نفسه في روايتي فلما وصلت من ينتظرها لعن أبو خاشي وخاش الرواية وأعطاني ظهره.. يا للرجال؟!

كنت أرغب في التعرف عليه أكثر وعلى رقم محموله، فقد ينفع فيما بعد..خياشيم الصحفي لا تفارقني.

أعود للرواية بعد سرحان فكري.. تعقد الموقف وسممت الرواية، القراءة الآن بعيون الرقيب، بوليس الشك دخل بدون إذن نيابة غرفة الرواية يفتش محتوياتها ويتلصّص على أسرارها، وأدراج خزائنها، وألبوم صّورها، ورائحة سريرها، ومرآة

حمّامها؛ لتصبح قضية تجسس بدلاًمن بهجه وقت؟!

وتمضي قراءتي على وتره المتطرف.. عداني الرجل بباطنية قراءة النقاد؟ ضاعت حلاوة مارية!! : (يروي "زيدان" على لسان بطله "النبطي" العائد من العراق، أنباء تعكس رؤيته للصراع بين القبائل العربية على نحو يمزج بين الدين وكونه غطاءً للصراع القبلي العصبي، حيث قبيلة "تغلب" وهي واحدة من أقوى قبائل العرب تود لو تأكل العرب، ولكنهم يحتاجون إلى نبوة كستار ليحاربوا تحت رايتها، حيث عادت إلى بني تغلب قوتهم بعد هزيمتهم في حرب "الباسوس" التاريخية، واتحدوا مع بني بكر أبناء عمومتهم، حتي إنهم عرضوا على"النبطي" أن يكون نبيهم، وسيؤمنون له، إذا قال في الحرب وحياً يدعو إلى القتال)..

أهذا تلميح من "زيدان" إلى الآيات القرآنية التي نزلت في القتال، وكانت مبرراً لحروب قريش لبقية القبائل العربية؟!، كما أنه كان حريصاً على إضافة "القرشي" إلى اسم "النبي ﷺ، ولكن النبطي اعتذر لهم لأن نبوته لم تكتمل، فقاموا بطرده، وسبه، وإهانته، بعد أن كان نبيهم المأمول خاصة: (استفاضته في سرد وقائع المواجهات الدامية بين المسلمين واليهود ورصده لجسامة حجم كراهية اليهود للمسلمين، حتى أن "سلومة" نهى "مارية" عن الخوض في حكي النساء هذا، عندما كاشفته بسؤالها عن سر هذا التحول في العلاقة بين اليهود، والمسلمين؟!

لا شك أن رواية "النبطي" تقدم تأويلاً جديداً للتاريخ.. أقفل الرواية وأتصفحها بلا عناية، أصل للجمل التي تقفل بها (مارية) الرواية

"كان النبطي مبتغاي من المبتدأ، وحلمي الذي لم يكتمل إلى المنتهى مالي دوماً مستسلمة لما يأتيني من خارجي، فيستلبني.. أحجر أنا، حتى لا يحرِّكني الهوى، وتقودني أُمنيتي الوحيدة؟ هلا غافلتهم، وهم أصلاً غافلون، فأعود إليه..لأبقى معه، ومعاً نموت، ثم نولد من جديد هدهدين"

هدى شعراوي التي لم يعرفها أحد؟!

اسمها الحقيقي: "هدى محمد سلطان"، وعند آخرين :"نور الهدى محمد سلطان"، ولها اسم حركي تاريخي، رائدة الحركة النسائية في مصر. أما النساء فيسمونها: "هدى هانم شعراوي"، ولها اسم لا تحبه: "أم محمد"!! نادتها به (المطربة فاطمة سري، والزعيم النحاس باشا) ولدت بالمنيا في ٢٣ يونيه ١٨٧٩ وأبوها هو محمد سلطان قائمقام الخديوي توفيق وخصم الزعيم عرابي أما أمها فجارية بيضاء جميلة (ألبانية) وهبها الخديوي إسماعيل لأبيها، فأعتقها، وتزوجها، اعتزازا بهبة الخديوي له، وأعجب الخديوي ذلك ومنحه أرضا بمكان بدمياط اشتهر بكفر البطيخ، فأنجبت منه فتاة بيضاء كأمها هي (هدى)، وأخاها (عمر) الذي أصبح (عمر سلطان باشا) وتوفي أبوها وهى في الثامنة من عمرها، ونشأت وسط أمها وأخيها. وابن عمتها (علي شعراوي) الذي تولى الوصاية عليها، وعلى أخيها كوصية الأب. ولقد وفرت لها أسرتها نشأة كريمة وغنية وثرية فتعلمت الفرنسية والعربية والموسيقى. وكان (علي شعراوي) في ذلك الوقت متزوجا وأنجب ابنه الأكبر (حسن) الذي أصبح كالعادة بين من يملكون الأرض والثروة (حسن شعراوي باشا). ويبدو أن علي شعراوى الذي كان يكبر هدى بثلاثين عاماً قد زار كيوبيد قلبه فأحب هدى وكتم حبه وعف، وبخاصة أنها كانت تناديه "بير شعراوي" وتعني بالفرنسية (بابا شعراوي) إلا أن الأمور كانت تسير لصالحه فهو رجل طيب، يحبه الجميع, نظيف اليد، عف اللسان، مهيب الطلعة، مستقيم السلوك من بدء حياته وحتى نهايتها. واستطاعت أم (هدى) أن تلمح في عينيه ما لا يخفى فهو كريم معهم بما يزيد عما كان عليه الأمر في حياة زوجها محمد سلطان، وهو ضعيف أمام تلك الفتاة الدلوعة الناضجة، كبيرة الجسد بحكم الثراء وجودة الغذاء ورفاهة الكساء. إنها كما يقول الفلاحين (زرع بدري) أنوثة قبل الأوان، وكانت هناك مجموعة من المصالح أرضه وأرضها، وضياعه وضياعها، وكما يقولون

المصالح تتصالح!! والتقت الرغبات. بأن يتزوج (علي شعراوي) بـ (هدى سلطان) على عكس رغبة وإرادة هدى. فقد كانت رغبة من أمه (شقيقة مُحَمَّد سلطان) ورغبة من أم هدى نفسها في أن يكون طفلاها: عمر وهدى في كنف ورعاية (علي شعراوي) ليس بالوصاية فقط، ولكن برابطة أقوى (الزواج) وقد تهلل (علي شعراوي) حينما وجد أباه حسن باشا شعراوي (الفلاح الذكي) الثري (عمدة المطاهرة) مركز المنيا الذي لا يجلس أمامه إلا متهيباً، لا يمانع في هذا الزواج!! بل إن حسن باشا إنما جعلها وكأنها وصيته الأخيرة لأنه كان مريضا فقد كان الرجل يكرر في أيامه الأخيرة شيئين: ثقة مُحَمَّد سلطان فيه وفي أهله حتى أنه جعل ابنه وصياً على أسرته وثروته دون أحد غيره رغم إن ثروة مُحَمَّد سلطان وقتها كانت (اثنى عشر ألف فدانا) أما الشيء الآخر فهو جميل (مُحَمَّد سلطان) أبو هدى عليه فهو لا ينسى نفوذ شقيق زوجته ووقوفه معه حتى أصبح نائب المنيا في برلمان ١٨٦٦م. ثم كيف كانت له اليد الطولى في وصول ابنه (علي شعراوي) نفسه ليصبح من بعده نائب المنيا في برلمان ١٨٨١م؟!

وتوافقت الأوضاع الأسرية، وتزوجت هدى من علي تحت ضغط النساء والزن على الودان. ويقال أنه بعد سنتين من الزواج ضيق خلالها على شعراوي على هدي الخناق في الخروج والزيارات ونقلها معه إلى الإقامة في الريف، فانفصلا (ويقال في ذلك أن عقد الزواج اشترطت فيه هدى شعراوى ألا يكون لها ضرة، سواء "زوجة سابقة – أو لاحقة " فإن وجدت فسخت عقدها واعتبر كان لم يكن) ولم يستطع علي شعراوى أن يفي بالعقد، فبعد طلاقه لزوجته الأولى، عاد لها في السر وبقي معها حتى أنجب منها ابنه حسن! فلم يكن تحول هدى سهلاً ،كان عليها أن تحول احترامها لحب، وبنوتها إلى زواج، وحياءها إلى علاقة زوجية ولا يعرف هل كان الانفصال بالطلاق أم كانت فترة هدنة بعد أن فشلت التغيرات المتلاحقة بالصدمة والسرعة والمفاجأة لجعل هدى عروسة صالحة للزواج بكل أبعاده ومراميه.. والغريب أن هذا الانفصال استمر سبع سنوات؟! قضت هدى منها في الإسكندرية معظم

الوقت؟ أما الباقى فسافرت خلاله إلى تركيا.

أما (علي شعراوي) فشغلته السياسة والوطن وقضايا كثيرة. ولظروف كثيرة عاد الود. فعادت هدى لزوجها. كان من هذه الظروف ترك علي شعراوي أمر الأرض لأخي هدى – عمر– فبارت وقل محصولها، وكان منها وفاة زوجة علي شعراوي الأولى. أما الأكثر تأثيراً فهو هدى نفسها التي تغيرت فصارت أنضج وأضيف لكمال الجسم أناقة غريبة في ما ترتديه. وملكت شخصيتها الإقناع بدلاً من الغضب والبكاء الذي عانى منه علي شعراوي في البداية ووافق علي شعراوي على كل شروطها: السماح بالدخول والخروج والإقامة في القاهرة ووضع ثروته كلها تحت تصرفها وكانت وقتها (تسعة آلاف فدانا) وأن يكون لها نشاط اجتماعي كما له نشاط سياسي؟! ورغم ذلك لم يكن زواج هدى شعراوي عسلاً كله، إنما كان فيه الخلاف والبعد والجفوة وترك البيت فإذا كان علي شعراوي قد أرخى اللجام لهدى، فإنه لم يتركه من يده. فقد كان الرجل بطبعه فلاحا ومسلما متزمتا، وتروى عنه أقاصيص تجعله يلحق بركب العارفين بالله وكان أيضاً ثائراً استطاع أن يكون في فترة قليلة أحد دعامات حزب الوفد. ويكفيه ما قاله عنه (عبد العزيز فهمي): أما علي شعراوي فكان من خيرة الوطنيين المخلصين، بل إنه من أخلص رجال مصر، وأكثرهم حباً للوطن، وكان جريئاً في الحق يقول ما يعتقد ويحافظ على كرامته لأقصى حد. وقد تعجب في أن هدى شعراوي كانت لا تواجه زوجها مباشرة بما تريد من عمل أو نشاط وإنما تستعمل عبارة: صفية زغلول بتقترح: سعد باشا زغلول بيقول!! وكانت موافقته التزاما حزبياً أكثر منها رضاءً زوجيا!.. بل إننا لا نعجب إذا عرفنا أن علي شعراوي كان معارضاً لخروج نساء الوفد في ثورة ١٩١٩!! وعارض بشدة في أن تكون لزوجته سكرتيرة ذات ثقافة فرنسية وجذور مسيحية (سيزا نبراوي) وقال لها: يا ستي شوفي واحدة ريفية!!.. وثار ثورة غريبة عليهما حينما أعلنت في أحد اجتماعاتها إرسال (أحمد الصاوي محمد) ليتعلم في السربون على نفقتها الخاصة لأنها شعرت أنه ظلم من النظم الموجودة بالجامعة. لم يكن معترضاً على الفعل وإنما على الشكل فهو

على استعداد أن يرسل الصاوي ومعه خمسون للسربون على نفقته ولكن لماذا تفعلهما امرأة؟! وزوجته؟! إنها تقبض منه لتنفق على نشاطها أضعاف ثمن بعثة (الصاوي) فلماذا يظهر مالها الخاص الآن!! وبعبارة زوج فلاح قال علي شعراوي: إشمعنى الصاوي؟! ما عندك البنات!! وفي عبارة أكثر غضباً يا ستي شوفي ابنك (مُحَّد)، ولكن هدى شعراوي استمرت في عنادها حتى أنها عند زواج الصاوي، جعلت الزفاف في بيتها واختارت له أجمل عروسة في مصر (درية شفيق). وتم ذلك في تكتم، لم يفضحه إلا جريدة الأهرام.

أما الثورة الكبرى ففي سنة ١٩٠٦حينما فوجئ علي شعراوى أثناء صلاة الجمعة بإمام جامع السلطان أبو العلا. يسب ويصب لعناته وويلاته على امرأة تدعو للفسق والفجور.. قال الشيخ: أفي المحروسة والإسلام بين أظهرنا، تخرج بدعة بإنشاء نادى خاص للنساء لمزاولة الرياضة واللعب والسباحة.. ما يتبع ذلك من هرج وسفور ومرج وتبرج.. وأنهى الشيخ خطبته بأنها بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.. وغضب علي شعراوي مع الغاضبين ودعا مع الشيخ والداعين:

– اللهم أسكت كلمتها وأوقف بدعتها.

– أمين.

– اللهم رد دعوتها ومن يدعون معها بها وأرجعهم خائبين مدحورين.

– آمين.

وعاد الشعراوي لمنزله وعلى مائده الغذاء سمع زوجته هدي شعراوي وفوجئ بأنها صاحبة الفكرة إياها زوجته المصونة والجوهرة المكنونة تدعو لنادٍ خاص للنساء يلبسن فيه الشورت والمايوه ويلعبن السباحة! وسألها زوجها: سيزا نبراوي زنت على ودانك كعادتها!!..

لكن الروايات تجمع على أن حب (هدى شعراوي)كان قوياً ومؤثراً على (علي

شعراوي) فكان يعترض عليها ولكنه لا يستطيع الفكاك منها. يثور ويكسر الأطباق ويترك المنزل للريف الذي أحبه ولكنه لا يعرقل مسيرتها ولا يهدم أعمالها ولا يقف ضدها. وتتفق الروايات على أن جرأة هدى شعراوي كانت وراء دفع (علي شعراوي) في حزب الوفد. وأنها سعت بقوة ليكون زوجها مشاركاً بشكل تاريخي في الحركة الوطنية، ولعل يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ كان بداية إيمان علي شعراوي (بزوجته هدى) فقد كانت وراء إقدامه على مشاركة سعد زغلول وعبد العزيز فهمي في مفاوضات الإنجليز مع (سير رونالد) وعرض القضية على مؤتمر الصلح في (فرساي) وبأسماء الثلاثة وقع المصريون على عريضة تاريخية وغريبة عليها ثلاث ملايين توقيع بأن الثلاثة ممثلين للأمة في قضية الاستقلال مع الإنجليز. وقامت هدي بدور مؤثر من خلال (لجنة الوفد للسيدات) في جمع هذه التوقيعات، وبالطبع وجدنا على العريضة أسماء إناث ونساء لم تتح لهن الظروف كتابة أسماءهن من قبل.كن ينظرن لأسمائهن مكتوبة وكأنهن يرونها لأول مرة. لها أثر وفعل ووضع سياسي ومصيري في حياة أمتهم. ويذكر أن بعض الريفيات قلن لهدى شعراوي:

– إننا لا نعرف الكتابة لكننا نريد سعد وزملاءه؟!

وبينما كانت العريضة بها بعض بصمات الرجال كات هدى شعراوي تجمع النساء وتدربهن على كتابة الاسم. فهى لا تحب أن يرى الإنجليز المرأة المصرية مجرد بصمة!! وبالرغم من نضج نشاطها في عامي ١٩٠٧– ١٩٠٨ وسفرها وحضورها مؤتمرات خاصة بنشاط المرأة ساعدها في ذلك حيويتها وأموالها، فإنها حينما دخلت الوفد بجانب زوجها ومارست من خلاله نشاطها، تدخلت السياسة وأسمتها هدى شعراوي بدلاً من هدى مُحَمَّد سلطان. وهو ما حدث من قبل مع زوجة الزعيم سعد زغلول سموها صفية زغلول بدلاً من صفية مصطفى فهمي، فقد كان لكل من الأبوين: مُحَمَّد سلطان ومصطفى فهمي، علامة وتاريخ متين مع الإنجليز!!

فلقد أراد الوفد أن يكسبها بلا أى انتقادات؛ فأبوها مُحَمَّد سلطان كان موضع

هجوم شديد من الشيخ مُحَمَّد عبده أستاذ سعد زغلول. وكان يرى قتله لخروجه على الخط الوطني وانضمامه إلى الخديوي توفيق ضد عرابي وكان سعد زغلول نفسه مع ثورة عرابي يؤيدها على عكس ما كان الوضع في الحزب الوطني الذي كان يعتمد على تركيا (الباب العالي) فقد حمل مُحَمَّد سلطان قرار السلطان العثماني بعصيان عرابي ورفاقه إلى (العربان) بالإضافة إلى بعض المال ومنشور الخديوي نفسه وبعض مساعدات الإنجليز. الأمر الذي كان له أثره في خيانة عرابي في المعارك التي دخلها بل إنه قام مقام الخديوي نفسه عندما احتجزت أحداث الثورة العرابية الخديوي توفيق في الإسكندرية. فأدار الأمر كما يريد الإنجليز

وفي هذه الفترة فتح ديليسبس قناة السويس بعد أن ضمن لعرابي حياد القناة وخانه فتحولت ثورة الرجل الثائر عرابي إلى هوجة عرفت باسم (هوجة عرابي)!!

وحتى لا يظهر الأمر على حقيقته سميت نساء لجنة الوفد بأسماء أزواجهن السياسيين المشاهير؟! (ولأننا لا نسيئ أو ننظر للأمر بلون واحد نذكر ما قاله د: (عبد العظيم رمضان): فهو يقول بأن البرلمان الأول في عصر توفيق (نوفمبر ١٨٩١) كان تحت رئاسة (مُحَمَّد سلطان باشا) والد هدى شعراوي وهو الذي سماه ببرلمان (توفيق– عرابى) وأن حركة الجيش التي قام بها عرابي وزملاؤه بدأت بعيدة عن الحركة الوطنية التي قام بها الزعماء الدستوريون مُحَمَّد سلطان باشا،ومُحَمَّد شريف باشا وغيرهم التي كان تستهدف إقامة حكم دستوري. أما حركة الجيش فقامت لأسباب خاصة تتعلق بسوء أوضاع الضباط المصريين بالنسبة لضباط الشراكسة. وأنه عندما استعجل الخديوي وألقى القبض في يناير ١٨٨١ على أحمد عرابي وزميليه: علي فهمي وعبد العال حلمي وحبسهم في ثكنات قصر النيل، أسرع أفراد من الجيش وأطلقوا سراحهم وكانت الخطة أن يهرب عرابي ويختفي مع رفيقيه خوفاً من بطش الخديوي، ولكن عرابي أظهر شجاعة نادرة إذ قرر أن يتجه لقصر عابدين بهذه القوة ليتحدى عباس رفقي وزير الحربية وقتها

وفي فبراير ١٨٨١ قدم عرابي للخديوي طلبا خاصا بالجيش بتعيين سامي البارودي وزيراً للحربية، وبالرغم من أن حادث قصر النيل لم يقصد منه التمرد على الخديوي ولا مواجهة النفوذ الأجنبي. فإنه كان له أثره على الرأى العام فأكسب الحادث عرابي شهرة باعتباره استطاع أن يتحدى حكومة رياض باشا ويرغمها على تغيير الوزراء الأمر الذي جعل القادة الدستوريون يسعون إلى الجيش، وأخذت تعقد الاجتماعات للاتفاق على برنامج عملي سياسي وأخذ المسرح السياسي يستعد لمظاهرة عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١!! واتضح التنسيق في أهداف عرابي التي قدمها للأمة فقد وضع الدستوريون مبادئهم في مطلبين من أربعة لعرابي:

* إسقاط الوزارة المستبدة.

* تشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي

وبغير هذا التنسيق لم يكن مُحَمَّد شريف باشا ليختار لتأليف الوزارة الجديدة. وإنه لا ينكر أحد أن (مُحَمَّد سلطان باشا) في ذلك الوقت وهو رئيس للبرلمان، خرج حتى على الدستوريين، حينما طلب شريف باشا ألا يكون لمجلس النواب حق مناقشة الميزانية وإقرارها وحينما قال شريف باشا (مناقشات البرلمان في هذا ستعطي إنجلترا وفرنسا حق التدخل) وقال له (مُحَمَّد سلطان) ونحن لن نسمح لهم. إلا أنه بسقوط وزارة شريف باشا وظهور وزارة شبه عسكرية برئاسة محمود سامي البارودي في فبراير ١٩٨٢ وفيها عرابي وزيراً للحربية ظهرت العين الحمراء لفرنسا وإنجلترا في مصر. ورغم ما يقرره د: عبد العظيم رمضان فإن المصريين لم ينسوا دخول الإنجليز على خيولهم ومعهم مُحَمَّد سلطان باشا يرحب ويهش وينش لهذا الاحتلال؟! ولم ينس ذلك لا سعد زغلول ولا الشيخ مُحَمَّد عبده.

قبض الإنجليز على سعد زغلول يوم ٨ مارس ١٩١٩ وقامت الثورة في اليوم التالى. ولكنها كانت في أسبوعها الأول ثورة رجال فقط. واجتمعت في بيت سعد زغلول: صفية زغلول وهدى شعراوي وحرم مُحَمَّد محمود باشا. وقالت هدى شعراوي

أنها كتبت برقية احتجاج باسم سيدات مصر إلى زوجة المندوب السامي البريطاني، وأن زوجها علي شعراوي أخذ البرقيات وعرضها في اجتماع الوفد وعاد لها متهللاً:

لقد أعجب الوفد ببرقيتك حتى أننا قررنا حفظها في محضر الجلسة.. وقالت صفية: البرقيات لا تكفي يجب أن تخرج المرأة المصرية إلى الشارع.. فقالت زوجة مُحَمَّد محمود: إنني لم أضع قدمي في الشارع منذ زواجي ولكني موافقة على الخروج ولو ضربني الإنجليز بالرصاص..

وقالت هدى شعراوي: إذن نحن في حاجة لمظاهرات نسائية تهتف بسقوط الاحتلال، ولو قتل الإنجليز منا واحدة فسوف تلتهب مصر كله. اتركوها لي.

واتصلت هدي شعراوي بزوجها علي باشا تعرض عليه الفكرة فذهل! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشارع! ولكنها استعملت طريقتها قائلة: إن صفية زغلول ترى ذلك وهي ترى أن هناك سلبية من الوفد في معالجة أمر القبض على سعد زغلول، زعيم الأمة، فاعرض أمرها في اجتماع الوفد الذي ترأسه باعتبارك رئيس الوفد بالنيابة.

وعند عرض الأمر على اللجنة وقف عبد العزيز فهمي: "ومن أخطرك بذلك يا شعراوي؟!" فقال الشعراوي: "زوجتنا المصون التي كانت في زيارة لأم المصريين وكان معها حرم مُحَمَّد محمود باشا"، فسأل عبد العزيز فهمي مُحَمَّد محمود باشا: "هل علمت بذلك من زوجتك؟!"

فقال مُحَمَّد محمود فهمي: "لا.. وإني أسجل من الآن رفض الفكرة، ولن تخرج زوجتي من منزلها، ولن تزور أحد بعد اليوم"

وإذا بعبد العزيز فهمي ينظر شزرا للشعراوي ويقول:

– إني أعجب أن سيدة عاقلة مثل صفية هانم تقترح مظاهرة النساء في الشوارع؟!

وضاق علي شعراوي بما قاله عبد العزيز فهمي فمعنى ذلك أن زوجته صاحبة الفكرة وأنها المجنونة الوحيدة بين النساء الثلاثة فقال:

– ولماذا لا نسأل صفية زغلول؟!

ويقول عن ذلك مصطفى أمين في كتابه (من واحد لعشرة): اتصلت هدى شعراوي بزوجها علي شعراوي باشا تعرض عليه الفكرة فذهل! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشوارع! وكان علي شعراوي باشا رجلاً وقوراً في السبعين من عمره، يطلق لحيته ومن أهالي المنيا المحافظين المتمسكين بالتقاليد، ولكنه كان أكبر بأربعين سنة من زوجته وكان يحبها حباً يقرب من العبادة، فلم يستطع أن يقاوم تصميمها على المظاهرة، وخاصة بعد أن أخبرته بأن هذا رأي صفية زغلول وحرم مُحَمَّد محمود باشا، فوعد بأن يعرض فكرة مظاهرة السيدات على أعضاء الوفد في الاجتماع ويبلغها بالنتيجة. وعقد الوفد اجتماعاً وما كاد يعرض علي شعراوي باشا الفكرة حتى هاج وماج كل الأعضاء ورفضوا خروج النساء في مظاهرة، وكان من رأي الأغلبية أن هذا الفعل وقاحة وقلة حياء. وكان من رأي الأقلية أنها مع تقديرها للوطنية التي أملت هذه الفكرة الجريئة. إلا أن الأغلبية العظمى للشعب تستنكر خروج النساء إلى الشوارع، وأن هذا سوف يقسم الرأي العام في مسألة فرعية، بينما هو مجمع لأول مرة على مسألة واحدة هي مسألة الاستقلال، فخروج النساء للشارع سيجعل البعض يعتبر الثورة خروج على الدين الإسلامي، وبذلك تنفض أغلبية الشعب عن الثورة.. وكانت الأغلبية التي تعتبر خروج المرأة إلى الشارع وقاحة وقلة حياء مؤلفة من: علي باشا شعراوي نفسه، وعبد العزيز فهمي، ومُحَمَّد علي علوبه وجورك بك خياط وحسين باشا واصف وعبد الخالق باشا مدكور ومحمود أبو النصر بك وعبد اللطيف المكباتي بك..وكانت الأقلية التي رفضت رفضاً دبلوماسياً خشية انقسام الأمة من: أحمد لطفي السيد بك ومصطفى النحاس بك وسنوت حنا بك وعلي ماهر بك ودكتور حافظ عفيفي. وذهب عبد العزيز فهمي للسيدة (صفية زغلول) ووجد منها إصراراً، واعتبار منع ذلك تخاذلا. وأنهى عبد العزيز فهمي الحديث وهو يحاول جاهداً أن

يمسك أعصابه ويقول: تأكدي أنني أحترم المرأة وأقدرها..

فقالت له صفية:

لو كنت تحترم المرأة لما حاولت أن تحرمها من شرف الدفاع عن بلادها!

وأسرع عبد العزيز فهمي بك إلى زملائه وقال لهم أنه يخشى أن تكون صفية هانم قد جنت. وأن صدمة نفي زوجها، أثرت على عقلها! وسمع عبد الرحمن فهمي بما حدث فتطوع بأن يتولى إقناع صفية هانم نظراً للعلاقة الوثيقة بينه وبينها، ولكن صفية انقضت عليه كما انقضت على عبد العزيز فهمي. وقالت له إن نساء مصر لسن أعضاء في الوفد ولا توجد امرأة تمثلهن في الوفد. ولهذا ليس من حق الوفد أن يصدر الأوامر إليهن! وتحمست السيدات المصريات لتحدي قرار الوفد، واجتمعت مئات السيدات في بيت الأمة، تولت هدى شعراوي الاتصال تليفونياً بعدد من صديقاتها، وراحت السيدة أستر فهمي ويصا وهدية بركات وعطية أبو أصبع وفكرية حسن وإحسان القوصي يتصلن بمعارفهن وصديقاتهن وقريباتهن للاشتراك في مظاهرة حدد لها يوم ١٦ مارس.. بعد سبعة أيام من قيام الثورة. واتفقت السيدات على أن تجتمع عدد منهن في بيت الأمة، وعدد ثان في منزل أحمد بك أبو أصبع في ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير الآن) ثم يتجمع الفريقان في لحظة واحدة بحديقة جاردن سيتي ومن هناك تتحرك المظاهرة الكبرى..

ولم ينم عبد الرحمن فهمي الليل! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تزج المرأة بنفسها في السياسة! لماذا تريد أن تفسد بتصرفها وقار الثورة؟ وكان أكثر مما يزعجه موقف زوجة صديقه وزعيمه سعد زغلول. إنها هي التي تنادي بأن تخرج المرأة المصرية إلى الشارع. وفي الوقت نفسه عندما استقبلته ليناقشها في هذا القرار لم تقابله وجهاً لوجه. بل إنها وقفت تحدثه من خلف الباب! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط من وراء الستار! أي أنها حرصت على ألا تظهر بوجهها له في غياب زوجها، بينما كان يتناول معها الغذاء والعشاء وهى سافرة في حضور سعد، فإذا كان هذا هو مبلغ حرص

صفية على التقاليد فما الذي جعلها تخرج عليها وتصر على خروج النساء إلى الشارع متظاهرات! وماذا يحدث لو أن الأزهريين اعتدوا على النساء المتظاهرات! وماذا يحدث لو أن بعض الشبان تعرض لهن وألقي عليهن الكلام إياه!!

وفي ١٦ مارس ١٩١٩ عقدت نساء مصر اجتماعاً في الكنيسة المرقصية وتم انتخاب اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات برئاسة هدى شعراوي ونظموا مظاهرة ضد الاحتلال. وأعلنت هدى شعراوي أن شهيدات الثورة هن: شفيقة مُحَمَّد (أول مصرية تسقط صريعة برصاص الإنجليز) وفهيمة رياض وعائشة وحميدة خليل عدا أخريات مجهولات.

وعندئذ فقط آمن عبد الرحمن فهمي بأن صفية وهدى على حق في إصرارهما على اشتراك المرأة في الثورة. وبطبيعة (عبد الرحمن فهمي) العسكرية أعجبه التكتيك الحريمي فقد كان الضابط الوحيد في ثورة ١٩١٩م. ورغم إلحاحه على حاجة الثورة إلى الضباط الوطنيين فإن سعد زغلول لم يوافق على ضم ضباط إلى القيادة؟! فقد كان يرى مكان اجتماع النساء في الكنيسة المرقصية فكرة عسكرية ضمنت سلامتهن وعدم التعرض لهن؟! وسأل علي شعراوي عن ذلك فقال له: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان؟! ولم يقل شيئاً.

وسجلت هدى شعراوي (خروج المرأة المصرية لأول مرة) في مذكراتها فقالت: تشكلت لجنة مركزية كان لي شرف رياستها وعملت تلك اللجنة على تنظيم صفوف المرأة في هذا الجهاد العظيم، ولما قام الإنجليز يصبون نيرانهم على الثائرين، قررت اللجنة إعداد مظاهرة كبيرة تخرج فيها النساء رغم قيود الأحكام العرفية التي تحرم المظاهرات، وتعرض القائمين بها لرصاص الجيش وإلى ما تبع ذلك من عقوبات السجن والتعذيب. هذا كله لم يثن من عزم نساء مصر، فطلبت لجنتنا من السلطة المختصة الإذن بهذه المظاهرة السلبية. فرفض طلبها ولكننا قررنا القيام بها حسب الخطة التي وضعناها وهي أن نبدأ السير من منتزه (قصر الدوبارة) القريب من

المفوضية الأمريكية لنقدم لها احتجاجنا أولاً، وبينما كنت أتأهب لمغادرة منزلي في ذلك اليوم للاشتراك في المظاهرة بادرني زوجي بالسؤال: "إلى أين تذهبين والرصاص يدوي ويتساقط في أنحاء المدينة؟" فأجبته: "للقيام بالمظاهرة التي قررتها اللجنة". فأراد أن يمنعني، فقلت له: "هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط. وليس للنساء نصيب فيها؟"

فأجابني: "هل يرضيك إذا تحرش بكن الإنجليز، أن تفزع بعض النساء ويولون (يا لهوتي).."

فقلت له: "إن النساء لسن أقل منكم شجاعة أيها الرجال؟!".

وتركته وانصرفت ولحقت بالسيدات اللاتي كن في انتظاري وغادرنا عرباتنا وشكلنا أول مظاهرة نسائية منظمة نحمل فيها لافتات كتبت عليها عبارات وطنية وحمل بعضهن أعلام جميع الدول إلا علم الإنجليز وسارت المظاهرة في جلال قاصده المفوضية الأمريكية أولاً حسب البرنامج وكانت تقابل من الجمهور بالتصفيق وتنثر عليها الأزهار من نوافذ المنازل، وعلمنا أنه أمام قنصلية فرنسا وقف جمهور من الفرنسيين معهم باقات الزهور استعداداً لتحيتنا، وكان المقرر أن نمر بها وبباقي المفوضيات وتنتهي ببيت سعد.

ولكن للأسف عندما وصلت المقدمة إلى شارع سعد زغلول، دهشت إذ رأيت الموكب يتحول عن الخطة المرسومة قاصداً بيت سعد أولاً. فأرسلت إلى الدليلات أذكرهن بالاتجاه المتفق عليه، فقلن إنه في آخر وقت انفصلت بعض سيدات المقدمة على أن تبدأ المظاهرة من بيت سعد.. ولا أدري إن كان هناك تدبير مبيت لذلك؟ وعندما وصلنا بيت سعد وجدنا أنفسنا محاصرات بالجيش البريطاني كأنه كان في انتظارنا هناك. ولما أردنا اقتحام صفوفهم تحرش بنا الجنود، وارتكز أحدهم وصوب بندقيته نحوي فتقدمت إليه وإذا بإحدى صديقاتي تسحبني من الخلف فقلت لها بصوت مسموع: "اتركيني فإني أريد أن تقع في مصر اليوم "مس كافيل" أخرى" ولكن

الغريب أن عبد الرحمن فهمي عندما يسجل مذكراته فيما بعد يتجاهل شجاعة (هدى شعراوي) ويقرر بأن الذي قالت: (اتركيني فإنني أريد أن تقع في مصر اليوم مس كافيل أخرى) وواجهت بنادق الإنجليز بشجاعة الفرسان إحدى المتظاهرات[٦]؟!

وإن كانت (د.آمال السبكي) في كتابها الحركة النسائية في مصر تقرر بأن لديها تسجيل ذكرت فيه هدى شعراوي أنها قائلة تلك الكلمة وصاحبة هذا الموقف.

ويصف الرافعي مظاهرات ١٦ مارس ١٩١٩ في كتابه (ثورة ١٩١٩، ص١٢٠ القاهرة ١٩٤٧م): لم تشأ المرأة المصرية أن تحجم عن المساهمة في تلك الثورة التي اشتد لهيبها فأرادت أن تحظى بشرف هذا العمل المجيد حتى تبرهن للغاصب المحتل على أنها ليست أقل قوة وعزيمة عن أختها الغربية، وحتى تذكي نار الحماسة الوطنية في قلوب الرجال؛ ففي ١٦ مارس انطلقت كثيرات من عقائل العائلات الراقية يجبن أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال، مناديات بسقوط الحماية. وقد مررن بموكبهن بدور القنصليات ومعتمدي الدول الأجنبية والناس من حولهن يصفقون لهن ويهتفون والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن فكان ذلك منظراً جميلاً رهيباً يأخذ بمجاميع القلوب. ولكن لم يكن للسلطة أن تترك مثل هذا الموكب الرائع دون أن تشوه من جلاله فضرب الجنود الإنجليز نطاقاً حولهن وسدود إليهن فوهات بنادقهن وحرابهن على أن السيدات لم يرهبن هذا التهديد، ولم يفت عضدهن مشهد أولئك الجند المسلحين بل تقدمت واحدة منهن إلى جندي كان قد وجه إليها بندقيته وقالت له بالإنجليزية:

---

(٦) هذا الراى يقول به أيضاً: أيمن نور (من حزب الوفد الجديد) ويرى أن هناك مظاهرتين للنساء بارزتين ومعاصرتين لثورة ١٩١٩: الأولى: مظاهرة النساء في ١٦ مارس ١٩١٩ وقادتها هدى شعراوي وهي شبه رسمية لنساء الوفد واقتصرت على (النساء الوفديات في اللجنة التنفيذية للحزب). الثانية: مظاهرة النساء في ١٠ أبريل ١٩١٩ وقادتها امرأة لا تذكرها الأجيال ولا تعرف حياتها في الحركة النسائية في مصر هي: (شفيقة مُحَّد عشماوي) وكانت أرملة من شياخة غباشي بالخليفة، قادت ثلاثمائة سيدة إلى مقر المعتمد البريطاني تطالب باستقلال البلاد وتدافع عن قادة ثورة ١٩ في المنفى (وهى صاحبة عبارة مس كافيل) وإن (شفيقة مُحَّد) تعقبها جنود الإنجليز وقتلوها بالرصاص عند انصرافها وسط هتاف نساء مصر: تحيا الحرية، في ذمة الله يا شفيقة.

(أطلق بندقيتك في صدرى لتجعلوا في مصر مس كافيل ثانية)

فخجل الجندي وتنحى للسيدات عن الطريق بعد أن لبثن في وهج الشمس أكثر من ساعتين.

فهل نقل عبد الرحمن فهمي عن الرافعي، أم أنه كان لا يرى في نشاط المرأة السياسى في الوفد فائدة، وقد فجرته هدى شعراوي منذ بداية الحركة الوطنية الجديدة تحت قيادة سعد (نوفمبر ١٩١٨)؟! على كل حال فقد استمرت انتقادات عبد الرحمن فهمي اللاذعة لهذا النشاط، فلقد اعتادت اللجنة المركزية لسيدات الوفد أن تحتج ببرقية على كل ما لا يروقها. وتنهي برقيتها بتوقيعات للسيدات المشاركات بالاسم ثلاثى بالطبع تبدأ التوقيعات برئيسة اللجنة (هدى شعراوي). وكثرت هذه البرقيات وأصبحت تشغل جزء من اجتماعات الوفد، وفي إحدى المرات قال عبد الرحمن فهمي أثناء الاجتماع: وإيه أخبار اللجنة المركزية للبريد! وكان يقصد بالطبع اللجنة المركزية لسيدات الوفد!!

ولكن هدى شعراوي استمرت في حركتها وحيويتها. وفي ١٣ ديسمبر ١٩١٩ اجتمعت مع عدد كبير من نساء مصر في اجتماع سمي (بالكاتدرائية المرقصية) وأعلنت هذه المرة عن مغزى التكتيك الذي يهتم به عبد الرحمن فهمي (لأن المكان له دلالته إذا لم يشعر المصريون باختلاف المذاهب الدينية بين مسلمين وأقباط) وناقشوا وكان احتجاجهن على:

نفي الزعماء المنتخبين أبان الثورة.. المعاملة القاسية للشعب طوال الثورة.. لجنة ملنر.. الوزارة المعنية بمساعدة الإنجليز (وزارة وهبة باشا).. رفض مطلب مصر بحضور مؤتمر الصلح وضرورة إعلان استقلال مصر.

وحينما علم سعد زغلول أعجب (بهدى شعراوي) وبمبادئها السابقة وأدهشه بأن ٧١ سيدة وقعن بيان ١٣ ديسمبر ١٩١٩ وبأسمائهن مباشرة فقد تخلت المرأة فيه عن كتابة توقيعها بحرم فلان العلان!! وسألها لماذا هتفن بالإنجليزية في مظاهرة

١٦ يناير ١٩٢٠؟!

فقالت هدى شعراوي: ليفهم الإنجليز إننا جميعاً نريد الاستقلال. الرجال والنساء.

فقال لها: اهتفوا بالعربية وارفعوا علم مصر، يجب ألا يعتقد المصريون أنكن نبت غريب.

وكتب عن ذلك عبد الرحمن فهمي في مذكراته: قامت بعض السيدات المصريات بمظاهر لطيفة في ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرا، وهناك هتفن لسنيوت حنابك المقيم هناك وللوفد المصرى ورئيسه. وللاستقلال التام لجريدة مصر. ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الإنجليز أخرجت كل واحدة علماً مصرياً صغيراً وصحن بأعلى أصواتهن:

"تحيا مصر حرة مستقلة.. الاستقلال التام أو الموت الزؤام.. يحيا سعد باشا زغلول.. يسقط ملنر". وكل هذه النداءات باللغة الإنجليزية..

على أن أهم ما في الموقف هو أن عبد الرحمن فهمي يسجل في تقرير له للوفد مؤرخ في ٢ مارس ١٩٢٠ أن لجنة السيدات التي ترأسها السيدة حرم شعراوي باشا تحتج على مشروعات ري السودان، وغيرها. ونراه هو يقصد شعراوي باشا لا يهتم بمثل ذلك. ولعل ذلك يفسر بداية تباعد (علي شعراوي) عن زعيم الحركة الوطنية (سعد زغلول) ذلك الموقف الذي تبلور عام ١٩٢٢ في تأييد الشعراوي للانشقاق الكبير الذي عرف بحزب الأحرار الدستوريين. فقد عاني الرجل من وجوده وزوجته هدى شعراوي في حزب واحد. ثم أنهكه الوفد.. أخذوا ثروته فهو أغنى رجل في الصعيد. وكلما عبر عن رؤية مختلفة اتهموه بأنه رجعي التفكير ومتعصب ضد الأقباط.

أما هدى شعراوي فقد بدأت تمارس تشاطات خاصة: دعت لجمع تبرعات لإنشاء جمعية لرعاية الطفل وتحمس الناس للدعوة وتم جمع التبرعات لكن الحكومة أوقفت المشروع. وكانت النظارة في ذلك الوقت تحت رئاسة (الحضرة الفخيمة الخديوية) عباس حلمي وسنة ١٩٠٨ بدأت الدعوة لمحاضرات ثقافية على السيدات في قاعة من قاعات الجامعة الأهلية ووافق الأمير أحمد فؤاد، على تخصيص قاعة

لمحاضرات السيدات يوم الجمعة من كل أسبوع. وفي سنة ١٩١٠ اتفقت (هدى شعراوي) مع الأميرة (عين الحياة) وعدد من الأميرات والسيدات على إنشاء (مبرة مُحَمَّد علي) لعلاج الأطفال، وعلى إنشاء مدرسة للبنات وفي مايو عام ١٩١٤ أسست (هدى شعراوي) بمعاونة الأميرتين (عين الحياة) و(أمينة حليم) جمعيتي (الرقي الأدبي للسيدات والمرأة الجديدة) وقد توقف نشاط هذه الجمعيات أثناء الحرب العالمية الأولى. ثم تحولت متحمسة مستقلة عن الوفد منذ ١٩١٦ ثم بدأت مترددة في علاقتها بالوفد من بداية عام ١٩٢٢ فهي لا ترى أنها حققت نصراً سياسياً للمرأة من خلال الوفد، وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تنكر حماس ورعاية سعد زغلول لحركة تحرير المرأة.

وفي مارس ١٩٣٢ وفي يوم ١٦ ذكرى مظاهرة ١٦ مارس ١٩١٩ أصبحت هدى شعراوي جبهة مستقلة بتكوين الاتحاد النسائي المصري الذي استطاع أن يضم بالفعل عناصر من لجنة الوفد المركزية للسيدات فقد أحست المرأة في قرارة نفسها ومنذ بداية الإفراج عنها والأخذ بيدها نحو الخروج الكبير من قفص الحريم – أن الرجل هو صاحب الفضل – وبالتالي فهو لن يتركها لترسم لحياتها بباقي المعالم خارج الحرملك. لن يسمح لها أبداً أن تتخطى الدور الذي رسمه لها.

تبلور هذا الإحساس رويداً رويداً منذ أن علمت بموقف رجال الوفد الذي رفضوا الاعتراف بها في بداية الأمر، وباللجنة المركزية التي رأستها هدى شعراوي، وعلى الفور رأت اتخاذ بعض المواقف التي من شأنها توصيل هذا الإحساس للرجل، ومن ثم رفضت بشدة أن تكون مجرد بديل للرجل أو مقلده له ولسياسته، بل أكثر من ذلك عبرت عن هذا الرفض بشكل واضح وصريح حين أصرت عضوات اللجنة المركزية لنساء الوفد أن يكن عضوات كاملات العضوية، وأن يكون لهن الحرية في التعبير، رافضات الطاعة العمياء للرجال، لمجرد تحقيق الإجماع في الآراء خلال الأزمات. وتجلى هذا الرفض أكثر، حين انتقدت المرأة شروط الاستقلال التي وافق عليها من قبل رجال الوفد!.

إن الإحساس بضرورة الاعتماد على النفس، بعيداً عن إرادة الرجل، قد تجلى أيضاً وبصورة مثيرة في قرار نساء مصر بضرورة إنشاء اتحاد نسائي للمرأة المصرية. واقتنعت هدى شعراوي أن قضية المرأة.. قضيتها وقضية مصر، وأن سعد زغلول بما أعطاها من تأييد، قد كسب بها خطوة للأمام ولكن الوفد كسب بها عدة خطوات في طريقه السياسي ولكنها اقتنعت أيضاً بأنها لن تحقق نصرا سياسيا للمرأة عن طريق الأحزاب، بل إنها آمنت بأن كل التحركات الجيدة والتي سمح بها (للجنة نساء الوفد) كانت في فترات نفي سعد زغلول حينما كانت صفية زغلول تتولى الأمر. ولم يكن اقتناع هدى شعراوي بذلك نابعا من طرحها أي قضية لها علاقة بالمرأة، وإنما نابع من التجاهل الذي رأته في قضية السودان التي تبنتها داخل الوفد كقضية سياسية وتؤيد هذا الرأي آمال السبكي في كتابها "الحركة النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩، ٥٢"

أرسلت هدى شعراوي الاحتجاجات السابقة وظلت تعمل في لجنة نساء الوفد إلى أن اختلفت مع سعد باشا بعد عودته من المنفى نظراً لموافقته على البند الخاص بالسودان الذي رمى إلى مناداة الملك فؤاد بملك مصر دون السودان في البيان الذي ألقاه توفيق نسيم باشا عند توليه الوزارة فما كان من سعد باشا إلا أن أرسل يهنئه على بيانه. ولم يتطرق مطلقاً إلى هذا التجاهل. فثارت هدى شعراوي ولم يعبأ سعد باشا بثورتها بل إنه عندما اجتمع بالوفديين في الاحتفال السنوي للوفد في ١٣ نوفمبر ١٩٢٢، لم يدعها لحضور الاحتفال رغم أن العادة جرت على حضورها ولجنة الوفد المركزية للسيدات منذ ثورة ١٩١٩ وفي الوقت الذي أصدر بياناً عن الاحتفال يشكر فيه كل الوفديين على موقفهم أثناء وجوده بالمنفى، فما كان من هدى شعراوي إلا أن أرسلت رسالة إليه شخصياً تخطره فيها بالرغبة في عدم العمل معه في اللجنة السابقة كما قدمت استقالتها.

فقد كانت هدى شعراوي أصدرت من خلال لجنة الوفد المركزية للسيدات في ٢٦ يناير ١٩٢٠ اعتراضها على ما تمخضت عنه المفاوضات في مشروع ري السودان، ورفضت ذلك لثلاث نقاط:

أولاً: لأن الإنجليز هم الذين وضعوه باعتبارهم أصحاب الشأن في السودان مع أن مركز إنجلترا هناك غير شرعي، ولا يختلف في بطلانه عن مركزها في مصر فإن كليهما قطر واحد لا يقبل التجزئة وحقهما في الاستقلال لا يمكن إنكاره.

ثانياً: لأن هذا المشروع ثبت ضرره بدليل ما نشره الأخصائيون من كبار المهندسين المصريين والإنجليز.

ثالثاً: لأن البت في مثل هذه المشروعات من اختصاص المجلس النيابي الذي يمثل مصر والسودان معاً، وليس الإنجليز.

على العموم طورت هدى شعراوي خطواتها فدمجت جمعيتي (الرقي الأدبي للسيدات المصريات، والمرأة الجديدة) في جمعية واحدة هى المرأة الجديدة تحت رعاية شرفية للأميرة (أمينة حليم) وجعلت مجلس الإدارة برئاسة حرم محمود صدقي.. أما أمانة الصندوق فأسندتها إلى فهيمة ثابت، وكان ذلك في ٢٢ أبريل ١٩٢٠. أما اللجنة المركزية للسيدات فقد تركتها لوكيلتها شريفة فاضل التي لم تقم بأي عمل في اللجنة، بل إنها انضمت لاحقاً إلى الاتحاد النسائي الذي أنشأته هدى، وركزت هدى شعراوي نشاطها على إلقاء المحاضرات في الفنون والآداب وأقامت الحفلات الموسيقية لأشهر العازفين وسمحت بالغناء والتمثيل في بيتها وركزت نشاطها في الصحة والعناية بالأطفال ووجهت المرأة إلى فنون الإدارة المنزلية.

ومن المعروف تاريخياً أن بعد فشل مفاوضات (عدلي– كيرزن) ١٩٢١ التي كانت بين الحكومة المصرية والإنجليز عاد عدلي يكن وقدم استقالته وعادت الثورة من جديد وامتنع الساسة من المصريين عن تشكيل الحكومة، وألقت إنجلترا القبض على سعد وزعماء الوفد، وتوسعت إنجلترا في القبض حتى وصلت إلى القيادة الخاصة في الوفد. ثم تم نفي سعد زغلول وبعض زملائه للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل.

في هذه الفترة ظهرت المرأة المصرية في ثورة بيضاء سلمية قائمة على المقاطعة لكل ما هو إنجليزي (البضائع – السفن – البنوك) وكان إقبال الشعب على المقاطعة

رائعا، وبدأت تفلس أكبر المحلات التجارية البريطانية في القاهرة. أفلس محل (ستاين) ثم محلات (مورنج) وأحداً أثر واحد، وبدأت البنوك البريطانية تغلق فروعها، ثم تغلق أبوابها. خرج الناس ينفذون المقاطعة بإرادة غريبة. كانت بعض المحال التجارية البريطانية تخفض أسعارها إلى النصف لتغري الفقراء ومتوسطي الحال بالخروج على قرار المقاطعة وصمد المصريون للإغراء، فضلوا أن يشتروا البضائع غير البريطانية الغالية على البضائع البريطانية الرخيصة. طلب الوفد من الشعب أن يسحب أمواله من البنوك البريطانية ويودعها في بنك مصر، وفي يوم وليلة خرجت الملايين من الخزائن البريطانية ودخلت بنك مصر. نشطت الصناعات المصرية أصبح كل مصري يتباهى بأنه يرتدي حرير اللوزي أو قماشاً من صنع المحلة.

أصبح محل تجارة حامد المواردي في العتبة أعظم محل تجاري في القاهرة. كبر فجأة وتغلب على شيكوريل وشملا والبون مارشيه وأورزدي باك. فشلت كل محاولات لورد اللنبي والحكومة لإفساد المقاطعة.. ويصاب الإنجليز في مصر بانهيار ويلحون على لورد اللنبي بضرورة التسليم للثوار.. ويبرق اللورد إلى حكومته في ذعر:

(إن الثورة تزداد اندلاعاً. هذا الموقف الخطير لا يمكن أن يستمر. إما أن نضم مصر العنيفة العداء للإمبراطورية وإما نستسلم استسلاماً تاماً!) وعبثاً حاول الإنجليز أن يعرفوا أين تطبع منشورات المقاطعة، ولم يتصوروا أن نساء مصر هن اللاتي يتولين هذه الحرب الخفية. ولم يتصوروا أن مقابلات السيدات في بيوت مختلفة في الصالونات هي اجتماعات سرية توضع فيها خطط المقاطعة. إلا أنه في عام ١٩٢٢ حدث ما لم تتوقعه هدى شعراوي؟! فقد حضرت صحفية أمريكية تدعى (جريس تومسون) لترى نساء مصر بعد أن أصبح تعلقهن ومظاهراتهن مع الوفد محل نظر الدنيا وكتبت كتاباً اسمه (الزغلوليات) أي نساء ثورة مصر زغلول. والتقت في ذلك الوقت بالسيدة صفية زغلول والملكة نازلي، وإذا ببعض السيدات تخطرن هدى شعراوي بأن صفية زغلول لم تذكر عنها شيئاً رغم تحدثها باستفاضة عن غيرها من نساء الوفد، وأنها تنسب فكرة المقاطعة لنفسها وفي لحظة غضب أعلنت هدى شعراوي السر:

"لقد اجتمعنا في منزلي وبعيداً عن لجنة سيدات الوفد سبع عشر سيدة برئاستي وطرحت فكرة المقاطعة وانتخبنا عزيزة فوزي والسيدة جميلة عطية والآنسة سيزا نبراوي سكرتيرتي ووضعت خطة للمقاطعة بنفسي من عدة بنود:

أولاً: رفع احتجاج الجمعية على سياسة إنجلترا نحو مصر والسودان إلى مندوب هذه الدولة بمصر وإلى وزارة خارجيتها بلندن وتبليغ ذلك للحكومة المصرية.

ثانياً: العمل على انتخاب لجان فرعية في المدن والمحافظات لترويج هذه الدعوة.

ثالثاً: نشر نداء للشعب تستحثه على تأييد مبدأ المقاطعة والعمل على تنفيذها.

رابعاً: نشر نداء للتجار وأرباب الصناعات تستحلفهم بحق الوطن عليهم، ألا يستوردوا بضائع جديدة أو آلات صناعية من إنجلترا.

خامساً: أن تعقد جلسات اللجنة كل أسبوع يوم الجمعة بعد الظهر بمنزل الرئيسة إلا إذا طرأت ظروف مستعجلة.

وقالت عبارة رنانة: "ولم يكن المشروع إلا هودج ركبته أم المصريين!!" وكتبت سيزا نبراوي في مذكراتها: أن المقاطعة كانت بدايات أعمال الاتحاد النسائي في ذلك الوقت، أما تاريخ ١٦ مارس ١٩٢٣ فهو تاريخ التأسيس بعد الإجراءات الإدارية. وإذا كانت صفية زغلول اعتبرت حرم بهي الدين بركات باشا (أركان حرب المقاطعة) فالحقيقة أن هدى شعراوي (فيلسوفة المقاطعة وصاحبة الاقتراح)

وظهر كتاب (جريس تومسون) لأول مرة مترجماً للعربية عام ١٩٧٠ كشف عنه النقاب (محمود عوده) وجاء فيه: لقد دهشت أن الشرقيات كما يصورهن خيالنا الغربى المريض قد انقرضن والحوريات المضطجعات في استرخاء يعرضن فتنتهن على أرائك ناعمة من الحرير وحولهن الجواري يعزفن العود لم يعد لهن وجود إلا في كتب الأساطير، لقد وجدت مدام زغلول وهى سيدة تبدو للناظر من الوهلة الأولى ذات شخصية قوية وذات كبرياء ووداعة، فلقد اعتقل زوجها زغلول للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل في ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ بعدما رفض أن يعتكف في عزبته، وشهدت صفية

هانم اعتقاله وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت. وكما قالت لها: "إن سعد سجين سيشل ولكنني هنا روحه الثانية وزوجته التي تصون مكانه".

كذلك ردت بعنف وبثقة على المندوب السامي عندما عرض عليها إمكانية مصاحبتها لزوجها بسيشل حيث قالت: "إنني سأظل في القاهرة وسأعمل كل ما في وسعى لأتم عمل زوجي وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسمان سعد ولكنكم لن تستطيعوا أن تنفوا روحه لأنها تعيش وستظل تعيش، وفي بيته سأكون سعداً حتى يعود. وهو سيعود لأن الشعب لن يرضى بغيابه، ولن يمكنكم من إبعاده طويلاً وحتى لو مات سعد فسيأتي كثيرون غيره وسيتقدمون الصفوف وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة في سبيل استقلال مصر.."

كما أعدت صفية زغلول ولجنة الوفد للنساء منشوراً وزع في كل أنحاء البلاد بعنوان (نداء حرم الرئيس) قالت فيه:

"لئن كان سعد شيخاً فثقوا أن هذا النفي لا يهد من عزيمته إلا شيء واحد هو أن يعلم يوماً أنكم اعتراكم الضعف ولو للحظة واحدة".

وبدأت عقلية الرئيس وزعماء الوفد في المنفى وزعماء الصف الثاني في السجون صفحة كفاح مجيدة لسيدات مصر وقد بدأ احتجاجهن يأخذ شكله العملي بتنظيم مقاطعة البضائع البريطانية وانضم إلى السيدات عدد كبير من سيدات المرأة الجديدة. وجمعية مُحَمَّد علي الأرستقراطية للكفاح من أجل استقلال حقيقي للبلاد.

ولم تكن صفية هانم في الحقيقة سوى أم لكل المصريين، ولهذا لقبت (بأم المصريين) فكانت الزعيمة الروحية للنساء والرجال خاصة من عينة زوجها، كانت الرئاسة الفعلية للجنة السيدات في يد سيدة مصرية ثانية عظيمة، هي السيدة (هدى شعراوي) وكانت سيدة هادئة رزينة وزعيمة وقائدة بكل معنى الكلمة وهي تحمل في وجهها شخصيتها تلك القوة الصافية المتدفقة التي تحسها أمام النيل ونهر مصر العظيم ووراء مظهرها المهذب الشامخ يحس الإنسان أيضاً أن هناك عقلاً مرتباً،

وإرادة صلبة. ولم تسمع هدى شعراوي شهادة تقديرها الحقيقية، وتركت نفسها لأوهامها التي صنعت الجفاء بينها وبين الوفد والمقاطعة الحريمي بينها وبين صفية زغلول. وقد تطورت أحاسيسها المبالغ فيها حتى أنها اعتقدت بأن صفية زغلول هى التي أوعزت إلى سعد زغلول بالعناية (بمنيرة ثابت) لتحل محلها في الوفد بعد ما أظهرته أختها فهيمة ثابت من وطنية بسفرها معها كوصيفة عند مرض سعد زغلول في المنفى!!

ولكن علي الشعراوي ما أن استراح لاستقالة زوجته من الوفد حتى فوجئ بقصره يتحول إلى ملهاة ثقافية: غناء، وتمثيل، واجتماعات و... و... لقد أرخت هدى شعراوي العنان، وتركت نفسها لنشاط فني وبدأت تهيم بالموسيقى التي تعلمتها في الصغر وتركتها وراءها..كانت لا تستطيع أن تفر من ذلك وقد أصبح يشرف على جمعيتها (المرأة الجديدة) الهوانم السيام اللاتي دخلن في ركاب الأميرة الطيبة المهذبة (أمينة حيلم) التي وضعت جزءًا من ثروتها لهذا النشاط.

وفجأة تفجرت قنبلة اسمها (فاطمة سري)، قيل أنها تزوجت عرفياً من (محمد شعراوي) ابن هدى هانم شعراوي بورقة سرية في ١ سبتمبر ١٩٢٤!! ولم تكن فاطمة سوى مطربة اعتادت هدى شعراوي أن تجعلها تحيي حفلات جمعيتها (المرأة الجديدة) وذلك لحسن حظها وذوقها الرفيع في الملابس فقد قال لها يوسف وهبي: "فاطمة سري فنانة مستقيمة من المسرح للبيت ومن البيت للمسرح، إنها بنت ناس!!" وكان غريباً أن تثق هدى شعراوي في يوسف وهبي دون جوان الفن؟!

وجاء ذلك في وقت ظهور الاتحاد النسائي المصري ككيان سياسي تحت رئاستها وتضمن برنامج الاتحاد النسائي مطالب شاملة فقد طالب باستقلال مصر والسودان وحياد قناة السويس حتى لا تستخدم في الحروب وضد مصالح مصر، كما يوكل لمصر حق الدفاع عنها ورفض تحمل ديون تركيا القديمة، وطالب بإلغاء الامتيازات الأجنبية، كما نادى بوضع قاعدة للمفاوضات مع بريطانيا ثم طالب بإدخال تغيرات على دستور مصر أهمها وضع الديمقراطية السياسية موضع التنفيذ بأن تمنح المرأة حق

الانتخاب وبإلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية وقانون التضمينات وكذلك الاهتمام بتحسين الجيش المصري لأنه أهم وسيلة للدفاع عن الوطن الحبيب والسعي لتطوير كافة وسائل المواصلات السلكية واللاسلكية.

هذا في المجال السياسي، أما المجال الاجتماعي فقد دعا إلى نشر التعليم الابتدائي بصفة إلزامية وطالب بالإكثار من البعثات العلمية وفتح باب التعليم القانوني والعالي أمام الجنسين ودون التقيد بسمة معينة مع تعليم الطلاب الصحة العامة والقانون والموسيقى لتهذيب النفوس وزيادة الوعي والحث على استكمال الجامعة المصرية وتشجيع حركة الترجمة لما لها من أثر بارع في نقل نفائس الكتب وأمهات المعرفة، وطالب بتطوير الصناعة وفتح باب الأسواق أمامها وحمايتها من المنافسة الأجنبية وتشجيعها أمام المصريين خاصة بكافة الوسائل. وأخيراً محاربة المسكرات والمخدرات.

أما ما يخص الجانب النسائي، ففي مجال التعليم المطالبة بجعل الوظائف الإشرافية للمرأة والمطالبة بحقوقها المهضومة وقانون الانتخاب والسعي لحل المشاكل الأسرية بطريقة عادلة تضمن للمرأة حريتها وإنسانيتها، وضع قانون يمنع تعدد الزوجات والمطالبة بجعل الطلاق أمام القاضى، إلزام المطلق بالنفقة وزيادة سن الحضانة للأطفال وغيرها من قوانين الأحوال الشخصية.

واستطاع اتحاد هدى شعراوي أن يجذب إليه أنشطة الجمعيات الأخرى وخاصة بعد رحيل سعد زغلول الذي قدم السند الأدبي الكبير لحركة المرأة المصرية. وفي مارس ١٩٢٣ ظهرت هدى شعراوي في المؤتمر النسائي بروما ممثلة للمرأة المصرية حيث ألقت كلمة عن أوضاع المرأة في مصر، فرقت فيها بين أصول الدين وما كفله للمرأة من حقوق وبين الأوضاع الاجتماعية السائدة التي تكرس الوضع الدوني للمرأة. وانضم الاتحاد النسائي المصري للاتحاد النسائي الدولي على أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية والمدنية والعمل على نشر مبادئ السلام.

وفي عام ١٩٢٤ اجتمعت نساء الوفد مع جمعية الاتحاد النسائي المصري وأصدرن كتيباً يشمل تصوراً شاملاً وعاماً به قسم سياسي عن موقفهن من القضية المصرية وقسم عن تعديل الدستور وقسم آخر عن الأوضاع الاجتماعية كما ضم الكتيب قسماً نسوياً يطالب بحقوق المرأة مثل المساواة في التعليم، وزيادة مدارس البنات الثانوية، وفصل إدرة تعليم البنات عن تعليم البنين، وإحلال خبيرات من النساء محل الرجال في فروع التعليم النسوي، واشتراك النساء في حق الانتخاب وإصلاح قانون الأسرة بسن قانون يجعل تعدد الزوجات للضرورة فقط، وأن يكون تطليق المرأة أمام القاضي الشرعي، وقد أرسل هذا الكتيب والذي يكاد يضم برنامجاً كاملاً لحزب سياسي نسائي إلى رئيس مجلس الشيوخ والنواب، والصحافة وعدد كبير من المواطنين والمواطنات.

وعادت هدى شعراوي لقصرها سعيدة قريرة العين ليفاجأها زوجها بما تنشره الصحف ووقفت هدى شعراوي مذعورة مما كتب من قلم جوعان وقلم غلبان وقلم كرباج وقلم هلفوت وقلم حوت وقلم ملطوط.. فما الذي تنشره مجلة (فتاة النيل) و(الصباح) ولكن ما أدهشها صورها.. وهي تمثل سافرة مندمجة في الدور!! وغاص علي شعراوي في مقعده حينما قالت هدى: "هذه الصور حقيقية، ولكن كيف خرجت من البيت؟!.. وعرف علي شعراوي أن زوجته (سبع صنايع) اكتشف أنها شاعرة وكاتبة وأنها تحسن التمثيل كما تحسن العزف على البيانو! واكتشف أن في منزله معمل صغير لصناعة العطور تبتكر بداخله أصناف جديدة تهديها هدى هانم لصديقاتها. وبالتحري وجد في حديقة قصره استديو خاصا تحمض فيه الصور وتكبر اللقطات، وأن زوجته كونت فرقة من الصديقات تقوم فيها بدور المخرج ومهندس الديكور وأن الممثل الوحيد فيها من الجنس الخشن هو نجله (محمد بك شعراوي). أما الرجل الذي وجده في الصورة المنشورة لزوجته هي سيزا نبراوي وقد اندمجت مع هدى شعراوي في دور روميو العاشق الولهان بعد أن تنكرت ولبست ملابس الرجال؟! وحطم علي شعراوي استوديو التصوير وقرر أن يغلق باب القصر بسلسلة

وقفل!! ولكن الرجل وجد طلاب صينيين على باب القصر وسأل في ثورة: إيه دول كمان؟! وعرف أن زوجته تعطف على هؤلاء الطلاب الذين يدرسون في الأزهر وأنها قد جعلت لكل منهم مكافأة شهرية. وفتح الباب وكسر القفل وجلس يعطي لهم..

ولكن هدى لم تخرج واهتدت إلى أهمية الصحافة وجلست لتعد لمشروع إصدار جريدة مصرية بعيدة عن الإسفاف والحياة الشخصية، وأصدرت بالفرنسية التي تجيدها (الأجيبسيان) وأسندت رئاسة تحريرها إلى السيدة سيزا نبراوي، مرافقتها الدائمة وسكرتيرتها الخاصة، وكان مقالها الأول عن: لماذا لم يحقق سعد زغلول وعده بدخول المرأة البرلمان واشتراكها في الحياة السياسية وكان سعد زغلول وقتها يقود الوزارة!!..

وإذا بعض الصحف ترد عليها بمقال: لماذا لا يتزوج الأبناء على سنة الله ورسوله؟! ووجدت أن موضوع ابنها مع فاطمة سري قد تطور فأرسلت علي بك سعد الدين لها بألف جنيه فقالت له هذا لا يرضي الله؟! واعتقدت هدى أنها تطمع في المزيد فأرسلت المحامي الهلباوي بك بأربعة آلاف جنيه فألقتها فاطمة سري في وجهه وقالت له إنت محامي أم قواد؟! وإذا بفاطمة سري تعلن أنها حامل من ابن هدى هانم، وبدأت حركة نسائية كبيرة استعملت فيها الملاية والحيابي والطماطم والبيض الفاسد وبينما كانت معركة (هدى – فاطمة) دائرة، إذا بخطاب يصل من باريس يطالب الاتحاد النسائي المصري بالمشاركة في المؤتمر النسائي الدولي العاشر عام ١٩٢٦، وتحصل هدى شعراوي على تأييدات عربية من النساء لتكون ممثلة عن مصر ونساء العرب (العراق – سوريا – فلسطين – لبنان – شرق الأردن) لتعود من هذا المؤتمر وقد فكرت في الاتحاد النسائي العربي فقد هالها الموضوعات المعروضة في مؤتمر باريس والتي كانت تسمع عنها لأول مرة: الأم غير الزوجة، جنسية الزوجة، منع تجارة الرقيق، دور المرأة في السلام العام، بينما كانت في جعبتها موضوعات: فوضى الطلاق، بيت الطاعة، وضع حد لتعدد الزوجات.

وحينما عادت من المؤتمر وجدت نفسها قد حصلت على نيشان الكمال من

لبنان. وأصبحت منذ ذلك الوقت رئيسا للاتحاد النسائي العربي. (واستمر هذا الاتحاد حتى بعد وفاة هدى شعراوي، وفي سنة ١٩٥٦ تولت رئاسته د. سهير القلماوي واستمرت رئيسته حتى ٧٩ وعلقت عضوية مصر فيه. وألغي الاتحاد النسائي المصري. وقالت عنه د. سهير القلماوي أنه اتحاد من ١٦ دولة عربية يحاول أن يعمل للتعارف بين البلاد العربية بأنشطة نسائية ولكنه في الحقيقة ليس له تأثير سياسي أو إلزام دولي) وفكرت هدى شعراوي في أهمية إصدار مجلتها (المصرية) باللغة العربية حتى تستطيع أن تكون بمثابة منبر ليس للاتحاد النسائي المصري، ولكن الاتحاد النسائي العربي وعرضت رئاسة التحرير على د. سهير القلماوي (الآنسة سهير القلماوي وقتها) وتقول عن ذلك: بدأت في الإعداد ولكني فوجئت بأن هدى شعراوي تريدها ترجمة لمجلتها الفرنسية (الأجيبسيان) فرفضت ولم أجد ديمقراطية في هدى شعراوي. وشعرت بأنه اتحاد هدى وهوانمها وليس اتحادا للمرأة!!

ومنذ عام ١٩٢٦ ظهرت علاقة غريبة بين الاتحاد النسائي المصري والحركة النسائية في أمريكا، وبدأت مجموعة من الزيارات لهدى شعراوي إلى أمريكا (حتى الآن لم يكشف عن تلك العلاقة ومداها، ولم أجد شيئاً بخصوصها في المراجع) إلى أنه أتبع ذلك زيادة نفقتها على تعليم الفتيات في مصر والخارج حتى أن المثال مختار اسماها (إيزيس) فقد تبنت فنه وجعلته يتفرغ له. وبعد عقد معاهدة ٣٦ لم تتفق هدى شعراوي مع النحاس باشا وظل هجومها مستمراً عليه، ولم يأخذ الرجل الأمر بجدية وإنما حكى حكاية عن فاطمة[٧] سري وكيف قابلها في النمسا حينما هربت لتضع

---

(٧) وأعلن الصراع بين المطربة والزعيم ولكن الغريبة تبادل الأسلحة، المطربة تستخدم المبادئ التى تنادي بها هدى شعراوي، وهدى شعراوي تستخدم أسلحة المغنواتية (نعمي.. يا عمر.. وهات يا ردح).. أنا اسمي فاطمة سري ولم أغير اسمي لفاطمة شعراوي كما فعلت حماتي (اسمها نور الهدى سلطان) وتزوجت علي باشا شعراوي فأصبح اسمها هدى شعراوي!! وإذا كانت تدعي أني لا أحب محمد شعراوي، فلتقل لي هل كانت تحب هي علي باشا شعراوي الذي تزوج قبلها، وكان فارق السن بينهما ٤٠ سنة!! إذا لم أكن ربيت.. فأنت لم تحسني تربية ابنك.. لقد خطفني في سيارة وأنت تعلمين!!، وقالت هدى شعراوي :القذرة.. بتاعة مين.. ومين إنها لها ملف في الآداب.

مولودها (ليلى) الذي حملت به من مُحَمَّد علي الشعراوي ابن هدى شعراوي وأثبتت الولادة في القنصلية المصرية في فيينا وكيف أنه وقف معها، لأن يقف مع الحق.. وعرف أنها واقعة تحت تهديد فنصحها أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار وعندما تيأس من المقاومة تسلم صورة الإقرار وتحتفظ بالأصل. وأن أم مُحَمَّد (يقصد هدى شعراوي) لم تغفر لها ذلك!!.. واستعمل عبارة قلبها أسود!!

وكتبت فاطمة سري خطاباً إلى هدى شعراوي أما نصه فقد نشره مصطفى أمين في كتابه (من واحد لعشرة) وأعاد نشره عدة مرات. سيدتي: سلاماً وبعد.. أنا اعتقادي بك وبعدلك، ودفاعاً عن حق المرأة يدفعني كل ذلك إلى التقدم إليك طالبة الإنصاف، وبذلك تقدمين للعالم برهاناً على صدق دفاعك عن حق المرأة، ويمكنك حقيقة أن تسيري على رأس النساء مطالبة بحقوقهن، ولو كان الأمر مقصوراً علي لما أحرجت مركزك، إنك أم تخافين على ولدك العزيز أن تلعب به أيدي النساء، وتخافين على مستقبله من عشرتهن، وعلى سمعته من أن يقال أنه متزوج امرأة كانت فيما مضى من الزمان تغني على المسارح، ولك حق أن عجزت عن تقديم ذلك البرهان الصارم على نفسك، لأنه يصيب من عظمتك وجاهك وشرف عائلتك كما تظنون يا معشر الأغنياء، ولكن طفلة مسكينة هي ابنتي وحفيدتك، ابنة نجلك العزيز، والله يعلم، وهو يعلم، ومن يلقي عليها نظرة واحدة يعلم ويتحقق من أنها لم تدنس ولادتها بدم آخر، والله شهيد، وطالبت بحق هذه الطفلة المعترف بها ابنك كتابياً، قبل أن يتحول عني وينكرها وينكرني، فلم أجد من يسمع لندائي، وما مطالبتي بحق وحقي كزوجة طامعة في مالكم، كلا! والله فقد عشت قبل معرفتي بابنك، كنت منزهة محبوبة كممثلة تكسب كثيراً، وربما أكثر مما كان يعطيه لي ابنك، وكنت متمتعة بالحرية المطلقة وأنت أدرى بلذة الحرية المطلقة التي تدافعين عنها، ثم عرفت ابنك فاضطرني أن أترك عملي وأنزوي في بيتي، فأطعته غير طامعة بأكثر مما كان يجود به، وما كنت لأطمع أن أتزوج منه، ولا أن ألد منه ولداً، ولكن هذه غلطة واسأليه عنها أمامي، وهو الذي يتحمل مسئوليتها، فقد كنت أدفع عن نفسي مسألة الحمل مراراً وتكراراً، حتى وقع ما لم يكن في حسابي هذه هي الحقيقة وانتهى الأمر). وفي الجمعيات النسائية كان النساء يقلن يخلق من ظهر العالم فاسد (هدى شعراوي) تنجب ولداً بهذا السوء. وتضع هدى شعراوي كل قوتها في قضية أمام القضاء؟! وتحدث تدخلات، وقضاة يصمدون للإغراء، ومحامون يتصيدون الأدلة والمستندات، وإذا بالمحكمة الشرعية العليا تحكم بأن ليلى هي ابنة مُحَمَّد شعراوي، وفي الحال قررت هدى شعراوي أن تطلب بنوة الابنة، ونجحت في ذلك فتحت لها سرايتها وضمتها إلى صدرها وكأنها تعتذر لها، أما أمها فقد أبقتها خلف الأسوار. وقالت لمحمد..انس الموضوع لا عودة للماضي، وقالت لها فاطمة سري: أخذتِ رجلي الذي أحببته على مهلي.. حتى ضعفه أحببته والآن تأخذين ابنتي.. وقالت لها: أو لم تقل كان هناك الخادم النوبي يوصلها إلى الباب والمعنى الزيارة انتهت. وفي الحديقة تمتمت المطربة بدعاء وهي تنظر إلى السماء.. وفي الوقت الذي كانت فيه ليلى مُحَمَّد شعراوي في أمريكا تتعلم كان أبوها يدخل في قصة جديدة.. إنه يعشق الفن وهذه المرة مع الراقصة أحلام وزواج على سنة الله ورسوله بفرح ورزق منها بثلاثة أولاد. وقال الناس: "آه لو عرفت هدى شعراوي.. اللى (ما يرضى بالخوخ يرضى بشرابه!!) ولم تعلم هدى هانم بالكارثة الجديدة فقد ماتت بالسكتة القلبية وهي جالسة تكتب بياناً في فراش مرضها تطالب فيه الدول العربية بأن تقف صفاً واحداً في قضية فلسطين.

وفي كتاب (د. آمال كامل السبكي) سابق الذكر ذكرت أساس هذه المعارضة وموقف هدى شعراوي: لقد رأت هدى شعراوي أن هناك ثمة تعارضاً أو تناقضاً ما بين المادة التي تنص على إنهاء الاحتلال العسكري البريطاني والمادة التي تقضي بإبقاء الجنود البريطانيين في بعض المناطق المهمة في مصر ثم أرسلت هدى شعراوي تحتج على التكاليف الباهظة التي ستدفعها (المحروسة) بناء على نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ في الوقت الذي يطالب فيه الشعب النحاس باشا بخفض النفقات.

ظلت هدى شعراوي مستمرة في هجومها على النحاس باشا والوفد بعد عقد المعاهدة وبعد مؤتمر مونترو. ولكن البعد الكامل عن الوفد تجلى في موقفها المؤيد للسعديين والمتعاطف معهم فعندما أخرج النحاس باشا كلاً من النقراشي وأحمد ماهر نشرت مقالاً طويلاً ضد الوفد تحت عنوان: (أخطاء السياسة الداخلية في عام) عابت فيه على النحاس باشا سياسة الذاتية رغم كونه زعيماً للأغلبية واتهمته بأن الاستقلال في نظره لا يعدو أن يكون استقلالاً بالحكم واضطهادا لمعارضي الوفد كما عابت عليه إسرافه في منح الرتب والنياشين والترقيات لمناصري سياسته وتلك المحسوبية التي لم تنج منها في نظرها سوى وزارة المواصلات التي كان النقراشي وزيرها وكذا ميزانية مجلس النواب التي أشرف عليها أحمد ماهر. ثم كان في تأييدها لاتهام النقراشي للنحاس باشا في موضوع الزعامة المقدسة ما يثبت هذا النهج الجديد في سياستها المؤيدة للسعديين وأحزاب الأقليات والرامي إلى أبعاد الوفد بعد أن انتهت مهمته كما رأت بعقده لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ويتضح ذلك من قولها. (يطالب النحاس الجميع بالطاعة العمياء لزعامته باعتبارها زعامة معصومة من الأخطاء. ثم يطالب أن يفنوا أشخاصهم في قدسية زعامته دون أن يسألوه عما يفعل) واستمرت هدى شعراوي تحتج على وجود كتائب (القمصان الزرقاء) رغم ما أعلنه الوفد مراراً بأن الباعث لوجودهم هو حماية الديمقراطية من عبث القوات الأخرى مثل (القمصان الخضراء) التي كونتها (مصر الفتاة) وكتائب الكشافة التي أعدها الإخوان المسلمون، وطلبة النضال أو كتائب المقاومة التي نظمها اليسار والتي نزلت أثناء حوادث فبراير سنة

١٩٤٦ وقال النحاس لها (أعلم أن الملك فاروق مصلطك علي بس القمصان باقية)

كان احتجاج هدى شعراوي سببه أن تلك الكتائب أصبحت أداة إرهاب في البلاد، ومنبع قلاقل، وكثيراً ما سببت رعباً للجماهير باعتداءاتها المتكررة عليهم كذلك الخسائر التي يحدثونها بتعديهم على المحال التجارية والمكاتب والمنازل وهذا في الحقيقة يتعارض مع الديمقراطية التي يقول الوفد أنه حاميها. واستمر عداء هدى شعراوي للوفد حتى قالت عنه أنه ميراث تبدد وثوب تهلهل، والميراث الذي تبدد في نظرها هو تركة سعد زغلول السياسية التي ورثها النحاس باشا فبددها، وأما الثوب الذي تهلهل فهو ثوب الوفدية الذي ورثه النحاس باشا مع التركة السياسية المهلهلة فأوسعه تمزيقاً.ثم أشارت إلى اختلاف برنامج الوفد عن باقي الأحزاب السياسية لذلك لا مبرر لبقائه في الحكم.

لم تتوقف هدى شعراوي عن مناهضتها للوفد حتى أنها تقدمت باحتجاج باسم الأمهات المصريات استنكرت فيه اعتداء البوليس على الطلبة كما احتجت على خنق حريات الجماهير، إذ واجب الحكومة هو احترام الدستور الذي يكفل حرية الرأى للشعب وإن كانت الوزارة عاجزة عن القيام بهذا لتترك الحكم لغيرها..

وفي بداية الأربعينات، وقفت هدى شعراوي مع نبوية موسى في مناصرة القصر والملك فاروق بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ضد النحاس والوفد والإنجليز، وأصبحت أحد "المعتمدة" عند أحمد حسنين باشا (رجل القصر والملك) حتى أنه لجأ إليها في بعض مشاكل فاروق مع زوجته (الملكة فريدة) ولذلك حصلت على الوشاح الأكبر من نيشان الكمال من الملك فاروق في حفل الاتحاد النسائي. وعند وفاتها أرسل الملك فاروق والإمبراطورة أخته فوزية والأميرة فايزة مندوبين عنهم للتعزية وكذلك الهيئات التي كان يشرف عليها أميرات القصر مبرة مُحَمَّد علي وسيدات الهلال الأحمر.

وقد كانت هناك حرب باردة بين (منيرة ثابت) ومجلة (الأمل) التي أسسها الوفد

عام ١٩٢٥ لتكون مناصرة لأرائه بعد تأسيس هدى شعراوي لاتحادها النسائي، فكان من الطبيعي أن يكون التنافس بين الاثنين لاختلاف الآراء والأهداف. إلا أنه سنة ١٩٣٣ دعتها هدى شعراوي والاتحاد النسائي للاحتفال بأول دفعة من خريجات الجامعة وكن أربع فتيات.. ثلاث من كلية الآداب ومنيرة ثابت نفسها باعتبارها حاصلة على ليسانس الحقوق من غير الجامعة المصرية.. وكما تقول سيزا نبراوي أن سبب دعوتها هو ضمها إلى الاتحاد النسائي؟! ولم تتجه منيرة ثابت إلى الاتحاد النسائي وتشارك فيه إلا عندما اهتمت هدى شعراوي بقضية فلسطين (عرضت القضية في مجلة المصرية لإضراب شعب فلسطين ١٩٣٦وظهرت فيه مبادئ الحاج أمين الحسيني مفتى فلسطين، وأوضحت التحقيقات المنشورة أنه أطول إضراب عرفته البشرية لاستمراره ٦ شهور) أصبحت فلسطين موضوعا أساسيا في مجلة المصرية منذ إنشاء المجلة باللغة العربية. ولم تجذب قضية فلسطين منيرة ثابت وحدها، وإنما وجدنا زينب الغزالي (الإخوان المسلمون) تقبل الاشتراك في نشاطات هدى شعراوي في (هذه القضية وحدها)

وفي الفترة بين ١٥ و١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ عقد (المؤتمر النسائي الشرقي) في القاهرة وهو من أهم المؤتمرات التي عقدت لنصرة فلسطين قالت هدى شعراوي فيه أن (فكرة إيجاد وطن قومي لليهود ليست ناشئة عن مجرد عطف بريطانيا العظمى عليها وحبها لها، وإنما هي وليدة مطامع استعمارية خطيرة خلفتها سياسة طائشة أرادت أن تلعب بالنار لتحقيق مآرب سياسية لها خطورتها على الأمم الشرقية والسياسية العالمية).

وقالت هدى شعراوي (أن نساء مصر يسوؤهن تصرف بريطانيا هذه وإن كان هناك معاهدة تحالف قد عقدت بين بريطانيا ومصر فقد فعلت مصر بعد أن ساعدت بريطانيا بلاد الحبشة الضعيفة ضد إيطاليا وسياستها الاستعمارية في شرق إفريقيا ولم تكتف بعقد المعاهدة بل دفعتنا الحماسة إلى السخاء في التنازل لها عن كثير من حقوقنا نظير دفاعها عن جارتنا وانتصارها للأمم الضعيفة. ولقد استطردت هدى

شعراوي بأن هذا رياء ومظاهر لا حقيقة لها لعبة من ألعاب الدول القوية فهي تعترف أخيراً بالاحتلال الإيطالي على الحبشة ثم بعد ذلك تتخلى رويداً عن حماستها وتعضيدها للحبشة وتضحي بصداقة روسيا وتستسلم لمطالب هلتر، وتفسر هذا التراجع بأن اليابان كانت تخطط لتحقيق فرصة اشتباك إنجلترا في الحرب لتهاجم المستعمرات البريطانية. ومن ذلك نرى أن بريطانيا العظمى لا تستأسد إلا على الأمم الضعيفة ولا تحترم إلا القوة على اختلاف أنواعها ولا يخفى على حضراتكم ما لليهود من قوة مالية..

ثم اختتمت كلمتها بقولها (إن القوة المعنوية التي كانت وما زالت تملكها العرب لها الغلبة دائماً على القوة المادية لأن القوة الغاشمة تخرب وتدمر والقوة المعنوية تبني وتعمر، وهذه القوة تملأ والحمد لله نفوسنا فأبشركن سيداتي بأن الأمة العربية تستعيد مجدها بإذن الله وربما كانت هذه المآسي والتضحيات درسا لنا وبشيراً لخاتمة حسنة لم تكن في الحسبان).

أما عن ممثلات مصر في هذا المؤتمر فكن السيدة هدى شعراوي رئيسا، ونفيسة حرم مُحَمَّد علي علوبه باشا، أمينة حرم الدكتور فؤاد بك سلطان، بسيمة حرم عبد الرحمن رضا باشا، جميلة حرم حسن بك أبو شنب، عزيزة حرم الدكتور حسين هيكل باشا، علية حرم محمود خليفة بك، بهيجة حرم حسن رشدي، أنصاف حرم منصور فهمي بك، سيزل حرم مصطفي نجيب، درية حرم أحمد فكري، منيرة ثابت، ماري كحيل، إلين صرف، حواء إدريس إيفا حبيب المصري، حنيفة أحمد علي علوبة، تحية مُحَمَّد، نعيمة الأيوبي، زينب الغزالي.

وبالاطلاع على مذكرات هدى شعراوي المنشورة بكتاب الهلال وجدنا مسطوراً بيدها (عندما زرت بيت الله الحرام تصدقت بأموال من مالي ومن سيدات فضليات في الاتحاد النسائي وبعض الجمعيات الأخرى وتقابلت مع سمو الملك عبد العزيز آل سعود وعرضت عليه في وقتها إنشاء مدرسة لتعليم الفتيات، فحازت الفكرة القبول لديه)..

وفي مجموعة من الدراسات ذكر: أسست هدى شعراوي قبل وفاتها جمعية خيرية من جميع البلاد الإسلامية لرعاية فقراء المسلمين الذين نزحوا من بلادهم للإقامة في مكة والمدينة بعد أن لاحظت حالتهم المليئة بالشقاء والحاجة ولقد بلغت قيمة التبرعات والمساعدات التي كانت هدى تمد بها المحتاجين والفقراء خمسة آلاف جنيهاً سنوياً.

ويبدو أن فكرة إنشاء جامعة الدول العربية هي وليدة للمؤتمر النسائي العربي الذي نظمته هدى شعراوي في القاهرة في أكتوبر عام ١٩٣٨ للدفاع عن قضية فلسطين (كما سبق ذكره) وكان آخر ما كتبته هدى شعراوي ونشر بالأهرام يوم وفاتها هو تلك البرقية. تلقت رئيسة الاتحاد (النسائي العربي) برقيات من رئيسات الاتحادات النسائية في الأقطار الشقيقة: العراق – سوريا — فلسطين – لبنان– شرق الأردن، بمناسبة انعقاد جامعة الدول العربية يفوضنها في اتخاذ القرارات الحاسمة لنصرة فلسطين وتأييد الجامعة في نضالها.. كما عبرن في هذه البرقية عن تنظيم جهودهن لجمع المال وإعداد الكساء وقيد أسماء المتطوعات للإسعاف والاستعداد الكامل للجهاد مع أخواتهن العرب جنباً لجنب.

كانت خلاصة آرائها بالنسة للمرأة منبثق من إيمانها الكامل بكفاءتها ومساواتها للرجل في كل القدرات؛ لذا استطاعت رفع السن الأدنى لزواج الفتاة إلى ١٦ عام وللفتى ١٨ عام وقد رأت أن نجاح الارتباط يأتي من الاقتناع الكامل المبني على المعرفة الجيدة قبل الزواج من خلال الاختلاط في محيط الأسرة.. كما آمنت بأنه لا بد من وضع قيود أمام الرجل للحيلولة دون الطلاق خوفاً على سلامة بنيان الزوجية.. كما اعتبرت أن عدم تعليم المرأة تعليما عاليا وفتح كافة آفاق المعرفة أمامها مثلها في ذلك مثل الرجل سيؤدى حتماً إلى تأخر المجتمع وتخلفه عن ركب الحضارة.

بقيت نقطة دار حولها الجدل واتهمت فيها هدى شعراوي بالانحلال! هل خلعت هدى شعراوي الحجاب وألقته على الأرض في ثورة ١٩؟! لقد رأيت بمراجعتي أن

هدى شعراوي خرجت في مظاهرتين ١٦ مارس ١٩١٩، ١٦ يناير ١٩٢٠ ولم يذكر شيئا عن خلعها الحجاب؟!

فالحقيقة أن هدى شعراوي وسيزا نبراوي لم تخلعا الحجاب الشرعي الذي يكشف عن الوجه والكفين وإنما خلعا النقاب ولم يكن ذلك أثناء المظاهرات، وإنما عرف عنهما ذلك في الوقت الذي كان النقاب منتشراً بين النساء.. وفي آراء هدى شعراوي أنها مع السفور الذي لا يخالف الدين ولو خالف التقاليد وقد قررت "المستشرقة مارجو بدران" ذلك بقولها: أدركت المرأة المصرية آنذاك أن النقاب ليس فريضة دينية ومع ذلك فقد أدركت النساء الضريبة الباهظة التي ستضطرهن أو أبنائهن لدفعها إذا ما جاهرن بهذه الدعوة، ومن هنا رأين أن يكون التغيير تدريجياً من خلال الفعل لا القول.. لقد تنبأت ملك حفني ناصف وهدى شعراوي بانحسار النقاب، ومع ذلك لم تدع أي منهما لنبذه، على العكس فلقد حذرت كلتاهما من ذلك في تلك الفترة..

مع ذلك فبعد ٢٤ عاماً من نشر كتاب تحرير المرأة ووفاة قاسم أمين نزعت هدى شعراوي وسيزا نبراوي النقاب باعتباره رمزاً للقوة الغاشمة والنظام الذي دعا قاسم أمين لمقاومته. وتستطرد لو كان فعل خلع النقاب من (هدى شعراوي) وزميلتها فعلا مرتبطا بثورة ١٩١٩. لما أحتاج سعد زغلول لمحاولة تكراره للتأكيد عليه، وبخاصة أن سعد كان أزهرياً في الأصل، فقد رفع سعد اليشمك عن وجه ابنة الشيخ علي يوسف في إحدى الحفلات الدينية في بيت الأمة، ولم يقلع النساء عنه. ووقفت الآنسة فكرية حسني تلق خطابا على وجهها البرقع. فتقدم سعد أمام الألوف ورفعه وأصبح هذا أمراً من قائد الثورة بنزع ما يخفي الوجه، وليس الحجاب. وأعتقد أن ما وصلت إليه (مارجو بدران) هو الراوية السليمة؛ فقد ذكر مصطفى أمين في كتابه (الكتاب الممنوع) ج٢، ص٨، طبعة دار المعارف ٧٥.

(أما موقف سعد زغلول الحاسم تجاه الحجاب فقد تجلى عام ١٩٢٣ حينما عاد من منفاه واستقبلته مصر كلها استقبال الغزاة الفاتحين.كانت معه صفية زغلول قالت

له قبل وصول الباخرة إلى ميناء الإسكندرية.. ألم يحن الوقت لكي أنزع البرقع الأبيض؟ فالتفت إليها سعد زغلول ثم إلى شابين كانا معها هما واصف غالي وعلي الشمسي ثم سألهما رأيهما وإذا بهما يعترضا بحجة ألا تكون هي البادئة بنزع الحجاب. وإذا بسعد يقول: هذه ثورة ارفعي حجابك..

ورفعته صفية زغلول ثم ظهرت للجماهير لأول مرة بوجه سافر مكشوف وإذا بنساء مصر يتشجعن ويرفعنه بعدها كمظهر من مظاهر الحرية التي رافقت مسيرة المرأة آلاف السنين.

فحتى مصطفي أمين لم يعرف الفرق بين البرقع والحجاب؟! وأعتقد ان وقوف المرأة بوجه سافر يعتبر نزعاً للحجاب!! مع أن إظهار الوجه والكفين في إطار الحجاب الإسلامي السليم. وقد ركز الإخوان المسلمون على ذلك فمثلاً في كتاب مُحَمَّد قطب (قضية تحرير المرأة) جاء فيه: عندما احتلت إنجلترا مصر فشلت فشلاً ذريعاً في غزوها ثقافياً. لذا تسللت عن طريق المرأة فظهر عميلها قاسم أمين وطالب بتعليم المرأة باعتبارها نصف المجتمع ولما نجحت حملته بدأ يطالب بخلع الحجاب فواجه ثورة كبرى إلا أنه أثناء ثورة ١٩١٩ شاركت النساء في مظاهرات ضد الاستعمار الإنجليزي وكانت أول مشاركة للمرأة في الحياة السياسية وشعر الرجال بمدى بطولتهن، وفي إحدى المظاهرات بميدان الإسماعيلية وأثناء الهتاف بسقوط الاستعمار فوجئ الجميع بقيام النساء بخلع النقاب وإلقائه في الأرض ثم سكب البنزين عليه واشتعلت فيه النيران وعندئذ أطلق على الميدان اسم ميدان التحرير تخليداً لذكرى تحرير المرأة (فهل فرضت إنجلترا الحجاب على النساء أم فرضه الله من فوق ٧ سموات قبل ١٤ قرن)؟!

وعن نفس الموضوع تكتب درية شفيق في كتابها (المرأة المصرية من الفراعنة حتى الآن) قالت: كان ذلك حوالي عام ١٩٢٣ عندما كانت السيدة (هدى شعراوي) قادمة من فرنسا، وهي لم تبلغ بعد العقد الرابع من العمر، بمصاحبة كريمتها وزوج كريمتها المرحوم محمود باشا سامي، وسكرتيرتها السيدة (سيزا نبراوي) وكانت على ظهر الباخرة التي يعود عليها الزعيم سعد زغلول من فرنسا بعد شفائه، وكانت هدى

شعراوي لا تزال تفكر في النظرة التي تقابل بها المرأة المصرية، حتى أنهم كانوا حين يرون هدى شعراوي وزميلاتها بلا يشامك ولا براقع يتشككون في مصريتهن، وفي ذلك المؤتمر الأخير بالذات كانت مندوبات الدول المختلفة ينكرن على السيدة هدى شعراوي مصريتها، ولم يكن يتعرفن إلا بمصرية واحدة كانت تصر على حضور المؤتمرات آن ذاك محجبة لا تكشف شيئاً من وجهها وهي المرحومة (نبوية موسى).

حينئذ قالت هدى شعراوي:

– "ما دمنا نظهر في مؤتمرات فرنسا سافرات الوجه بدون أن يكون في هذا ما يخدش الحياء والشرف، فلماذا لا نظهر سافرات في بلادنا أيضاً!!"

– "ولكن التقاليد في مصر لا تسمح بالسفور!"

– ولماذا لا تتطور هذه التقاليد مع الزمن؟!

– وماذا نصنع نحن في هذه التقاليد؟

– لا بد ان يكون لدينا من الشجاعة ما يجعلنا نقوم بدور إيجابي في ذلك..

– ولماذا لا نبدأ نحن فتتبعنا الأخريات؟

وقد كان، فحين وصلت الباخرة إلى الميناء، بدأت هدى شعراوي ومن معها من النسوة في رفع اليشامك والأنقبة. وتحكي هدى شعراوي عن ذلك بقولها (ورفعنا النقاب أنا وسكرتيرتي، وقرأنا الفاتحة، ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتي الوجه وتلفتنا كي نرى تأثير الوجه الذي أصبح سافراً لأول مرة بين الجموع فلم نجد له تأثيراً أبداً).

ثم نجد روايتين (لسيزا نبراوي) الأولى شفهية سجلتها مارجو بدران في رسالتها للدكتوراه والتي عنوانها (هدى شعراوي وتحرير المرأة المصرية) في حديث أجري بينهما: انضم الاتحاد النسائي المصري إلى التحالف الدولي مع التزام أعضائه في إطار الحركة النسائية الدولية بالحصول على الحقوق السياسية التي سلبت منها جنباً إلى جنب مع

الحقوق الاجتماعية والاقتصادية. وعند عودتهن من الاجتماع النسائي نزعت كل من هدى شعراوي وسيزا نبراوي الحجاب في محطة القاهرة وقبل النزول من القطار وذلك أمام حشد كبير من السيدات المهللات.. وجاء هذا العمل بمثابة إعلان رسمي من قبل رائدات الحركة النسائية بإنهاء نظام الحريم، ووضع حد لعزلة المرأة والفصل بين الجنسين وبداية الحركة النسائية الرسمية والعلنية في مصر.. وفي نفس هذا الأسبوع ولأول مرة في التاريخ ظهر وجه المرأة المصرية في الصحف المحلية (وذلك بعد مضي حوالي نصف قرن منذ سماع صوتها لأول مرة في الصحف) مما أعاد تأكيد بشكل رسمي من جديد وضع حد نهائي لاحتجابها وانعدام شخصيتها.

والثانية سجلتها في مذكراتها، ويبدو أن سيزا نبراوي داهية الحركة النسائية المصرية فهي كانت سكرتيرة هدى شعراوي، ثم قفزت من سكرتيرة لمؤسسة في الاتحاد النسائي وتولت رئاسة تحرير المصرية بالفرنسية وظلت وراء الحركة في الخلف مكتفية بالدور الثاني السنيد، واستمر حالها كذلك مع درية شفيق. أما ما سجلته في مذكراتها: ففي صيف عام ١٩٢٣ عندما كان رئيس حزب الوفد سعد زغلول وزوجته صفية زغلول في طريق عودتهما إلى مصر على نفس الباخرة مع هدى شعراوي، لاحظ رئيس الوفد أن الحجاب كان مرفوعاً عن وجه هدى شعراوي، ولكنه كان يغطي شعرها (طبقاً لما يقضي به الإسلام) فطلب منها أن تساعد زوجته على وضع الحجاب مثلها، وكانت صفية زغلول تهم بمغادرة الباخرة في الإسكندرية دون حجاب عندما رأها رجال الوفد واعترضوا بشدة مصممين على أن الشعب لن يقبل ذلك.

وغادرت صفية زغلول وزوجة رئيس الوفد الباخرة بالحجاب بينما غادرت هدى شعراوي رئيسة اللجنة المركزية نساء الوفد الباخرة بدون يشمك على الوجه.

الفهرس

مقدمة ٥

ودخلت مسابقة يوسف السباعي بالكتابة عن يوسف إدريس؟!() ١١

القبض على بطلة رواية (سارة) للعقاد؟! ٢١

وقال نابليون: ما الدين إلا سياسة في الأصل............................ ٣٠

وقال قيصر: حتى أنت يا بروتس؟! ٣٩

وقالت الكاتبات: نخجل من القارىء المتلصص علينا؟! ٥٨

وجاءوا بسعاد حسني عارية ملفوفة في سجادة فيما يشبه فيلم كليوباترا. . ٦٤

في أوكار الذئب الفكري للرجل الشرقي ذهبت مى للعصفورية؟! ٧٢

وقال التابعى نعم أحببت اسمهان.. ٨٤

وقال السادات: التهامي فيه شيء لله؟!! ٨٩

تحت معطف النازية ؟!.. ١٠٥

المهندس حلمي السعيد يكشف المستور في شهادته للأجيال؟! ١١٤

ولأسباب غريبة تعذبت برواية النبطي ١٢٠

هدى شعراوي التي لم يعرفها أحد؟! ١٢٧